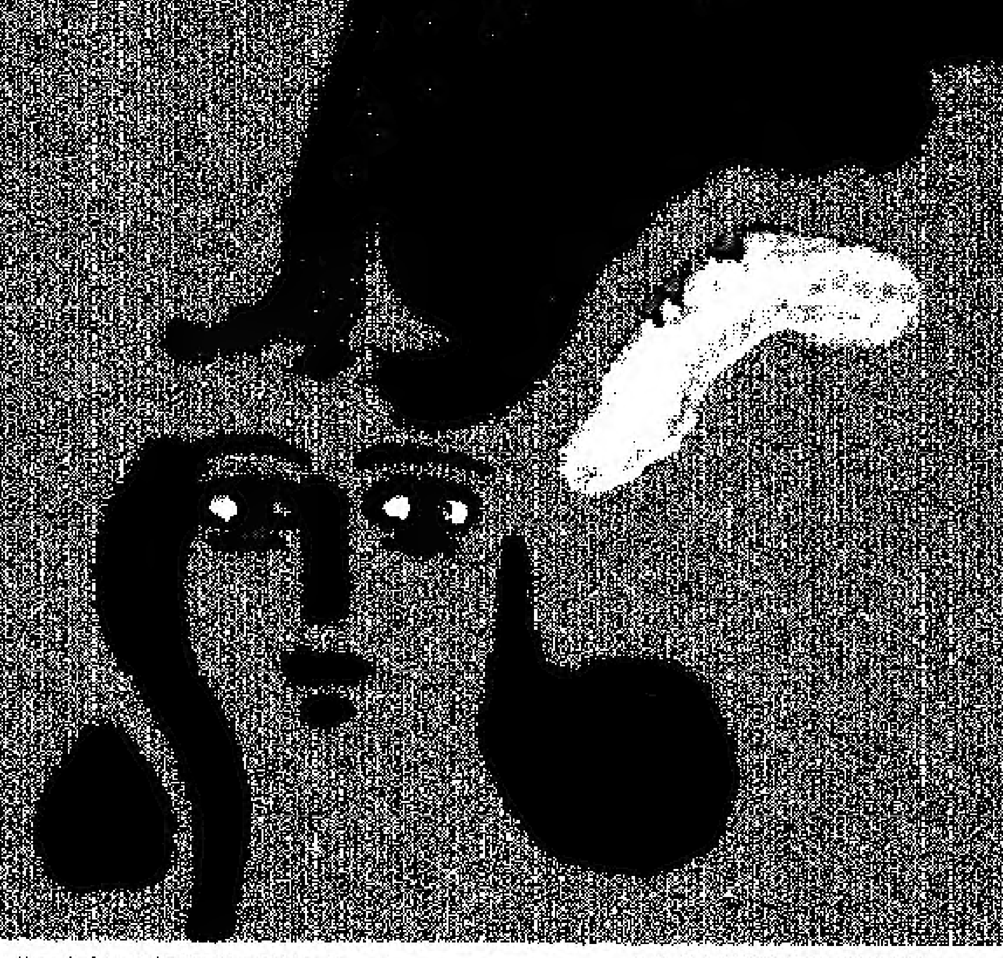
دار الشروق

آفاق فى الإبداع الفنى

رؤية نفسية

د. أحمد عكاشة



آفاق فى الإبداع الفنى

رؤيـــة نفسّـــية

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

د. أحمـد عكاشـه

آفاق فى الإبداع الفنى

رؤيــة نفسّــية

دار الشروق

التشريح النفسى ... للشخصية المصرية

لا نستطيع أن نعمم على أى شعب سمات خاصة فى شخصيته، لأن كل السمات توجد فى أفراد الشعب بطرق متباينة، و لكننا نستطيع أن نصف السمات الغالبة على شعب معين. وقد كثرت الأبحاث والكتب التى صدرت عن الشخصية المصرية والشخصية العربية، وكذلك كثرت الأبحاث التى تعزز التقارب فى السمات فى المناطق الجغرافية. فسكان البحر المتوسط يتشابهون فى كثير من السمات، وسكان الشمال البارد يتماثلون فى بعض السمات، إلخ. وسأحاول أن أسرد فى هذا المقال وما بعده بعض السمات، بغض النظر عن سلبيتها أو إيجابيتها.

نردد دائما كلمة الشخصية دون أن نعرف، فى أغلب الأحيان، معناها المحدد. فالشخصية هى الصورة المنظمة المتكاملة لسلوك الفرد التى تميزه عن غيره، أى أنها عاداته وأفكاره واهتماماته وأسلوبه فى الحياة. وعندما نحاول وصف أى شخصية فإننا نفسرها على أساس السمات التى تتجلى على صاحبها مثل: البشاشة، التجهم، السخاء، البخل، الصدق، حب السيطرة، الرياء، الاتزان العاطفي،

الانطوائية إلخ . ولكننا لا نستطيع أن نلصق بشخص ما سمة من هذه السمات إلا إذا كانت هذه السمة تميز سلوكه معظم الوقت . وليست الشخصية مجرد مجموعة من هذه السمات ، بل إنها فى الحقيقة حصيلة تفاعل هذه السمات بعضها مع بعض .

وعندما نقول إن الشخصية ناضجة فإننا نعنى بذلك وجود تناسق فى السمات مع تحمل المسئولية ، وتقبل التضحيات المختلفة دون مقابل . و ليس من الضرورى أن يصل الشخص البالغ إلى مستوى الشخصية المتكاملة لمجرد اكتمال نضجه الجسماني . فقد نجد أحيانا فتاة عمرها ثمانية عشر عاما وتتمتع بنضج فى شخصيتها ، كما نلاحظ رجلا فى الخمسين يعانى من عدم النضج .

هل للوراثة دخل فى تحديد سمات الشخصية؟ أو بعبارة أخرى ، هل يرث الأولاد عن آبائهم ملامح شخصياتهم؟ إن عامل الوراثة ضعيف فى تحديد سمات الشخصية المتصلة بمعاملات الأشخاص الاجتماعية ، كمواقف الصداقة أو العداء بالنسبة للآخرين . وكذلك الأمر فى المستويات الأخلاقية والاتجاهات التقدمية أو الرجعية أو التطرفية ، والتذوق الجمالى ، ولو أن البعض يجزم بدور الاستعداد الوراثى ، أى يولد الطفل باستعداد خاص بغض النظر عن الوالدين ، حتى فى هذه الأبعاد . لكن العامل الوراثى يؤدى دورا مهما فى أبعاد الانطوائية والانبساطية ، وكذلك يغذى الثبات أو عدم الاتزان الانفعالي ، وكذلك السلوك المنحرف الشاذ .

يقتنع الباحثون بوجود ثلاثة أبعاد للشخصية :

١ ـ الصورة الذاتية ، وهي ما يعتقده الفرد عن نفسه ، خاصة عندما يخلو لذاته وينقب في دخائله .

٢ ـ الصورة الاجتماعية ، وهي تحدد إدراك المجتمع والناس لهذه الشخصية وكيف ينظرون إلى صاحبها ويقيمون صفاته . ويحتمل أن تكون مختلفة تماما عن الصورة الذاتية ، و هي تشمل ما لا يقل عن ٧٠ـ٨٠٪ من حياتنا .

٣ ـ الصورة المثالية ، وهي ما يصبو إليه الفرد لتحقيقه من تطلعات وآمال ، وهي الصورة التي يكافح للوصول إليها .

إن التوافق بين هذه الصور الثلاث هو أحد أبعاد الصحة النفسية .

ويعتمد نجاح الفرد في الحياة على تفاعل عاملي الذكاء وسمات الشخصية ، ولكن أضيف أخيرا عامل مهم هو المعدل الانفعالي ، بمعنى مدى التواصل والدفء في التعامل مع الآخرين . فالذكاء وحده قد يرقى بالفرد لأخذ الشهادات والحصول على الدرجات ، لكن النجاح في الحياة يعتمد على المعدل الانفعالي والتواصل الاجتماعي الدفيء . بل إن جزءا كبيرا من الجاذبية الجماهيرية تعتمد على هذا المعدل أكثر من الذكاء أو الشخصية . ويقال أيضا إن أحد أسباب الطلاق هو انعدام المعدل الانفعالي لدى أحد الطرفين . ويذكر مثلا أن كنيدي وريجان رئيسي أمريكا السابقين ، بالرغم من متوسط ذكائهما ، فإن قوة المعدل الانفعالي جعلهما من ذوي الجاذبية والكاريزما القوية .

أما كارتر الذى يتميز بذكاء مفرط ومعدل انفعالى منخفض ، فقد كان قليل الحظ فى الجاذبية الجماهيرية .

تتميز الشخصية المصرية بالانبساطية ، وحب الاختلاط ، والدفء العاطفي ، وسهولة الإيحاء (فيما يسمى بطيبة القلب) مع الإحساس بالمسئولية الأسرية ، والانتماء والتماسك مع الدين و الأسرة أكثر من الوطن . ومع ذلك توجد بعض السمات التى تحتاج إلى إيضاح وتفسير وتعديل ، حتى نستطيع أن نواكب ثورات العالم التكنولوجية ، وسأحاول أن أفرد لكل منها مناقشة بسيطة سهلة . فالكثيرون من المصريين يتميزون بما يسمى بالشخصية السلبية/ العدوانية والاعتمادية . وينعكس ذلك على سبيل المثال فى النكتة السياسية ، وهى سمة عدوانية ولكنها سلبية . كذلك الاستكانة ثم التقوقع حول الذات والأسرة بغض النظر عن المبادئ ، وعدم التواصل والمثابرة والتغير المستمر والعجز عن الابتكار ، والتصور الخاطئ للدين ، وإهمال الواقع المادى والانغماس فى القرارات الانفعالية والعاطفية ، و أخيرا فوضى اللغة .

وسوف أفرد المقالات القادمة لكل واحدة من هذه السمات لشرحها ووصف تجلياتها فى الشخصية المصرية .

الشخصية الاعتمادية، السلبية، العدوانية، والاستهوائية

يتميز قطاع كبير من المصريين و العرب بسمات الشخصية الاعتمادية ، و السلبية العدوانية ، و الاستهوائية .

تتميز الشخصية الاعتمادية باعتماد شامل على الآخرين أو السماح لهم بتولى مسئولية جوانب مهمة فى حياة الشخص، وتسخير الاحتياجات الذاتية للآخرين الذين يعتمد عليهم الشخص، وإذعان غير مسوَّغ لرغباتهم، وعدم الاستعداد لمطالبة هؤلاء الآخرين (الذين يعتمد عليهم الشخص) بأى مطالب حتى ولو منطقية، و الإحساس بعدم الراحة فى الوحدة والإحساس بالكارثة والضياع عند انتهاء علاقة حميمة، و الميل إلى التعامل مع المحن بإلقاء المسئولية على الآخر. ونلاحظ كذلك فى سلوك كثير من المصريين كثرة النقد و السخرية من سلوكيات يقوم بها هذا الشخص و يسقطها على الآخرين، فهو ينقد التسيب، و عدم الانضباط، و «أنه مفيش فايدة»، ولكنه يقوم بالسلوك نفسه، كذلك تسقط هذه الشخصية كل الكوارث على السلطة دون أن يقوم هو بأى عمل إيجابى.

وقد يبدأ الزوج السلبى مثلا فى الاعتماد والاتكال على زوجته فى كل القرارات المهمة، و قد يخفى مثل هؤلاء الأشخاص عدوانهم الصريح وينسحبون من أى موقف يمكن أن يثير العداء، وهم سلبيون خائفون فى العادة. على أن العداء المتخفى وراء قشرة صلبة من التهيب والسلبية هو بالضرورة لاشعورى تماما. ولو بدت العدوانية بشكل واضح فإن التسمية يمكن أن تصبح (الشخصية السلبية العدوانية). وخير مثال لذلك النكت السياسية والاقتصادية التى تعبر عن عدوانية شديدة للسلطة ولكن بطريقة سلبية. فالشخصية المصرية

تقوم نادرا إلا فى أوقات المحن باحتجاجات إيجابية أو مظاهرات سلمية تطالب بتغيير أوضاع معينة كما يحدث فى البلاد الأخرى، بل إنها تفضل الاستسلام للأمر الواقع وكأنه قدر الله وتطلب الستر.

تتميز الشخصية الاستهوائية في أقصى صورها بتفخيم في الذات وأداء مسرحي، و تعبير مبالغ فيه عن المشاعر، و قابلية للإيحاء والتأثر السهل بالآخرين، ومشاعر سطحية وهشة، وانغماس فى الذات، وعدم وضع الآخرين موضع الاعتبار، واشتياق دائم للتقدير، والنهم للإثارة والنشاطات التى يكون هو أو هى فيها مركزا للانتباه، وسلوك ابتزازى دائم للوصول إلى المنافع الذاتية.

وتنتشر هذه الشخصية بين الشعب ، و من الصعب تحديد شيوعها فى مصر، إلا أنه من خلال المتابعة يمكن تقدير نسبة وجودها إلى حوالى ١٠٪ من الأفراد. و هذه الشخصية أكثر شيوعا بين النساء منها بين الرجال، ويحتمل ارتفاع هذه النسبة بينهن إلى حوالى ٣٠٪ فى مصر والبلاد العربية. وذلك لوسائل التربية لدينا.

فالشخصية الاستهوائية ليست مرضا ولكنها تقلب فى العاطفة، وتغير سريع فى الوجدان لأتفه الأسباب، مع سطحية الانفعال فى كل الأحوال.

كذلك نجد أن الشخصية المصرية سريعة التأثر بالأحداث اليومية، و الأخبار المثيرة وبما قيل وما يقال، بل إن أصحاب هذه الشخصية

يضعون في حسبانهم كل هذه العوامل عند تقديرهم للموقف . وهكذا تتأثر قراراتهم بالناحية المزاجية الانفعالية أكثر من تأثرها بالناحية الموضوعية ، مما يجعل تأثير المنطق هامشيا .

ومن صفات الشخصية الاستهوائية أنها معجبة بذاتها ، مع رغبة فى الظهور و استجلاب الاهتمام والمحاولة الدائمة لاسترعاء الانتباه ، وحب الاستعراض والمبالغة فى الكلام و الملبس والتبهرج ، مع العمل على لفت الأنظار إليها عن طريق القيام بالمواقف المسرحية ، مع تأويل الكثير من الظواهر العادية بطريقة جنسية أى تجنيس ما هو غير جنسى .

وعلى الرغم من أن معظم الرجال ينجذبون لهذه الشخصية نظرا لحيويتها وانفعاليتها القوية ، و جاذبيتها الجنسية أحيانا ، فإن الكثيرات من هذا النوع من النساء يعانين من البرود الجنسى . وهكذا قد نصاب بالدهشة عندما نعلم أن ملكات الإغراء أو الجنس فى العالم يعانين من هذا البرود ، كما ورد فى كتابات ارثر ميللر عن زوجته مارلين مونرو .

ونستطيع أن نحدد ملامح هذه الشخصية فى تعدد علاقاتها العاطفية ، بل تعدد زيجاتها فى بعض الأحيان . وهكذا تصبح الدنيا بالنسبة لها ، جنة تستحق الحياة ، أو نارا لاخلاص منها .

وهذه الشخصية تناسبها المهن التى تتطلب العلاقات عبر الشخصية

و الظهور المستمر ، والمهن التي لها علاقة مباشرة مع الجماهير ، مثل مهن التمثيل ، و المسرح ، والصحافة ، والتلفزيون ، والعلاقات العامة .

التمركز حول الذات، وعدم المثابرة، وسلوك رد الفعل

الصحة النفسية هي القدرة على التمركز حول الآخرين والاهتمام بهم وبالمشكلات العامة . وعلى العكس من ذلك ، يكمن الاضطراب النفسي في التمركز حول الذات والتقوقع حول النفس والأسرة بغض النظر عن المبادئ أو القيم أو العادات .

كذلك هناك علاقة واضحة بين الازدحام والصحة النفسية . فلكي يتمتع الإنسان بالقدرة على الإبداع والابتكار يجب أن يعيش في مساحة جغرافية مقبولة . لكننا إذا نظرنا إلى القاهرة اليوم فسوف نجدها من أكثر مدن العالم ازدحاما حيث تبلغ كثافة السكان حوالى ٥٣٠٠٠ نسمة في الكيلو متر المربع ، وهذا يعني أن الإنسان في القاهرة لا يستطيع الاهتمام إلا بشئونه الخاصة ، ولا يأمل في أكثر من الأمان لأسرته بغض النظر عن الوطن أو الهدف العام ، ومن ثم يفقد الانتماء الوطني والهادف . فالجملة المشهورة «هو أنا سأصلح البلد وحدي؟» أو «كلهم بيعملوا كده ، هاعمل زيهم» هو الشعار السائد .

الكثير من الشخصيات المصرية تتصف بالاتكالية السلبية المتمركزة

حول الذات. ولننظر مثلا إلى تنشئة الطفل، فهو يرى والديه يهتمان بالدروس الخصوصية لاجتياز الامتحانات، وتمكين ابنهما من النجاح بغض النظر عما تعلمه أو اكتسبه من معرفة، فينشأ الطفل وهو يدرك أن العمل الجاد لن يوصله إلى هدفه، وإنما الاتصالات الشخصية هى وحدها الطريق إلى النجاح. ثم يجد أن الناظر يرفع من نتيجة الامتحان لتجميل صورة المدرسة أمام المفتش، وكذلك المنطقة لإرضاء الوزير. ثم ينظر الطفل والمراهق والناضج فيجد أنه حتى الوزير فى مسئوليته الكبيرة لا يقدم على خطوة إلا بعد التأكد من أنها من توجيهات الحاكم أو حرم الحاكم. إن كل ذلك يكسب الشخصية المصرية نوعا من الاتكالية وعدم المسئولية ويجعلها تسقط جميع الأمور على الحاكم، وهو ظلم جائر للحاكم، ولها تأثير بالغ السوء على جموع الشعب.

كذلك ينشأ الطفل فى متاهة أن العمل الجاد والإخلاص والصدق والأمانة ليست هى الأسس فى بناء الحياة، وإنما الالتفاف والرياء والمعيار المزدوج فى تقييم الأخلاقيات. فهو ينادى بشىء فى الظاهر ويعمل عكسه فى الباطن. إن الشخصية المصرية فى حالة دائمة من غسيل المخ بواسطة بعض أجهزة الإعلام بحيث تكتسب سمات تجعلها تتقوقع وتبتعد عن المساهمة الفعالة فى تنمية البلاد «دى بلدهم يعملوا اللى عاوزينه»، أو تتمركز حول الذات وتؤمن لنفسها السلطة والمال والقدرة بغض النظر عن المبادئ.

إن تواكب السمات الاتكالية مع التمركز حول الذات يؤدى دائما إلى العمل بناء على إستراتيجية قصيرة المدى. فالموظف والقائد والوزير لا يفكر أحدهم إلا فيما يجب إنجازه فى أثناء فترة عمله هو ولا يخطط للمراحل طويلة المدى أو المستقبل، ومن ثم يسعى كل من يأتى إلى أن يبدأ من جديد وأن يلغى إنجازات السابقين عليه. وسوف أسرد هنا مثلا كنت طرفا فيه: فقد أصدر المجلس القومى لمكافحة الإدمان برئاسة الأستاذ الدكتور مصطفى سويف والذى كنت أشرف بعضوية مجلس مستشاريه العلميين، أصدر - بعد اجتماعات ومناقشات ودراسات لنتائج أبحاث وبرامج الإدمان - كتابا عن الإستراتيجية طويلة المدى لمكافحة الإدمان فى مصر تتضمن توجيهات لكل وزارة بناء على دراسة حجم المشكلة فى مصر وفى ضوء الإمكانات المتاحة. وبعد خمس سنوات ومع تغير القيادات نجد أن الجهات تهتم مرة أخرى بالبدء فى عمل دراسات جديدة والانتهاء منها قبل أن تتم محاولة تطبيق نتائج الدراسات السابقة. لو أننا نتحلى بالمثابرة والاستمرار وتواصل الجهد لكانت أسس مكافحة الإدمان فى حالة من النشاط المستمر فى مصر.

هذا ما يجب تغييره فى سمات الشخصية المصرية: احترام العمل الناجح، واتخاذ القدوة ممن سبقونا، والتحلى بالمثابرة ومواصلة الجهد حتى يواكب شعبنا التغيرات العالمية، ذلك الشعب الذى يتميز بسمات كثيرة فريدة وثمينة.

التصور الخاطئ للدين

يقول جيمس برستد فى كتابه الشهير «فجر الضمير» : إن المصريين هم الذين أوجدوا الضمير الإنسانى لأنهم أول من عرفوا الله وكذلك آمنوا بالعالم الآخر ولم يتمكن أحد قبلهم من إدراك هذا الواقع . ويبدو أن الإيمان بالله واليوم الآخر يتوارث من خلال جينات الوراثة فى المصريين . فقد آمن المصريون بالله قبل الأديان السماوية ، ثم آمن المصريون باليهودية ثم المسيحية ثم الإسلام . إذن لا مفر من الاعتراف بأن الشعب المصرى من أكثر شعوب العالم إيمانا بالله ، ولكن للأسف فإن غالبية المصريين لهم تصور خاطئ عن الدين .

فالدين معاملة ونية وإحساس داخلى عميق بالإيمان ، وليس مجرد القيام بالطقوس بغض النظر عن محتواها والمقصود منها . فنحن نعلم أطفالنا الخوف والعذاب وجهنم وننسى الحب والطمأنينة والسلام والجنة . عندما يكذب الطفل نقول له : مصيرك النار . وعندما يقول الصدق لا نحاول تعزيزه بالثواب . فينشأ الطفل على الخوف من العذاب والنار بدلا من الحب والجنة ، ويستمر ذلك فى المراهقة والنضوج حيث يبدأ خطباء الجمعة فى سرد عذاب جهنم وعذاب القبر أكثر من الحديث عن جمال وطمأنينة الخلود بالجنة . فالإيمان الذى ينبع من الخوف هو إيمان مختلف عن ذاك الذى ينبع من الرغبة فى الحب وعمل الخير .

إن المعايير المزدوجة المتمثلة فى اهتمام الناس بالحج عشرات المرات

وأداء العمرة كل سنة تتناقض مع السلوك اليومى الذى يتواكب مع الكذب والرياء والمعاملة السيئة والجشع والطمع. صحيح أن التعميم هنا غير دقيق، لكن المؤكد أن الاعتدال فى الطقوس والالتزام بالمحتوى هو صلب الإيمان.

إن إهمال العمل للقيام بطقوس مبالغ فيها هو أمر ضد الدين، ومع ذلك فإننا كثيرا ما نشاهد تلك الظاهرة منعكسة فى كثير من سمات الشخصية المصرية. كذلك نرصد توازيا مقلقا بين الخرافات والدين. فالكثيرون يعتقدون فى أعمال الجن والعمل والأحجبة والزار والذكر، وهى كلها أمور بعيدة عن مفهوم الدين الصحيح. وقد أفتى علماء الدين بأن كلمة الجن معناها أحد مخلوقات الله الخفية التى لا تلبس أحدا ولا تكلمه ولا تتعلق به. وإنما كلمة «الجن» تعنى الشيء المستتر أو المختفى، فالجنين حوله ستار من الرحم، والجنة حولها ستار بعد إدراك الإنسان لها، والمجنون لديه ستار حول عقله، ومن ثم فإن الجن شيء مستتر وغير مرئى أومعروف. ومع ذلك نجد الكثير من المرضى، وبخاصة المرضى النفسيون، يلجئون للعلاج التقليدى الشعبى والذى عادة ما يصبغ بطابع دينى عن مفهوم خاطئ.

إن الشفاعة من خلال الأضرحة والمقابر لاعلاقة لها بالدين، فالخرافات تنشأ مع التخلف الفكرى فى فهم الدين. وللأسف فإن أجهزة الإعلام والدعاة لا يهتمون بإزالة هذا المفهوم، بل أحيانا ما يعززونه ويدعمونه.

وأخيرا هناك محاولة البعض البقاء على الأفكار السلفية والتى بنيت على الاجتهاد وليست فروضا، ونحن نرى كل يوم الفتاوى تتواكب مع تغيير العلوم، فنجد الفتاوى فى ختان الإناث ونقل الأعضاء وتأجير الرحم إلخ. وللإبقاء على حيوية الدين، يجب أن يتواكب مع متغيرات العصر، والاجتهاد الدينى فى تفسير المتغيرات هو التحدى الحقيقى لأى دين، ولا أقصد هنا تغيير الفروض المذكورة فى الكتب الدينية ولكن كيفية تفسيرها بشكل يدعم نمو الإنسان وسعيه للخير والمحبة اللذين هما أساس كل الأديان.

إن أحد الأسباب الرئيسية فى العجز عن الابتكار والسلبية الاتكالية وعدم القدرة على التحديث والحياة فى إطار سلفى هو الفهم الخاطئ للدين. إن الكثيرين لا يعرفون الفرق بين التواكل والتوكل على الله مما يجعل الكثير من الشخصيات عاجزة عن التقدم والإبداع. إن عصر التنوير والنهضة فى الإسلام هو العصر الذى قام به علماء الدين باجتهادات ذاتية أدت إلى ازدهار الإسلام. إننا ما زلنا للأسف نعيش أسرى البدع والخرافات والأفكار السلفية والفهم الخاطئ للدين. دعنا لا نستسلم للإرهاب والابتزاز من بعض الذين يحاولون تغيير المجتمع حسب أفكارهم المغلقة ولنستند إلى ما فى الدين من إلهام ومحبة وما أنجزه من تقدم ونهضة عبر العصور وأن يكون ذلك هو دليلنا فى فهمه وتطبيقه..

إهمال الواقع المادى والانغماس فى القرارات الانفعالية

سبق أن كتبت عن الشخصية الاعتمادية السلبية، وكذلك عن الشخصية القابلة للإيحاء أو ما نسميها بالعامية «شخصية ودنية»، وهى سمات تغلب على كثيرين من المصريين والعرب، وعادة ما تكون قرارات هذه الشخصية حماسية، انفعالية، سريعة لأنها فى الغالب تكون رد فعل غير محسوب، لكنها سرعان ما تخمد وتهدأ الحماسة. إن ذلك له علاقة وثيقة بأننا كثيرا ما نغفل الواقع المادى والمنطق في كثير من قراراتنا الإستراتيجية طويلة المدى، ولا نتخذ قرارات مصيرية مدروسة، بل دائما تكون قراراتنا رد فعل لما يحدث: فعندما يرتفع منسوب المياه نبدأ فى التفكير فى عمل بالوعات، وعندما تندلع الحرائق نبدأ فى إنشاء شبكات الإطفاء، وعندما تقع الزلازل نبدأ فى التفكير بالبناء بطريقة خاصة، وعندما يأخذ د. زويل جائزة نوبل ننشئ جامعة للتكنولوجيا. إن ذلك الأسلوب فى التعامل مع الواقع هو أسلوب متخلف يستجيب للحاجة الملحة لكنه لا يؤتى نتائج طويلة المدى تتميز بالاستقرار والنضوج والثبات.

وينطبق هذا الأمر على الكثير من المشروعات حيث إن صانعى القرار من الشخصيات التى تتحمس وتنفعل وتثير كبرياء الوطن، دون أن تمر هذه المشروعات بالعمليات التحليلية المنطقية اللازمة. بل إنهم أحيانا يتهمون من يخالف آراءهم بالخيانة، والانفعال الزائد أو السرعة فى اتخاذ القرار مما يجعلهم يبدءون مشروعاتهم دون دراسة

مدققة لينتهى المشروع بالخسارة والفشل وخيبة الأمل، وكم من المليارات أهدرت بسبب سمات هذه الشخصية.

إن إهمال الواقع المادى المنطقى والانغماس فى القرارات الانفعالية الحماسية لهو دليل على عدم النضوج العاطفى والشخصية الاتكالية. ولاتقتصر هذه السمة على فئة دون أخرى، فهى السائدة من الأمير إلى الغفير ومن الجاهل إلى المتعلم ومن الفقير إلى الغني، بحيث تصبح الأمة كلها فيما تتخذه من قرارات وما تقيمه من مشروعات قابلة للتأرجح حسب المزاج والانفعال وليس بناء على خطة مدروسة، طويلة المدى.

هذا وتؤدى الفردية وانتفاخ الذات دورا كبيرا فى تدعيم هذه السمات، حيث يتلاعب صانع القرار السياسى بحماسة الآخرين وانفعالاتهم المتأججة مما يسبب ويلات كثيرة يدفع ثمنها معظم أفراد الشعب.

إن تأليه الحاكم هو سمة من سمات المصريين منذ الفراعنة، الأمر الذى يعيق الإيجابية والمبادرة فى اتخاذ القرار. ولننظر إلى ما حدث أخيرا حيث أصدرت محكمة النقض حكما ببطلان انتخاب أعضاء مجالس الشعب والشورى، ومع ذلك لم تنفذ الأحكام بما يعنيه ذلك من استهتار بأهم مبادئ حقوق الإنسان وسيادة القانون. ثم يأمر الرئيس بتنفيذ أحكام النقض، فيهرع الجميع لاتخاذ اللازم. ماذا يعنى ذلك؟ الاتكالية السلبية.. الخنوع.. عدم المبادرة.. عدم

المسئولية . . الاعتمادية على صاحب القرار ، مما يهدر الكثير من القرارات الحكيمة التى تصدر عن أبناء هذا الشعب .

الشخصية المصرية، وفوضى اللغة

تُعَدُّ اللغة أحد الأسس التى تبلور الشخصية الوطنية . إن فوضى اللغة التى نعيشها فى مصر الآن ، جعلت الشخصية المصرية تتأثر تأثيرا سلبيا فى التعبير عن الفكر ، فاللغة لها تأثيرها على سمات الشخصية ، ويتضح ذلك فى مشاهد اللغة فى الفيلم الأمريكى والتى تختلف تماما عن اللغة فى الفيلم البريطانى ، عنها فى الفيلم الفرنسى أو اليابانى . و إذا نظرنا إلى اللغة فى أفلامنا العربية واستبعدنا عامل اللهجات المختلفة تبين لنا تفرد اللغة التى تستعملها الشخصية المصرية بألفاظ وجمل تحتاج إلى دراسة نفسية عميقة ، و يحتمل بدء هذه اللغة الفريدة مع مسرحية مدرسة المشاغبين وتأثيرها على الأجيال المختلفة . فكثير من الشخصيات المصرية تستعمل لغة يتضح منها الاستهتار ، والتسيب الاجتماعى ، والانفلات النفسى ، وعدم تحمل المسؤلية والسخرية من القدوة والرمز والقيم .

تعتمد المنظومة الفكرية والقدرة على الابتكار والتحديث وحاسة الإبداع والخلق ، بل والتذوق الجمالى والثقافى على تواصل وتوحد اللغة . إن ثبات وصدق اللغة هما بعض من الأسس المهمة للثقافة الحية والتقدم العلمي . فلا يمكن أن يكون للمنزل لغة وللشارع لغة

أخرى وللأغانى لغة ثالثة ثم للجرائد لغة رابعة ، وللقرآن لغة خامسة . فهذه الفوضى تسبب تشتتا فى الفكر ، وضحالة في الثقافة ، وانهيارا فى التذوق الأدبى والجمالي .

وإذا لاحظنا ما حدث فى مصر فى العشرين سنة الأخيرة من الفوضى في لغتنا العربية لوجدنا أن الطبقات الميسرة تزج بأبنائها فى المدارس الأمريكية والفرنسية والبريطانية والألمانية ، فيتكلمون هذه اللغات أفضل من العربية ، ويصبح الطفل فى تشتت فكرى يجعله ينجح فى الامتحانات لكنه غير قادر على الابتكار . وحتى فى المدارس المصرية نجد أن مستوى تدريس اللغة العربية تدنى بشكل ملحوظ ، حتى إن خريج الثانوية العامة غير قادر على استخدام لغة عربية صحيحة . بل إن صانعى القرار أنفسهم والمسئولين وأعضاء أجهزة الإعلام أصبحوا يتكلمون لغة ليست بالعربية أو حتى العامية ، ولكنها خليط من عدة لغات دخيلة أحدها على الأخرى .

وإذا نظرنا إلى الأفلام والأغانى التى يعشقها الكثيرون ، فسوف نجد بها إسفافا شديدا فى اللغة ، ونحن نعلم أن الشباب والشابات عادة ما يتوحدون مع أبطال الإعلام من سينما وتليفزيون أو نجوم الأدب أو الفن ، فما المثال الذى يجدونه للتوحد معه؟

ولا نجد فى الجامعات استثناء من ذلك . وسأعطى مثلا بدراسة الطب والتى تتم حتى الآن باللغة الإنجليزية . ينص ميثاق ممارسة مهنة الطب على ضرورة أن يفهم المريض اللغة التى يتكلم بها

الطبيب ، فالطبيب والمريض الألماني يتكلمان الألمانية والطبيب والمريض السويدي يتكلمان السويدية والطبيب والمريض الإسباني يتكلمان الإسبانية . ولكننا في مصر والبلدان العربية المستعمرة سابقا نجد أن المريض يتكلم لغة والطبيب يتكلم لغة أخرى لا يفهمها المريض ، وهو الأمر الذي يمكن عَدُّه أمرا لا أخلاقيا حيث إنه يتجاوز حق المريض في الفهم الدقيق لحالته وما يقرر بشأن صحته . أضف إلى ذلك أن اللغة الإنجليزية التي يستخدمها الطبيب عادة ما تكون لغة ركيكة علميا ومن ثم فإنه يصبح فاقدا لكل من اللغة العربية والإنجليزية .

عادة ما يكون الإبداع والفكر باللغة الأم ، ولذا نجد أن الإبداع بين العلماء في مصر محدود إلا إذا تواجدوا في بيئة تتوحد فيها اللغة ، عندها يبرز النبوغ والعبقرية المصرية . جدير بالذكر أنه مع بدايات تدريس علم الطب في مصر في القرن التاسع عشر أصر الفرنسيون على أن يكون التعليم الطبي باللغة العربية واستمر الحال كذلك حتى جاء الاستعمار البريطاني واستغنى عن الأساتذة المصريين واستبدل بهم الأساتذة الإنجليز ، واستمر التدريس باللغة الإنجليزية من وقتها وحتى اليوم .

إنني أسمع من الأقارب والأصدقاء والزملاء عن ظاهرة مغني اسمه شعبان عبد الرحيم يقال إنه يستخدم لغة خاصة . ولم يتح لي الوقت حتى الآن كي أستمع إليه ، لكن ترديد الشعب لهذه الكلمات

هو دليل آخر على فوضى اللغة وتفضيل التسلية والطرب والسطحية على الصمت والأصالة والجدية .

لقد أثرت فوضى اللغة فى قدرتنا على التذوق الجمالي ، وأصبحنا لا نميز الشيء القبيح من الجميل ، بل وأصبح التذوق الجمالى مقصورا على فئة خاصة حتى لا تشترك فيها فئات الشعب المختلفة . إن دور الإعلام فى هذا المجال هو الارتفاع بالتذوق الجمالى والثقافى للشعب ، والتركيز على نوعية المادة المقدمة وليس على كميتها . فمن الأفضل لهذا الشعب أن يستمر الإرسال التليفزيونى لعدة ساعات مكثفة تتميز بالمستوى العالى فى الأداء والمضمون على أن يستمر البث طوال الليل والنهار بغض النظر عن المضمون ، إضافة إلى ما يترتب على ذلك من تقليل ساعات النوم وضعف الأداء فى مجال العمل .

إن نهضة الأمة المصرية والعربية تعتمد إلى حد كبير على الاهتمام بقدرتنا على التواصل بلغة موحدة ومحاربة فوضى اللغة وتمكين كل فئات الشعب من التذوق الثقافى والجمالى وتجنب انغماسهم فى طرب وتسلية لا طائل من ورائها سوى نسيان معاناتهم اليومية بدلا من العمل على مواجهتها .

الشخصية المستهينة بالمجتمع

شرفت برئاسة لجنة القيم و الأخلاقيات بالجمعية العالمية للطب النفسى ، وإصدار ميثاق الشرف للطب النفسى على مستوى العالم فى

ميثاق مدريد عام ١٩٩٦ ، و أحد مبادئه أنه لا يجوز لأى طبيب نفسى أن يحلل أى شخصية أو مرض فى أجهزة الإعلام إن لم يكن قد قام بالفحص الإكلينيكى النفسى . ولذا لن أتطرق لوصف حالة خاصة أو إلقاء تشخيص غيابى ، لأن ذلك ضد أخلاقيات المهنة ، ولكنى سأسرد بعض السمات لشخصية تنتشر بين بعض الفئات فى أى مجتمع ، وتأتى تحت اضطرابات الشخصية ، حيث يوجد ما يسمى بالشخصية المستهينة بالمجتمع ، وأحيانا تسمى بالشخصية المعادية للمجتمع ، أو السيكوباتية ، أو المعتلة اجتماعيا ، بل يصل البعض لتسميتها بالشخصية الإجرامية ، و هو اضطراب في الشخصية يجذب الانتباه عادة نتيجة للهوة الكبيرة التى يخلقها سلوك صاحب هذه الشخصية وبين الأعراف الاجتماعية السائدة ، ويتميز بالآتي :

(أ) عدم اهتمام و استهتار بمشاعر الآخرين .

(ب) موقف واضح مستديم من عدم المسئولية و تجاهل التقاليد الدينية و الأعراف الاجتماعية .

(ج) عدم القدرة على الاحتفاظ بعلاقات ثابتة وطيدة مستمرة مع التغير العاطفى ، بالرغم من سهولة تأسيس هذه العلاقات .

(د) عدم القدرة على تحمل الإحباط و السهولة الشديدة فى تفريغ العدوان ، بما فيه الثورات الانفعالية و العنف .

(هـ) فقد القدرة على معاناة الشعور بالذنب ، أى يقترف أى جريمة

ولا يوجد أى إحساس بالندم أو الذنب ، لا يتعلم من التجربة ، ويستمر فى الخطإ نفسه حتى بعد العقاب و السجن .

(و) القدرة المستمرة لتقديم تسويغات مقبولة ظاهريا للسلوك الذى يضع الشخص فى صراع مع المجتمع .

وتنتشر هذه الشخصية بين نزلاء السجون والعاطلين والمجرمين ، نظرا لأنها تتميز بالاندفاع إلى العدوان ، وعجز صاحبها عن مقاومة أى إغراء مادى كالرشوة مثلا ، أو إقامة علاقة جنسية محرمة ، أو انحراف على تقاليد المجتمع . وقد تنجح هذه الشخصية أحيانا فى القيام بأدوار قيادية نظرا لأنانيتها المفرطة ، وطموحها المحطم لكل القيم ، وغض الطرف عن أى قيم أو عقبات أو تقاليد أو صداقات فى سبيل الوصول إلى القوة أو إلى ما يريد .

وهو فى سبيل ذلك لا يحترم أى عاطفة ، وقد يصبح متبلد الشعور بالرغم من ظهوره بمظهر الورع ، المتدين ، العطوف ، صاحب أعمال الخير ، ولكن وراء ذلك عملية تمثيلية للوصول إلى هدفه . و أحيانا قد تكون هذه الشخصية من الذكاء ، و الرشاقة ، بحيث يوقع الكثير من النساء فى حبائله ، و بعد أن يتزوج يأخذ كل أموال زوجته ومصوغاتها و يهجرها مع أولادها ، ولا يبالى بأى ندم ، ويتزوج بأخرى . . . وهكذا . ولا مانع من العودة للزوجة الأولى و تقبيل أقدامها وسؤالها المغفرة وأنه تاب تماما ، و أنه لن يعود ثانية إلى ما فعل ، ولكنه سرعان ما يعود لطبيعته المستهينة بكل التقاليد .

ونجد فى تاريخ هذه الشخصية بعض السمات التى تشير إلى هذا السلوك، مثل الكذب، والسرقة، والاغتصاب، والشذوذ الجنسى، والإدمان، والهروب من المدرسة أو الجامعة. وخطورة صاحب هذه الشخصية أنه يبدو عليه الصدق والأمانة والحرارة والحماسة حين يتكلم فيخدع أى فرد أمامه، ويسهل عليه أن يتصيد فريسته على الدوام.

ولا نستطيع رؤية سمات هذه الشخصية مرضا عقليا، ولذا فإنها تتحمل المسئولية كاملة. و قد أرجع الباحثون نشأة هذه الشخصية إلى عوامل مختلفة، من عوامل وراثية إلى أسباب فسيولوجية فى الجهاز العصبى خاصة أنها أحيانا ما تلى بعض الأمراض كالحمى المخية و الصرع، إلى أسباب بيئية وتربوية واجتماعية ونفسية.

ويقسم البعض هذه الشخصية إلى:

١ ـ السيكوباتى العاجز، فهو دائما فى عمل متغير، ولا يثبت فى عمل أكثر من شهور، يتخلل ذلك مشاجرات ونزاع ضد نظام العمل، وينعكس ذلك فى ارتباطاته العائلية وعدم تحمل مسئولية الزواج والأطفال، وتعدد الزيجات، مع مغامرات جنسية مستمرة دون استبصار بالمضاعفات. وينتشر أصحاب هذه الشخصية بين المدمنين، ومقترفى الجرائم البسيطة، أو الانحراف الجنسى أو شكاوى عضوية دائمة ويترددون على العيادات الطبية.

٢ ـ السيكوباتى العدوانى غير المتزن عاطفيا، وهذا أكثر ضررا على

المجتمع فيندفع نحو الجريمة و القتل، و الاعتداء على الغير، فلا يوجد أى ولاء لأى شخص أو عقيدة، ولا لمصائب الناس.

٣ـ السيكوباتى الخلاق، وهذا أكثرهم خطورة على المجتمع وعادة ما يصل إلى مناصب قيادية، وهو قادر على خداع الشعب بأكمله، حيث يظهر بصورة الملاك الطاهر الطيب الذى يحنو على الأطفال، ويقيم الصلاة، ويعمل الخير مع حب السلطة والقيادة، ولا مانع من التضحية بكل صداقة، أو مبادئ. وعادة ما يظهر للجميع عكس هذة الصفات، وأحيانا ما يصل هؤلاء إلى الحكم أو مناصب قيادية وبالطبع تكون النتيجة خرابا، وويلات وحروبا ضد هذا المجتمع الذى خدع بقائده السيكوباتى الخلاق أو الزملاء الذين خدعوا برئيسهم فى العمل الذى لا يهتم إلا بانتفاخ ذاته وتمسكه بالسلطة بغض النظر عن المبادئ أو القيم أو الصداقات أو المشاعر.

هذه نبذة عن هذه الشخصية المستهينة بالمجتمع والتى أحيانا ما تتناوب من المجرم فى السجن إلى حاكم لشعوب تأتمر بأوامره إلى مسئول سيكوباتى يبدأ بالسلطة ثم القوة ثم المال وهوالثالوث الذى يأتى كل منه بالآخر. وفى كل الحالات، فإن هدفه الثالوث الخالد: القوة.. السلطة.. المال.

ماذا يعنى الثالوث؟

إن هدف هذا السيكوباتى الخلاق هو تحقيق الثلاثة معا.. و تحقيق

أحدهما أو اثنين منها ليتحقق الثالث بالضرورة . . فالقوة تأتى بالمال . . والمال يأتي بالقوه والقوة تأتى بالسلطة . . والسلطة تعنى القوة ، وهما معا يأتيان بالمال . . أى أن هدف هذه الشخصية هو أن يتمتع وحده بأعظم ما فى الحياة وأهمها ، وهى : السلطة والقوة والمال .

ونادرا ما تكون هذه الشخصية ثانوية لأمراض نفسية مثل الهوس المزمن أو الفصام المتبقي . . . إلخ ، وكذلك ثانوية لأمراض عضوية بالمخ مثل الحمى المخية والصرع ، وارتجاج شديد بالمخ ، ولكن يمكن استبعاد ذلك بسهوله بواسطة رسم المخ التوبوجرافى فى المخ كذلك مع أشعات تصوير المخ الحديثة .

لقد ثبت تاريخيا ، ثم من خلال الخبرات المكتسبة أن معظم ، إن لم تكن كل الحروب الدموية التى قامت فى العالم ، قام بها زعماء يعانون الاضطرابات الشخصية . . وأنا هنا لا أتحدث بالطبع عن الحروب الدينية والعقائدية والسياسية وحروب التحرير ، بل أتحدث عن الحروب العدوانية التى تستهدف السيطرة والإبادة وحكم الغير . . والأمثلة على امتداد التاريخ أكثر من أن تحصى ابتداء من قيصر والإسكندر حتى ميلوسيفتش وصدام حسين . . و قد اكتشف أطباء النفس العالميين هذه الحقيقة ، فما كان منهم إلا أن أرسلوا رسالة رقيقة إلى هيئة الأمم المتحدة يعرضون فيها تشكيل لجنة علمية لفحص الزعماء والقادة ممن يشعلون الحروب التى يموت فيها الشباب من أجل

مجد وعظمة هؤلاء الحكام . . وكنا هنا نقصد الفئة التى تصل إلى السلطة فجأة أو بالصدفة أو عن طريق انقلاب عابر ، ولم نكن نقصد هؤلاء الزعماء المسيسين ممن يصلون إلى الحكم بشكل طبيعى من خلال أحزاب شرعية يتم تصعيدهم فيها إلى أن يصلوا إلى السلطة. هؤلاء لا خوف كبيرا منهم، لأنهم يصعدون بشكل ديمقراطى، ولكن المشكلة فى هذة الفئة المغامرة المحبة للسلطة التى تصل إلى الحكم وتبدأ فى ممارسة شروورها من خلالها.

بماذا ردت الأمم المتحدة على رسالتنا المتفائلة هذه ؟

قالوا لنا شكرا على جهودكم . . ولابد أنهم ضحكوا على سذاجتنا، لأن أى رئيس أو قائد لن يوافق أبدا على أن يتعرض لفحص نفسى كى نحكم نحن كأطباء على سلامة قواه العقلية .

ولكن هل هناك من ثبت علميا و تاريخيا أنهم قد حكموا وكانو مرضى عقليين بالفعل؟

نعم، وهم كثيرون أيضا . . ففى مراحل سابقة كان مرض الزهرى منتشرا جدا ولم يكن أحد ليعرف أسبابه . . وأحد مظاهر هذا المرض هو ما نسميه «العته الشللى»، وهو يصيب الإنسان بأمراض عقلية . وفى العشرينيات من هذا القرن كان «٨٠٪» من نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية يعانون الزهرى فى المخ، وهو يدمر الأعصاب وليس له علاج . . وقد عاش حكام وزعماء وقادة وفنانون وأدباء بهذا المرض،

وكانوا يحكمون ويبدعون وهم مرضى، واتخذوا أخطر القرارات وأمخاخهم مدمرة بالزهرى . . وظلوا كذلك إلى أن ماتوا.

إن من هؤلاء من يتمتع بكاريزما تجعل الآلاف يلتفون حوله كالمسحورين مع أنه ليس أكثر من مجرد أفاق. وفى التاريخ الشخصى لمثل هؤلاء، سوف تجد بعض السمات التى تشير إلى سلوكهم هذا، مثل الكذب، والسرقة، والفشل الدراسى، والهروب من المدرسة أو الجامعة. وخطورة صاحب هذه الشخصية أنه تبدو عليه علامات الصدق والأمانة والحرارة والحماسة حين يتكلم، فيخدع أى فرد أمامه ويسهل عليه أن يتصيد فريسته على الدوام. ولا نستطيع من وجهة نظر علم النفس أن نَعُدَّ صاحب هذه الشخصية مريضا عقليا، ولذا فهو يتحمل مسئولية كل أفعاله . . وقد اختلف الباحثون فى أسباب نشأة هذه الشخصية، وهل مصدرها عوامل وراثية، وأسباب فسيولوجية فى الجهاز العصبى، وخاصة أنها تأتى أحيانا بعد أمراض معينة كالحمى المخية والصرع . . كما قد يفسر سلوك هذه الشخصية بعض الأسباب البيئية والتربوية والاجتماعية والنفسية.

كيف يحكم أمثال هؤلاء القادة السيكوباتيين؟

يحكمون، لأن الله خلق الناس على مستويات من الذكاء . . ففى العالم كله، ولدى أى شعب فى الدنيا هناك «٦٠٪» من البشر من متوسطى الذكاء، وهناك «٢٠٪» من المجموع الكلى يتمتعون بمستوى ذكاء أقل من المتوسط، وأخيرا هناك «٢٠٪» هم المتميزون

وذكاؤهم فوق المتوسط . . وهذه الفئة الأخيرة ، هى التى تحكم الـ «٨٠٪» من مجموع الناس فى أى مجتمع . والغريب أن هؤلاء الـ «٨٠٪» من الشعب نجدهم فى أى مجتمع قابلين للإيحاء والاستهواء، وعادة ما يأخذون الوعود من هؤلاء الأذكياء المتفوقين بمنتهى الأمانة والبساطة ، فيصدقونهم ويمشون وراءهم، كالمنومين . وليس أدل على هذا من أن أوربا المتحضرة أهلكت «٤٠٪» مليون شخص فى حربين عالميتين ضاريتين لأسباب لا معنى لها . . ولكن من أجل النعرة والكرامة والسيطرة على الآخرين . . وهل يصدق أحد مثلا أن المواطن الألمانى المتحضر الذى يقرأ جوته ويسمع بيتهوفن يمكن أن يمشى واحدًا من قطيع وراء مجنون مثل هتلر أقنعه بأن ألمانيا فوق الجميع وأنها يجب أن تحكم العالم .

هل يؤثر مرض الزعماء على قراراتهم؟

لابد أن يؤثر . . وقد ثبت مثلا أن أنتونى إيدن ، قد اتخذ قرار الحرب ضد مصر فى العدوان الثلاثى وهو تحت تأثير عقار الأمفيتامين، وهو نوع من المنبهات العصبية ، التى كانت تشعره بضلالات وأفكار خاطئة ، وهذه وتلك تمنعانه من اتخاذ القرار السليم . . كما ثبت أن رئيس وزراء فرنسا فى الحرب نفسها ، وهو جى موليه كان واقعا تحت تأثير الكورتيزون . . وحدث أن لاحظ المسئولون السوفيتيون أن ستالين بعد أن حكم لسنوات طويلة وبقبضة من حديد قد بدأ يشك فى كل من حوله ، واقترحوا عليه أن يجلس مع

مجموعة من أكبر أطباء النفس فى الاتحاد السوفيتى ، وحدث اللقاء بالفعل وكتب الأطباء تقريرا علميا قالوا فيه إن ستالين يعانى اضطرابا ضلاليا ، أو اضطرابا برانويديا ، يدفعه إلى الشك فى كل من حوله . وتلك صفة ملازمة لكل المسئولين الذين يبقون فى أماكنهم لسنوات طويلة ، لأن الواحد ، من هؤلاء يشعر بالتمركز حول الذات ، و أنه رمز هذا البلد ، وأنه المخلص له ، ولهذا يجب التخلص تماما من أى معارضة لحكمه . . وهذا ما حدث مع أطباء ستالين ، إذ ما كاد يقرأ تقريرهم حتى أمر بإعدامهم جميعا .

هل صحيح أن الطب النفسى أصبح أحد فروع أجهزة الأمن القومى ، بحيث يخضع أى رئيس أو زعيم لتحليل شخصيته لمعرفة ردود أفعاله ؟

هذا يحدث فى جميع دول العالم ، ولكنه لا يصدق على البلاد العربية ، لأن أحدا لا يمكن أن يتنبأ أو يتوقع الردود العاطفية الانفعالية للإنسان العربى . . إذ لم يصدق كائن من كان فى جميع أجهزة المخابرات العالمية أن يخرج الشعب المصرى كله ليطالب ببقاء عبد الناصر بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ، مع أن المفروض أن يعزل ويحاكم كقائد مهزوم . . ولكن ما أعرفه أن المخابرات الأمريكية استخدمت جميع أطباء النفس الموجودين فى الجمعية الأمريكية للطب النفسى لدراسة شخصيتى السادات وبيجن قبل مباحثات كامب ديفيد ، واستطاعوا أن يحسبوا بدقة ردود أفعالهما . . فلقد وقع السادات

ويجن برغم أن كلا منهما كان يتوقع فى هذا التوقيع نهايته. . فلقد اغتيل السادات بسبب الاتفاقية، ومات بيجن مكتئبا لإحساسه بأنه خسر سيناء.

هل هناك تقديرات تخيب فيها توقعات أطباء علم النفس وأجهزة المخابرات أيضا؟

نعم . . وأبرز مثال أمامنا هو حالة صدام حسين، فلقد ظنت أمريكا بكل أجهزتها أن الشعب العراقى سوف يسقط صدام حسين بعد حرب الخليج الخاسرة، ولكن خاب هذا التوقع، لأننا نرى العراقيين الآن أكثر تمسكا بصدام، بل إننا نرى كثيرا من العرب يتخذونه رمزا للوقوف فى وجه أمريكا.

إن هذا المثال لصدام وشعبه يذكرنى بمقولة الطغيان الشرقى، التى قال بها الفلاسفة، حيث أكدوا أننا نحن الشرقيين مؤهلون لتقبل الحاكم الطاغية المستبد. . فكيف يحدث هذا؟

من الممكن خداع الشعب، وعمل غسيل مخ له عن طريق إغراقه بمعلومات تثير فيه النعرات الكاذبة. وقد ضربنا مثلا بشعب متحضر هو الشعب الألمانى الذى ساقه هتلر إلى المذبحة كالقطيع. . والمهم أنه طالما أن أجهزة الإعلام فى يد الحاكم وأنه يسخرها من أجل تأكيد صورته، فسيظل عنصر السيطرة للطاغية قائما. . والشخص من هذا النوع نسميه علميا باسم «RUTHLESS» وهو الإنسان الذى يفعل أى

شيء وكل شيء من أجل نفسه فقط . . إنه يريد اللذة . . لذة القوة . . لذة السيطرة . . لذة المال . . لذة الجنس . . ويختلف الزعماء من واحد إلى آخر في الحصول على هذه اللذات كلها .

عبد الناصر مثلا لم تحركه لذة المال أو الجنس ، بل كانت تسيطر عليه لذة السلطة حيث يحرك العالم العربي بأطراف أصابعه . . أما صدام حسين فتحركه لذة القوة . . لأنه يريد أن يصبح العراق سيد العرب وصدام هو حاكم العرب وزعيمهم الوحيد . . أما الرئيس الفلبيني الراحل ماركوس فلم تحركه سوى لذة المال ، حيث أخذ ثروة الشعب كلها لنفسه ، وهو عكس الرئيس الأرجنتيني منعم كارلوس الذي يسعى إلى الجنس فقط ، حيث تزوج وهو في السبعين فتاة في الثلاثين هي ملكة جمال في أمريكا اللاتينية . . وهناك زعماء لا تحركهم كل هذه الشهوات ، بل تدفعهم الهيمنة إلى أن يصبحوا نماذج مستهينة بالمجتمع ، مثل الخميني ، الذي كان يدفع أطفالا في الخامسة عشرة إلى الموت وهو يقنعهم بأنهم سوف يدخلون الجنة .

ماذا يعني كل هذا؟

يعني هذا كله أن ثمة جريمة ترتكب في حق أبرياء لا ذنب لهم ، إذ ماذا يمكن أن يدفع آلاف الشباب ، بل الملايين من أجل الموت تحقيقا لمجد حاكم مضطرب نفسيا . . هذا هو الحاكم الدموي . . الطاغية . . المستبد الذي لا يحمل أي مشاعر إلا البقاء قويا وعلى قمة السلطة . . وهذا الشخص على استعداد لأي شيء لنفسه فقط . . إنه يقتل ابنه أو

ابنته من أجل مجده ويخرج ويقول للناس إننى ضحيت بهما من أجل الوطن . . بل إنه يقتل حتى أمه أو والده إذا شعر أن أحدا منهما يمكن أن يمثل تهديدا له ولسلطته . . وحاكم من هذا النوع يمكن أن يدفع الملايين كى يموتوا من أجل مجده الشخصى . . بل إنه يضحى بهذه الملايين إذا شعر للحظة بخطر على سلطاته وحياته . . وهو يفعل هذا، لأنه شخصية مستهينة ليس بالمجتمع فقط ، بل مستهينة بالمشاعر والأعراف والتقاليد . . وهذه هى الحالة التى نسميها فى علم أمراض النفس بحالة «التبلد الوجدانى السيكوباتى» .

العبقرية في الفن

العبقرية معدلان: الذكاء والقدرة على تغيير المجتمع. وطالما أننا بصدد تفسير العبقرية في الفن فسنتناول العبقرية «كمغير» في المجتمع. وحين نعرف العبقرية بوصفها ذكاء نعني أنه إذا تجاوز ذكاء أي إنسان ١٤٠ نقطة، فهذا يضعه في مصاف العباقرة (وجدير بالذكر أن متوسط الذكاء يتراوح ما بين ٩٠ إلى ١١٠ ويتمتع بهذه النسبة ٦٠٪ من جموع الشعب و ٢٠٪ أقل من المتوسط و ٢٠٪ أكثر من المتوسط).

وتذهب الإحصاءات العالمية إلى أن ١٪ من مجموع أي شعب تكون نسبة ذكائه فوق ١٤٠، أي أنه إذا كان تعدادنا ٦٠ مليونا يكون لدينا ستمائة ألف عبقري على المستوى الذكائي.

لتعريف:

والعبقرية محاولة لتخليص المجتمع من بعض المتناقضات في أحد ميادين النشاط الإنساني. والعبقرية الفنية في جوهرها الاجتماعي ما هي إلا محاولة للتغلب على التناقض القائم في أمور التذوق والقيم الفنية للأشياء، أي إحداث تغير في أذواق الناس وفي وجدانهم.

فالعبقري هو الشخص الذي يقدم إلى الإنسانية انتصارا في اتجاه ما لم تحرز مثله الغالبية العظمى من أبناء المجتمع. ومعنى ذلك أن العبقري بحكم تعريفي هذا، ظاهرة نادرة في الحياة، فهل يمكن دراسة العبقرية علميا وخضوعها للمنهج العلمي؟ (وليس بالضروري أن يكون دارس العبقرية عبقريا ولكنه يتميز بأنه يستخدم المنهج العلمي).

ونحن قادرون على دراسة أمور كثيرة سواء جماعية أو فردية. نقيس الذكاء والميول والسمات الشخصية والتطرف والوجدانية، ونقوم بعمل «بروفيل» الشخصيات واتجاهاتها.. وكذلك نستطيع دراسة أمور جماعية كالتعاون والتضامن والروح المعنوية. وقياس كل ذلك موضوعيا باختبارات خاصة.

وعلى حين بدأت دراسة العبقرية دراسة موضوعية منهجية بعد الحرب العالمية الأولى، بدأت دراسة العبقرية وعلاقاتها بالفن بعد الحرب العالمية الثانية. ونستطيع القول بأن أي عبقري هو إنسان عادي، لكنه يختلف عن غيره في درجة الميول والإبداع وليس في النوع (وليس بالضرورة أن يكون أشعث الشعر غريب المظهر).

وثمة رأيان في تكوين العبقري:

١ - إما أنه ملهم عن طريق قوى غريبة.

٢ - وإما أنه غير طبيعي أو مجنون.

ولقد اهتم أفلاطون بدراسة العبقرية، وكان له رأي ساقه في جملة

واضحة هي : «إن الشاعر أو الفنان كائن أثيرى مقدس ذو جناحين لا يمكن أن يبتكر قبل أن يتلقى الوحى والإلهام ، فيفقد صوابه وعقله ، أما إذا احتفظ الإنسان بعقله فلن يستطيع أن ينظم الشعر » .

ولخص نظريته فى الخطوات التالية بعد أن وضع الشعراء نموذجا للفن عامة :

* إن الشعراء يتلقون شعرهم من مصدر إلهى مقدس .

* يفقدون صوابهم وقدرتهم على التنبيه والتمييز فى لحظات الإلهام .

* إن علاقة الشاعر الملهم بغيره كعلاقة الحديد بالمغناطيس يحركهم فلا يملكون إلا أن يتحركوا ، ثم ينتقل إلى قطع أخرى من الحديد فلا تملك إلا أن تتحرك بالمثل . وعلى هذا النحو ينقل الشاعر العبقرى أثر الإلهام إلى الآخرين عندما ينشدهم شعره فيطربون دون أن يدروا لماذا يطربون .

* لو أن العبقرى احتفظ بعقله المميز الناقد لما استطاع أن يكتب شعرا .

ولأفلاطون عدد من الأدلة على صحة هذه النظرية ، منها أنك لن تجد شاعرا يتقن كل أنواع الشعر ، فكل شاعر يتقن لونا بذاته . ولو أن المسألة كانت خاضعة لإرادته لاستطاع بالمران أن يجيد كل أنواع الشعر . والدليل الثانى أننا كثيرا ما نجد شاعرا تافها يجود عليه الزمن فجأة بقصيدة تستحق أن توضع بين الروائع ، أى جاءه الإلهام لفترة وجيزة ثم خلفه . ويدل على ذلك أن الشاعر عندما ينشد شعره

يتقمص الحالة التى يصفها وكأنه قد مسته قوى خفية ، فإذا كان يصف مشهدا من مشاهد الحزن فإنه يحزن حتى يبكي .

وبعد أفلاطون ، بدأ الناس يؤمنون بأن العبقرية إلهام بدون دراسة ثم ما لبثوا أن ربطوا علاقة العبقرية بالمرض وبخاصة المرض العقلي ، فكان سقراط على سبيل المثال يعانى من أعراض كثيرة من المرض العقلى ، وكان يصاب بنوبات من الغيبوبة والتخشب والهلوسة حتى ذهب أحد العلماء (لولو) إلى أنه كان يعانى من الجنون الحسى أو جنون الإدراك .

كذلك كان باسكال عبقرى الرياضة والفلسفة يعانى من كثير من أعراض الجنون وبخاصة الهلوسة . وهذه الفكرة عن العبقرية والجنون كانت موجودة بصورة مبالغ فيها فى القرن الثامن عشر ، ومصدرها الفرنسيون والإيطاليون حيث انبروا منادين بأن العبقرية ما هى إلا إلهام وجنون .

وقبل القرن التاسع عشر كان كل المرضى العقليين يكبلون بالسلاسل والأغلال ، واعتقد العامة أنهم ممسوسون بروح شريرة لا يمكن التخلص منها ، لذا كانوا يحرقون المرضى فى أوربا فى القرون الوسطى بعد تعذيبهم ، بينما كانت هناك فى الوقت نفسه مستشفيات الأمراض العقلية فى العالم الإسلامي ، وقد أنشئ أول مستشفى للأمراض النفسية فى العالم فى بغداد سنة ٧٠٥ م . ويطلق على بينل «أبو» الثورة الإنسانية فى الطب النفسى حيث استطاع أن يفك

السلاسل والأغلال عن المرضى ، وبدأ يفتح أبواب المستشفيات ، وأعلن أنه مرض مثل أى مرض آخر ، وأنه لا يصح أن نعامل المرضى بهذه القسوة . ومن هنا جاءت الفكرة فى المقابلة بين مفهومى الجنون والعقل السليم . وكانت الحجة أن عباقرة الفن والأدب والشعر مصابون باضطرابات عقلية بالرغم من نبوغهم وإنتاجهم الفني ، ومن ثم ضاقت الفجوة بين الجنون والعبقرية .

جاء بعد ذلك لامبروزو ليقدم نظريته عن العبقري ، رابطا بين العبقرية والجنون ، وبين شكل الإنسان الخلقى والعبقرى ؛ فشكل الأنف أو الجبهة أو الفم يرتبط بنوع الشخصية ، وإن كل شكل له علاقة مع نوع المرض النفسى والعبقرية . ولكن هذه النظرية لا تقوم على أساس علمي . وكان العرب أيضا يقولون إن الخلقة تدل على الخلق وهذا غير صحيح ، فقد نخدع بوجه ينم عن البراءة بينما هو مجرم أثيم .

وفى هذا الصدد نذكر العالم الألمانى «لانج» الذى كتب كتابا عن شكل العبقرية ، ودرس حياة ٧٨ عبقريا ، ومن أصيب منهم بأمراض نفسية ، فوجد أن ٨٣٪ منهم كانوا يعانون من بعض الاضطراب العقلي . وعندما قصر تحليله على ٣٥ عبقريا يمثلون قمة العباقرة ، تبين أن ٩٠٪ كانوا يعانون من اضطراب عقلي ونفسي . غير أن هذا المنهج غير سليم ، حيث إنه بنى نظريته على أساس أن حالة المريض النفسي من شأنها أن تزيد من حدة

الشخص ، لأنها تقلل من مقاومته ومن قدرته على ضبط النفس ، وتجعله مرهف الحس لأبسط المؤثرات . كذلك فإن المرض يدفع صاحبه إلى الشعور بالتعاسة والقصور وهو ما يزوده برصيد من الدوافع لاتتوافر في الأصحاء . وكذلك فإن بعض أنواع الاضطراب يصاحبها نشاط في قدرة الشخص على التخيل والانغماس في هذا النشاط بدرجة لا تتوافر لدى الأصحاء ، وهذا ما يزيد من قدرته على الخلق والابتكار .

وانتهى إلى أن العبقرى يعبأ نفسيا لأنه يختلف مع المجتمع إذ يحتك ببيئة اجتماعية متحجرة . ومثل هذا الصراع يحتمل أن يولد اضطرابا نفسيا ، ولكنه أساسا عبقرى وليس المرض النفسى هو السبب في العبقرية ، فهل يمكن أن يقال إن المرض النفسي ضرورى لإظهار العبقرية؟ طبعا هذا غير صحيح علميا . بل نستطيع القول بأن كثيرا جدا من العباقرة كانوا يعيشون عيشة بسيطة مثل العالم أينشتين الذى كان يعمل في مكتب بريد ، والشاعر إيليوت الذى كان يعمل فى أحد البنوك . كانا موظفين عاديين ولكن متميزين في تفكيرهما .

وقد تمت دراسة العبقرى بطريقتين : الأولى من خلال سماته ومزاجه وذكائه وشخصيته :

(أ) إما بطريقة ارتقائية من الطفولة إلى مراحل العمر المختلفة .

(ب) وإما بدراسة عملية لجغرافيا الشخصية المزاجية وتعامله مع الأشخاص والذات .

(جـ) وإما بالقياس التدريجي لأعماله، أى محاولة تفسير أعماله بأنها إسقاطات رمزية للاشعور.

أما الطريقة الثانية فلا تتصل بدراسة العبقرية، وإنما بدراسة نشاط العبقرى حين يمارس عبقريته. وهذه الطريقة للأسف لم تتح إلا لأحد علماء النفس الذى طلب من أينشتين أن يسمح له بدراسته، وكان هذا نصرا كبيرا جدا للعلم والإنسانية.

وفى سنة ١٩٢١، قام تيرمان بدراسة على ٧٠٠ طفل ذكاؤهم فوق الـ ١٤٠، ومضى يتابعهم خلال مراحل تطورهم، وانتهى من دراسته إلى النتائج التالية:

١ - ينحدر الأطفال الموهوبون من أصول عائلية يغلب عليها التفوق العقلى بشكل ملحوظ.

٢ - يغلب على الأطفال أن يكون لديهم أخوة ذوو ذكاء عادة فوق الـ١٢٠.

٣ - يغلب عليهم أن تكون صحتهم البدنية أفضل من عامة الأطفال.

٤ - لم يجد تيرمان ما يدل على أن الأطفال الموهوبين يتميزون بضيق الأفق وعدم الاستقرار الوجدانى ولا فقدان الروح المعنوية والعجز عن التوافق الاجتماعي.

٥ - يتفق هؤلاء الأطفال فى السمات الشخصية والذكاء الاجتماعي، أى قدرة الطفل على حسن التصرف فى المواقف الاجتماعية والاهتمامات العامة والألعاب.

ومن النتائج الطريفة أن الفتيات الموهوبات فى هذا البحث، وكان عددهن ٣٠٠ من مجموع ٧٠٠، بدت عليهن مظاهر الذكورة عندما قورنت جوانب معينة فى سمات شخصيتهن بفتيات عاديات.

تجعلنا هذه الدراسة نعيد النظر فى الآراء السائدة عن شذوذ العباقرة فى طفولتهم، مثل داروين الذى يقال إنه كان متأخرا عن زملائه فى المدرسة، وكذلك مثل نيوتن وباستير اللذين قيل عنهما إنهما مثالان للفشل.

ويعتمد النشاط العبقرى أو الابتكارى أو الإبداعى على ثلاث دعائم:

- **الوظائف الخاصة بالإدراك:** إن العباقرة لديهم استعداد خاص لحل المشكلات الأساسية واليومية فى حياتهم وحياة الآخرين، كذلك لديهم القدرة على المرونة وسرعة حل المشكلات (وهذه أحد تعريفات الذكاء فى أنه القدرة على استخدام الخبرة السابقة فى حل المشكلات).
- **وظيفة إدراك المشكلات (كيف يدرك):** وتعتمد على الأصالة والطلاقة والمرونة والتجديد بشرط الاستفادة من الماضى، وبدون هذه الصفات لا يكون ثمة عمل ابتكاري.
- **التقييم:** لا يمكن لعبقرى أو مبدع تحقيق عبقريته بدون تقييم لذاته أو تقييم الآخرين له، فنسمع عن كثير منهم أنهم يقرءون أعمالهم

على الزوجة التى قد تكون أقل منه ثقافة أو حتى على الشغالة ويسألها عن رأيها فى بيت من قصيدة شعرية أو لوحة مصورة.

ويصف توفيق الحكيم فى كتابه «زهرة العمر» مسألة الأصالة فيقول: «ثم إن هناك شيئا آخر هو طبيعتى التى تميل إلى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس جميعا فى أوضاع معينة، هربا من الوقوع فى الابتذال وسعيا وشغفا جنونيا بالتميز والاغتراب. ولقد وجدت سندا لرغبتى وأساسا لرغبتى المحرقة فى الخروج على ما نسميه المنطق العام، وأقصد المنطق المبنى على فروض عامة مصطلح عليها متنازعة فى صوابها، كالفرض بأن الغيرة (مثلا) دليل على الحب، أو أن الخيانة رذيلة، فالنتائج المترتبة على هذه الفروض العامة تكون فى الغالب هى الأخرى نتائج عامة. أريد أن يكون هناك منطق خاص يحوى فروضًا خاصة لا تخضع للمألوف فى الآراء والمشاعر، كالفرض بأن الحب لا يحوى غيرة مطلقة ولا بغضًا مطلقًا، ومن هذه الفروض تتوالد نتائج خاصة، ومن خلاصة كل ذلك يقوم من ذلك منطق نسميه المنطق الخاص».

ويمكن أن يقال إن توفيق الحكيم هنا إنسان يتمستع بالأصالة لتجديد. فالعبقرى لا يستطيع أن يسير مع المنطق العام إذ له منطقه الخاص. وطبعا هناك من يطلق عليه أنه شاذ أو مجنون، لكن بالدراسة الجادة التدريجية يصل لما يريده ويحدث تغييرا فى المجتمع.

هناك دراسة أخرى لـ «كوكس» على ٣٠١ من عباقرة الإنسانية من

بينهم بيرون وجوته وداروين وباسكال وآخرون، فوجد أن غالبية ذكائهم لا يقل عن ١٥٥ . ولكنه اكتشف أن أكثر العباقرة ذكاء الفلاسفة، إذ يبلغ متوسط ذكائهم ١٧٠ ، يليهم الأدباء والشعراء والساسة حيث يبلغ ذكاؤهم ١٦٠ ، يليهم العلماء والموسيقيون والمصورون والنحاتون فلا يقل أحدهم عن ١٦٠ . ووجد أن الاضطرابات النفسية برغم أنها لم تكن غالبة فى طفولة هؤلاء العباقرة إلا أنها اتبعت قانونا معينا، فكانت أعلى نسبة فى رجال الفن والمصلحين الاجتماعيين وأقل نسبة فى العلماء، وفسر هذا بأن الأولين يحتكون بالمجتمع أكثر من العلماء .

ومن هنا كان العبقرى شخصا متفوق الذكاء، يمتاز بحساسيته المفرطة للمعرفة وما ينطوى ذلك على موقفه من المشكلات، وإذا حاول أن ينتج فهو يؤثر التجديد، ويمتاز بغزارة الأفكار والصور الخيالية التى تنهال عليه فى يسر ، وتمكنه من أن يرى العالم فى كل لحظة من زاوية جديدة . وإضافة إلى ذلك فهو متفوق فى قدرته على تقييم ما ينتج ووضعه فى الموضع اللائق فى السياق، سواء سياق النغم أو اللون أو الأحداث أو القضايا المنطقية .

ويوجد بعض الترابط بين بعض أنواع الصرع والعبقرية . ولنا أمثلة من الأساطير والتاريخ . فهرقل قتل أبناءه وأصدقاءه فى نوبة صرع، وسقراط كان يرقص فى الشارع دون سبب . وهناك الموسيقار هاندل، ونابليون وتشايكوفسكى وموليير وتشارلز ديكنز وابن سينا

وديستويفسكى وأمنحوتب والإسكندر ويوليوس قيصر وبايرون . أما الموسيقيون ، فكثيرون منهم عانوا من الاكتئاب والأمراض النفسية وانعزلوا عن المجتمع مثل بيتهوفن وبرامز وشوبان وهايدن وليست ورافيل وشوبير ومالر وشومان ، ولا ننسى رحمانينوف الذى أهدى طبيبه النفسى الكونشيرتو الرابع للبيانو بعد أن قام بعلاجه من الاكتئاب . أما صورة الطبيب النفسى المعالج لفان جوخ ، فقد تم بيعها أخيرا بمبلغ ٨٢ مليون دولار أمريكي . كذلك أصيب روسينى مؤلف الأوبرات بالاكتئاب بعد قيامه بتلحين ٣٦ أوبرا وتوقف ٢٧ سنة عن العمل بعد أن فقد أمه وثروته . أما فاجنر فكان شخصية سيكوباتية خلاقة .

ومن سمات العبقرى الفنان:

١ ـ إحساس بالاختلاف عن المحيطين به ، وبدون هذا الشعور لن يصبح مبتكرا أو مبدعا .

٢ ـ الاطلاع : لا يوجد ابتكار دون ماض حافل بالجدية والقراءة والاطلاع .

٣ ـ البيئة الاجتماعية التى تؤدي دورا كبيرا فى ظهور العبقرى في أثناء حياته وليس بعد وفاته .

ولقد ثبت أن العباقرة فى طفولتهم لديهم قدرة ترديد الألفاظ ، وثراء لغوى من سن ٢ ـ ٣ ، كذلك لديهم صور «ارتسامية» ، أى إذا

جعلنا طفلا عمره عشر سنوات يتأمل صورة ثم طلبنا منه أن ينظر في إطار فارغ، نجد أن الصورة ما زالت موجودة في ذهنه ويسقطها على الإطار. وقد اتضح أن العباقرة لديهم هذه القدرة بصورة مذهلة، فيقول تشارلز ديكنز إنه يرى قصصه ثم يكتبها. وبلغة الشاعر يقول: إنكم تحملون في أنفسكم الملكة التي أحملها (يشير إلى القدرة على إبصار ما يتخيله)، وكل ما في الأمر أنكم لا تتبنونها. وقال يوما لمصور ناشئ: كل ما عليك أن تثير خيالك حتى تصل إلى حالة الإبصار، وعندها تكون قد وصلت. ولا يوجد عبقري لم يقدم على محاكاة النماذج السابقة، يتدرب عليها المرة تلو الأخرى، ويحاكيها إلى أن يصل إلى الإنتاج الإبداعي.

وقد أصبح مفهوما الآن أن الأدب ليس هواية ولكنه تخصص علمي، يحتاج بجانب الموهبة إلى دراسة منهجية. والكاتب يواجه المجتمع مواجهة القوى المتعادلة، فلم يكد توفيق الحكيم يبلور موهبته حتى أتيح له السفر إلى باريس، ودرس الأدب والفلسفة اليونانية وألم بمختلف الفنون في كل العصور والأدب العربي، وكذلك نجيب محفوظ وكتابته المميزة التي أضفت التغيير على الذوق العربي.

نحن نقرأ أشعار السلف للمتعة، أما الشاعر العبقري فيقرؤها للتلمذة على أهل الصنعة، ونشاهد معارض التصوير للمتعة أما المصور العبقري فيشاهد المعارض ليدرس التقنية والأساليب، ونحن

نقرأ القصة لنشاهد الأحداث أما القصاص فيقرأ لحظة البناء والنسيج وهكذا.

وهنا نلاحظ الفرق بين اطلاع العباقرة وغير العباقرة على الطراز الفني. وقد لمس توفيق الحكيم هذا فى إحدى رسائله فقال: «إن الناس تقوم بقراءة القصة التمثيلية فى ساعة واحدة، أما أنا فأقرؤها فى ثلاثة أيام. فهى تقرأ الحكاية، أما أنا فلا أهتم بالحكاية ولكن بسر صناعتها وطريقة خلق الشخصيات ونسيج القصة والجو والأحداث التأثيرية. إنى أعيد قراءة الصفحة الواحدة مرات عدة، فلقد أعدت قراءة قصص موليير لا لشيء إلا للدراسة وطريقته فى وصف الأشخاص وأخلاقهم وملامحهم».

إن الإمكانات العقلية والمزاجية والإبداع والابتكار تقع رعايتها على عاتق وسائل التربية فى المجتمع ونشر الثقافة الفنية، وكذلك مسئولية الدولة عن رعاية العباقرة واكتشافهم مبكرا، ومحاولة تهيئة وسائل التعليم والثقافة الخاصة، حيث إنهم الثروة الحقيقية للوطن، فما من شك فى أن التحدى الحضارى العالمى هو عدد العباقرة فى كل مجتمع، وليس الأسلحة وخزائن المال المكدسة.

الموسيقى والجنون

«لا يجوز أن يمر الجنون بين العظماء دون ملاحظة أو تعليق» .

«شكسبير» . هاملت ـ الفصل الثالث .

هل هناك حقا شعرة دقيقة تفصل بين العبقرى والمجنون . . ؟

وهل تسقط هذه الشعرة أحيانا أو كثيرا ، ويتحول العبقرى إلى إنسان مجنون . . أم أن هذه الشعرة غير موجودة أساسا وبهذا تصبح العبقرية شكلا من أشكال الجنون ، أو يصبح الجنون مظهرا من مظاهر العبقرية . . ؟!

هناك الكثير من الأبحاث التى قام بها الأطباء النفسيون فى العالم لدراسة مدى انتشار المرض العقلى بين العباقرة فى شتى المجالات ، وخاصة بين المؤلفين الموسيقيين . وهناك أيضا دراسات شملت المصورين والشعراء والكتاب ، بل حتى العلماء والمخترعين . ولعل من أمتع القراءات تلك التى تتناول حياة عباقرة العالم . والأمر المثير هو أن حياتهم كانت غريبة فعلا وإن كانت قصيرة . وإذا كان كل ما كتب أو نقل عنهم صادقا فلا شك في أن حياة الكثيرين منهم كانت تتسم بالشذوذ ؛ والعبقرية فى حد ذاتها نوع من الشذوذ . . شذوذ عن

القاعدة، وشذوذ إحصائي أيضا، فالعبقرية ظاهرة غير متكررة وغير موروثة وقصيرة الأجل أيضا. بعضهم يموت منتحرا والبعض الآخر يموت مرضا في سن مبكرة، ومعظمهم عانى من الأمراض، ولم يعرف عن أحدهم أنه كان رياضيا أو كان معتنيا بصحته. والكثير منهم عانى من التقلبات النفسية، وبخاصة أصحاب المواهب الفنية. وعلى حين أن العبقرية العلمية هي نوع من الذكاء، ذكاء الملاحظة والبحث، فإن العبقرية الفنية هي الموهبة.

وقديما قالوا إن ما بين الذكاء والموهبة قنطرة، وما بين الموهبة والجنون شعرة، ولعل هذا ما دفع شكسبير إلى أن يقول في رائعته هاملت (الفصل الثالث ـ المنظر الأول): «لا يجوز أن يمر الجنون بين العظماء دون ملاحظة أو تعليق». ويرى العالم الألماني أرنست كريتشمر أن نسبة انتشار الأمراض النفسية والعقلية بين المبدعين والعباقرة أعلى من نسبة انتشارها بين الأفراد العاديين، وهذا عكس ما نعرف عن المرض العقلي بالذات من أنه يعطل القدرات. وقد قام الطبيب النفسي الإنجليزي سليتر بالكثير من الأبحاث خرج منها بأن العبقرية لا ترتبط بأي خلل أو اضطراب عقلي؛ إلا أنه وجد أن بعض أنواع الشخصيات تساعد على ظهور بعض القدرات، ومن أهمها الشخصية النوابية التي يتأرجح مزاجها بين الانبساطية والاكتئابية.

وهذا الرأي ليس حديثا، بل هو يرجع إلى عصر أرسطو الذي لاحظ أن معظم السياسيين والفلاسفة الشعراء يميلون إلى المزاج المتقلب بين الاكتئاب والمرح. ونعرف أن فرجينيا ولف الأديبة

البريطانية كتبت معظم إنتاجها فى أثناء فترات المرح أو الهوس إلى أن انتحرت فى آخر حياتها فى نوبة اكتئابية.

وقد ظهر عام ١٩٧٧ كتاب بعنوان: «المخ والموسيقى» ويحتوى هذا الكتاب على فصل رائع بعنوان: «المرض العقلى والموسيقى» كتبه الدكتور/ ترثون أستاذ الطب النفسى بجامعة برمنجهام بإنجلترا على مدى عشر سنوات. وقد قام المؤلف بدراسة حياة كبار الموسيقيين العالميين الذين اشتهر عنهم أنهم كانوا يعانون من الاضطرابات النفسية، ودرس مدى تأثير هذه الاضطرابات على قدراتهم الموسيقية الخلاقة، فوجد أن الكثيرين من المؤلفين الموسيقيين كانوا يعانون من مرض الاكتئاب المتكرر، وبعضهم كانت تتنابهم فترة مرح أو هوس بين نوبات الاكتئاب، وأن أروع إنتاجهم كان فى الفترات السوية أو فترات الهوس تحت الحاد، بينما كان إنتاجهم يقل أو ينعدم فى فترات الاكتئاب المرضية الشديدة.

وقد اعترف الفنان الموسيقى ريمسكى كورساكوف بأن حيويته الموسيقية كانت تتضاءل فى حالات الاكتئاب، فكتب يقول: «فى بداية شهر سبتمبر وذات صباح رقيق صحوت وقد انتابنى تراخ شديد فى أعضائى مصحوب بضغط على رأسى واضطراب فى أفكاري، فانتابتنى حالة من الخوف حتى إننى فقدت شهيتى تماما وآثرت العزلة، وتبلدت أحاسيسى تجاه الموسيقى، وانشغلت ببعض الأفكار الدينية والفلسفية». ولكن يبدو أن هذه الفترات التى تبدو لنا خاملة تشبه إلى حد بعيد رقاد الطير فوق البيض حتى يفقس، فهى الفترات التى يقوم

المؤلف خلالها بالتجميع والتخزين إلى أن تظهر بعد ذلك فى فترة الإنتاج.

وتتضح هذه الظاهرة أيضا من رسائل واعترافات الكثيرين من الموسيقيين التي كتبوها عن أنفسهم وعن أعمالهم.

يقول «إلجار» فى أحد خطاباته إلى صديق له فى أثناء إحدى حالات الاكتئاب «بالرغم من أننى قد هجرت الموسيقى إلا أننى أحس أني مريض بها وأني على اتصال بها كل الوقت».

ويذهب «مايكل كنيدي» إلى أن فترات الإبداع الموسيقى عند إلجار كانت تسبقها فترات اكتئاب حادة. وفى سنة ١٩٠٧ مر «إلجار» بحالة اكتئاب شديدة أعقبتها فترة نشاط حاد أنتج فيها سيمفونيتين وكونشيرتو، وهو ما يؤكد أن إلجار كان مصابا بمرض الاكتئاب والمرح الدوري، فقد كان يصاب بفترات اكتئاب يشعر فيها بالحزن والمرارة واليأس يتوقف فيها عن العمل، ثم تعقبها فترة مرح وسعادة ونشاط زائد تشهد له إنتاجا غزيرا.

كذلك كانت تجتاح المؤلف الموسيقى «وارلوك» حالات حادة تستمر لعدة أسابيع. كتب وارلوك رسالة فى شهر يونيه ١٩١٨ إلى صديقه كولن تايلور يصف فيها حالته قائلا: «أنا حزين جدا وأحس أننى قد تفتت وصرت عقيما ولا جدوى منى، إذ بت لا أستطيع كتابة مقطوعة موسيقية واحدة». وبعد شهرين من كتابة هذه الرسالة ألف وارلوك فجأة عشر أغنيات فى أسبوعين. غير أن الاكتئاب العقلى عند وارلوك كان عميقا مما أدى إلى انتحاره بعد ذلك.

وتنعكس الحالة النفسية للمؤلف الموسيقى على أعماله وبخاصة حالات الاكتئاب. تنتظم الحركة السادسة من رباعية بيتهوفن (مصنف ١٨) التي ألفها بين عامي ١٧٩٨ و ١٨٠٠ والتي اسمها «Appascionata العاطفية» ستة أجزاء يتعاقب فيها البطء والإسراع. وعلى حين تعكس الأجزاء البطيئة جوا من الانقباض والكآبة، تعكس الأجزاء السريعة جوا من المرح والبهجة. وهذه الحركة التي خلدت اسم «الاكتئاب» يتضح فيها حقا تقلب الحالة الانفعالية بين الاكتئاب والمرح. ولعل هذه الحركة توضح طبيعة الحالة النفسية لبيتهوفن التي كانت تتسم بالدورية.

وحالة «روبرت شومان» بلا شك هي أفضل الحالات التي تمثل التقلبات المزاجية، فهو شخصية دورية مثالية. ولقد أوضح الطبيب النفسي سليتر عن طريق رسم بياني العلاقة بين تقلبات شومان الانفعالية وإنتاجه. والأمر المثير هو أن هذا الرسم قد أظهر فعلا أن فترات إنتاج شومان كانت تسبقها فترات اكتئابية طويلة.

ومن المؤلفين الذين عانوا من الاكتئاب الذى حطم حياتهم وقضى على قدراتهم الإبداعية الفنان الروسي بالاكيرف الذى هجر الموسيقى فجأة وهو في سن الرابعة والثلاثين ليعمل كاتبا في محطة سكة حديد بعد أن عكف على التدين الشديد، واستمرت حالة الاكتئاب عنده لمدة أربع سنوات.

ويقال إن اليوم الذى قرر فيه ترك الموسيقى كان يوم احتفاله بذكرى

وفاة أمه التي ماتت وعمره عشر سنوات . ويعتقد الأطباء النفسيون الذين درسوا تاريخ حياته أن حالة الاكتئاب لازمته بشكل متقطع بسبب وفاة أمه (هناك أبحاث تشير إلى احتمال أن الإنسان قد يصبح أكثر عرضة للاكتئاب إذا فقد أمه في سن الطفولة) . غير أن بالاكريف شفي من اكتئابه فجأة ، واستأنف النشاط الموسيقى حتى فرغ من أوبرا «تامارا» التي كان قد تركها ناقصة حين داهمته حالة الاكتئاب ، لكنه ما لبث أن وقع فريسة للاكتئاب والديون مرة أخرى حتى طرد من قيادة الفرقة الموسيقية الروسية .

ومن الحالات المعقدة التي كانت مجالا للكثير من الدراسات النفسية والتشخيصات المختلفة بين الأطباء ، حالة الموسيقار روسيني (١٧٩٢ - ١٨٦٨) . ففى سن السابعة والثلاثين كان روسيني قد أنهى تأليف ٣٦ أوبرا ، وفي عام ١٨٣٩ أنهى حياته كمؤلف أوبرالى ، والتزم الصمت ثمانى سنوات إلى أن عاوده النشاط لمدة خمس سنوات ، وإن لم يستطع أن يقدم عملا كبيرا . وهذا التوقف المفاجئ لقدراته الخلاقة فسره شوارتز المحلل النفسى بأنه نتيجة لحالة الأسى والحزن العميق التي أصيب بها بعد موت والدته في عام ١٨٢٧ ، وقد تجدد حزنه بعد ذلك بوفاة زوجته الأولى بالرغم من أنه كان منفصلا عنها عدة سنوات قبل وفاتها . والغريب أن أم روسيني كانت مغنية أوبرا وكذا زوجته إيزابيلا التي غنت ما لا يقل عن عشرة أوبرتات لروسيني نفسه . ويرى المحلل النفسى شوارتز أن روسيني

كان يحمل لأمه عواطف متناقضة من الحب والكراهية وإن كان ملتصقا بها التصاقا غير طبيعى فى حياته . وقد منعته مشاعر الحب والكراهية من أن يرثيها بطريقة سوية بعد وفاتها . . ويفسر رفضه للتأليف الموسيقى بعد ذلك على بأنه تعبير عن غضبه اللاشعورى تجاه أمه التى هجرته بموتها .

ويرى البعض أن روسينى كان مصابا بمرض الاكتئاب الهوسى أو ما يسمى الآن الاضطراب الوجدانى ثنائى القطب . فقد كان شخصية انبساطية مكتنز الجسم . هذا بالإضافة إلى نوعية الأعراض التى أصيب بها . وفى العام الذى هجر فيه الموسيقى كانت أعراض الاكتئاب الشديد واضحة عليه ، وكما قال أحد أطباء النفس : إن حالة روسينى هى حالة اكتئاب مثالية تصلح تماما لأن يتعلم منها طلبة كلية الطب الأعراض الحقة لمرض الاكتئاب ، فقد كان يعانى من هبوط تام فى معنوياته وانحطاط فى قواه الجسمانية ، كما فقد قدرا كبيرا من وزنه لعدم رغبته فى الأكل . وقد عانى كثيرا من الأرق والخواطر الانتحارية وأصابه إحساس بأنه فقير معدم لايصلح لشيء ولا يستحق الحياة . التقى به مندلسون عام ١٨٣٦ وقال عنه : إن هذا الرجل مكتئب حقا . والغريب أنه بعد عام واحد من مقابلته لمندلسون عاوده نشاطه ، واستأنف التأليف الموسيقى ولكن سرعان ما داهمه الاكتئاب مرة أخرى فى عام ١٨٣٩ ، وذلك عقب وفاة والده .

والأبحاث الحديثة فى الطب النفسى تؤكد الآن فعلا أن بعض الأمراض العقلية كالاكتئاب والفصام تعاود صاحبها إذا تعرض لكرب أو مؤثرات خارجية عنيفة، أهمها حوادث الوفاة وبخاصة وفاة الأب أو الأم أو الزوجة.

ومن الأشياء الغريبة حقا أن كثيرا من المؤلفين الموسيقيين توقفوا عن التأليف الموسيقى فجأة وفى سن مبكرة جدا دون سبب واضح ودون أعراض عقلية واضحة لديهم. ومن هؤلاء بول دوكا (١٨٦٥ـ ١٩٣٥) الذى توقف عن التأليف فجأة وهو فى الأربعين من عمره، ويقال إنه فجأة أيضا حرق جميع أعماله غير المنشورة والتى استغرقت أكثر من عشرين عاما من العمل المتواصل، ولم يكن يعانى من أى مرض عقلي.

وأيضا الموسيقار «سيبيليوس» (١٨٦٥ ـ ١٩٥٧) الذى كتب أشهر وآخر أعماله «تابيولا» وظل بعدها ثلاثين عاما متوقفا حتى لقى ربه. ويرى الطبيب النفسى لايتون أن «سيبيليوس» كان محطما بسبب عدم تحقيقه الشهرة والنجاح فى ألمانيا.. وكان قاسيا مع نفسه حاد النقد لها، ومن أكبر الصدمات التى عانى منها موت صديقه الناقد الفنان كابلين.

وتشارلز إيف (١٨٧٤ ـ ١٩٥٤) أيضا من المؤلفين الموسيقيين الذين توقفوا عن التأليف بسبب إصابته بأزمة قلبية فى عام ١٩١٨، وتذهب أرون كوبلاند إلى أن توقف إيف كان بسبب شعوره بالإحباط لأنه لم

يكن له مستمعون قط، فقد كانت مؤلفاته معقدة وصعبة وبعيدة عن إدراك الناس في عصره برغم أن أعماله شائعة الآن.

وحالة المؤلف الموسيقى الشاعر الرسام الفرنسي هنري دوبارك (١٨٤٨ - ١٩٣٣) من الحالات المثيرة بالنسبة للأطباء النفسيين، فقد جمع أعراضا كثيرة كالاكتئاب والوساوس.

أرسل دوبارك وهو في سن الثانية والسبعين رسالة إلى ناشره يقول فيها: «إن كل مؤلفاتي الموسيقية كانت قبل سن السابعة والثلاثين، وبعد ذلك توقفت تماما. . ويرى البعض أن ذلك بسبب ضعف بصري وأيضا حالة الشلل التي أصبت بها. ولكن ذلك غير صحيح على الإطلاق. . فقد شعرت أني عاجز عن أن أكتب جملة موسيقية واحدة».

ويرى ألاجونيني أن دوبارك كان مصابا بمرض الاكتئاب الهوسي وأن توقفه الموسيقي كان بسبب حالة الوهن والوساوس التي أصابته وخاصة فيما يتعلق بإنجازاته التي دفعته في مئات المرات إلى أن يمزق الأجزاء الأولى من الأعمال التي كان يبدأ فيها. ويمكن القول بأن دوبارك كان مصابا فعلا بمرض الوسواس القهري. ومن الوساوس التي لازمته فكرة سيطرت عليه بأن الطائر الذي كان يغني كل صباح على شباك حجرته يمنع عنه الأفكار الموسيقية (لا توجد معلومات كافية عن طبيعة هذه الفكرة، ويمكن عَدُّها نوعا من المعتقدات الخاطئة أو الضلالات، وهي عرض عقلي. وذلك إذا كان دوبارك على يقين

من أن الطائر يمنع عنه الأفكار، هنا تخرج من حيز الوساوس التى تتميز بأن المريض يعرف تفاهة الفكرة ويحاول أن يقاومها وتصبح نوعا من الضلال). والعجيب أن كل هذه الاضطرابات أثرت على إنتاجه الموسيقى فقط، ولم تحق إبداعه الفنى فى الشعر والرسم.

ومن أشهر الحالات المرضية وأكثرها تفاقما، حالة الشاعر والموسيقار الإنجليزى إيفور جرنى (١٨٩٠ - ١٩٣٧)، إذ أدى مرضه إلى التدهور الواضح فى نوعية أعماله. ولقد أمكن بتحليل هذه الأعمال التعرف على نوعية بعض هذه الأعراض المرضية.

فصل جرنى من الجيش فى سنة ١٩١٨ بسبب اضطرابه النفسى. وفى السنوات التى تلت خروجه من الجيش، كتب أشهر أشعاره وأغانيه، حتى دخل مستشفى الأمراض العقلية فى سنة ١٩٢٢، ومكث فيه لمدة ١٥ سنة متتالية مات بعدها بمرض الدرن، وكان تشخيص حالته فصاما اضطهاديا. وكان يشرف على علاجه الطبيب الإنجليزى المشهور أندرسون الذى يقول: إن جرنى عانى من الكثير من الانهيارات النفسية قبل دخوله المستشفى. وإنه عقب كل انهيار كان يقوم بتأليف عمل من الأعمال الكبيرة المشهورة. وكانت بداية ظهور هذه الأعراض فى عام ١٩١٣ عندما كان فى العشرين من عمره، بدأت فى صورة نوبات متكررة من الاكتئاب ومحاولات الانتحار التى كانت مقدمة لإصابته بمرض الفصام. ولقد استمر جرنى فى التأليف الموسيقى حتى بعد دخوله المصحة العقلية،

وانعكست أعراض المرض على مؤلفاته وبخاصة مشاعر الاضطهاد التي كان يعاني منها .

كان جرني يعتقد أنه هو المؤلف الحقيقي لكل مسرحيات شكسبير ، وأن هايدن وبيتهوفن شخصيات وهمية ، وأنه - أي جرني - هو مؤلف كل الأعمال التي نسبت إلى هايدن وبيتهوفن . وفي أحد مؤلفاته في أثناء وجوده بالمستشفى وقع عليه باسم بيتهوفن ، ولم يكن هناك ترابط بين جملة موسيقية وهو ما يُعد من الأعراض المشهورة في مرض الفصام ، وهو عدم ترابط الأفكار . . ولعل هذا ما يوضح مدى تأثير المرض العقلي على أعمال الفنان وبخاصة التشتت وعدم الترابط ، وأن الإنتاج الفعلي للفنان لا يكون إلا في حالته العقلية السوية حتى وإن كان يعاني من أحد الأمراض العقلية .

وهذا يوضح أيضا الفرق بين مرض الاكتئاب ومرض الفصام . فالاكتئاب مرض دوري يأتي على صورة نوبات متكررة ويشفى المريض تماما من النوبات . وقد يعقب نوبة الاكتئاب نوبة مرح أو هوس ، وفي هذه النوبات يقدم الفنان أعظم أعماله ، ولا يؤدي هذا النوع من الاكتئاب إلى تدهور في الشخصية أو القدرات الذهنية .

أما مرض الفصام ، فيستمر لمدة طويلة ، وقد تتحسن الحالة ويعود المريض لسابق عهده ، ولكن الكثيرين من المرضى يعانون من بعض الأعراض المتبقية ، كما أنه يسبب تدهورا في الشخصية واختلالا في التفكير ، ولهذا فإن حالة جرني هي فصام أدى إلى تدهوره التام والتشتت الواضح في إنتاجه الفني .

والأمراض العضوية التى تصيب المخ تسبب أيضا تدهورا فى المقدرة على التأليف الموسيقى. ويعتقد البعض أن هذه الظاهرة بدت بوضوح فى الأعمال الأخيرة «لشومان» وأيضا «الدونيزيتي» و«لسميتانا» الذين عانوا جميعا من «زهرى الجهاز العصبي» (هناك شك في أن شومان أصيب بهذا المرض، إلا أنه كان يعانى من أعراض مرض عقلى فى المخ).

ومن المؤلفين المؤكد إصابتهم بزهرى الجهاز العصبى هوجو وولف (١٨٦٠ - ١٩٠٣) ولقد ظهرت أعراض المرض العقلى على وولف فجأة فى سبتمبر عام ١٨٩٧ حينما كان يعزف على البيانو فى وسط مجموعة من أصدقائه الذين دعاهم ليستمعوا إليه، وفجأة ترك العزف وأعلن على الحاضرين أن مالر مدير الأوبرا فى فيينا قد أعفى من منصبه، وأنه تولى هذا المنصب الآن. ولقد صدمت هذه الكلمات أسماع ضيوفه، وتم نقله فورا إلى مصحة للأمراض العقلية. وبرغم أن الحالة ظهرت فجأة، فإنه كان واضحا أن وولف يعانى من أعراض زهرى الجهاز العصبى منذ عام، وذلك من خلال الاضطراب الواضح فى سلوكه وعدم ثباته وتقلباته الانفعالية. والغريب أن وولف قبل دخوله المصحة بستة أشهر كان قد أنهى مؤلفه «الأغنيات الثلاث لمايكل أنجلو» وذلك فى مارس عام ١٨٩٧. ولقد وصف أرك سام هذا المؤلف بأنه ملىء بالانفعالات الحادة. وواضح أن تدهورا ضئيلا قد أصاب وولف فى قدرته على التأليف الموسيقى برغم إصابته المتدهورة فى المخ. . وهذه النقطة قد حيرت العلماء كثيرا. فمعروف

أن المرض العقلي العضوى الذى يصيب المخ يؤثر بشدة على قدرة الإنسان على استعمال التفكير التجريدي . وكما هو معروف، فإن التأليف الموسيقى يحتاج إلى درجة عالية من القدرة على التجريد، فالموسيقى هى أكثر الفنون تجريدا . ولقد قدم العلماء الكثير من التفسيرات لهذا الموقف المحير . فالموهبة الموسيقية مكانها الفص الصدغى غير السائد فى المخ، بينما يؤثر زهرى الجهاز العصبى أول ما يؤثر على الفص الجبهى أو الأمامي، ولهذا يظل المؤلف الموسيقى محتفظا بموهبته وقدراته وقتا طويلا بعد إصابته بالمرض، وذلك لأن المرض يبدأ فى مكان مختلف من المخ عن المكان التى توجد فيه القدرة الإبداعية الموسيقية .

ولكن هناك رأيا مخالفا . فالمعروف أن المرض العضوى الذى يصيب المخ يؤثر على القدرات والمهارات المكتسبة حديثا ويترك لوقت طويل القدرات والمهارات المكتسبة منذ زمن بعيد دونما تأثير مثل الموهبة الموسيقية التى تبدأ فى سن مبكرة . وأبرز مثال على هذا : موزارت . ولهذا فإن المرض العضوى حين يصيب المؤلف الموسيقى فإنه لا يؤثر على مقدرته الموسيقية لأنها موجودة فى مخه منذ طفولته .

ونلاحظ عموما فى الأمراض العقلية العضوية التى تصيب المخ أن المريض يتدهور فى بعض القدرات ويظل محتفظا ببعض القدرات الأخرى، وهذا يرجع إلى إصابة بعض الأجزاء وترك أجزاء المخ الأخرى سليمة .

ولهذا فإنه بالرغم من أن الناقد الموسيقى سام كتب فى سنة ١٩٦١ عن آخر أعمال وولف «الأغانى الثلاث لمايكل أنجلو» التى كتبها تحت تأثير إصابة مخه بالزهرى ووصفها بأنها عمل غير متكامل، فإنه استطرد قائلا: إن هذا العمل مثير وتتضح فيه العاطفة الشديدة، ولا يمكن فهمه عند سماعه لأول مرة، ويكفى هذا العمل لتخليد وولف. ويعجب الناقد أرنست نيومان (١٩٠٧) كيف أن إنسانا أصيب بهذا المرض العقلى العضوى الخطير يستطيع أن يكتب ما كتب وولف.

وبعيدا عن مجال الأمراض العقلية المحددة واضطرابات المخ، فهناك اضطرابات أخرى لا تدخل فى نطاق الأمراض، وهى اضطرابات الشخصية التى تؤثر على سلوك الإنسان وانفعالاته، وبالتالى تؤثر على نوعية الإبداع الفنى فى حالة الفنانين. ومن أبرز هذه الشخصيات التى يكون لها تأثير واضح، الشخصية الهستيرية والشخصية القهرية. ويُعَدُّ هيكتور بيرليوز (١٨٠٣ - ١٨٦٩) وريتشارد فاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣) أشهر مثالين للشخصية الهستيرية.

ومن القصص التى توضح الجوانب الهستيرية فى شخصية بيرليوز سلوكه الدرامى المبالغ فيه حينما علم أن خطيبته كاميل موك قد هجرته إلى إنسان آخر. فحينما عرف ذلك قرر الذهاب إلى باريس ليقتل محبوبته كاميل وأمها ثم يقتل نفسه. وتنكر فى زى مديرة المنزل، وحمل مسدسه وأخفى زجاجة بها الإستركنين السام الذى قرر أن ينتحر به بعد أن يطلق الرصاص على كاميل وأمها. وخرج يتجول فى

شوارع فلورانسا حتى وصل دون أن يدرى إلى نيس ، وهناك استعاد حواسه وعاد إلى وعيه ، ولم يعرف بعد مصير المسدس وزجاجة الإستركنين ، وعاد يستأنف حياته ناسيا محبوبته الخائنة .

والتشخيص الطبى النفسى لحالة بيرليوز أنها حالة شرود هستيري ، وهو مثل أى شخصية هستيرية لم ينفعل من داخله لفقدان خطيبته لأنه سرعان ما نسيها برغم الدراما التى افتعلها بينما علم بهجرها له . وكما نقول نحن الأطباء النفسيين : إن الشخصية الهستيرية لا تنفعل أبعد من حدود جلدها .

ويقال إن بيرليوز كان يعانى من مرض الحساسية وأيضا من مرض الصرع ، برغم أنه أنكر هذا المرض الأخير . ومعروف طبيا أن مرض الصرع يتميز ببعض السمات الهستيرية ويمكن تفسير حالة الشرود التى أصابت بيرليوز بأنها نوبة صرعية حدثت لصدمته فى خطيبته . وأصيب بيرليوز فى آخر أيامه بحالة الاكتئاب بعد وفاة زوجته بالرغم من أنه كان يشعر كثيرا بالاغتراب نحوها ، ولقد وصف أيامه الأخيرة بأنها تتسم بالفراغ والوحدة واليأس الشديد .

أما الموسيقى العظيم فاجنر ، فإنه من الصعب تغطية أبعاد شخصيته المعقدة التركيب فى هذه المساحة البسيطة ، ولكن هناك إجماعا من جميع الأطباء النفسيين الذين درسوا تاريخ حياته بأنه كان ذا شخصية هستيرية نرجسية عاشقا لذاته ، تميل شخصيته إلى السمات ضد الاجتماعية ، ولو أن الطبيب الإنجليزى هندرسون يرى أنه شخصية

سيكوباتية ذات خلل اجتماعى تتسم بالقدرة الابتكارية، والبعض يعتقد أن أعماله تعكس بوضوح ميوله الهستيرية المبالغ فيها. وبرغم الشيوع الشديد لأعماله، فإن هناك البعض الذين لا تروق لهم، ومنهم روسينى الذى وصف موسيقى فاجنر بأنها «صلصة بدون طعام».

وأبرز سمات شخصية فاجنر: الأنانية الشديدة والقسوة وعدم التهذيب، وكان ذلك واضحا فى معاملته لزوجته الأولى مينا بلانر، وسلوكه الشاذ فى علاقته مع السيدة ماتيلده فيزوندونك وغيرها. وأجمعت عشيقاته على أنه كان شديد الأنانية محبا لذاته وغير مهذب فى معاملته للنساء. واتضحت قسوته الشديدة فى سلوكه العنيف مع زوج كوزيما فون بيلو التى أصبحت فيما بعد زوجته الثانية، فلقد شهر به ووصفه بأنه زوج السيدة الخائنة برغم أنه كان صديق عمره وزميله.

ولقد وصفه هندرسون بالإضافة إلى أنه أنانى محب لذاته بأنه أيضا كان يفتقد المشاعر الإنسانية والتعاطف مع الآخرين. ووصفه الناقد هانزليك بقوله: «إنه كان يتكلم بطريقة غير معقولة وسريعة، وكان دائم الحديث عن نفسه وأعماله وخططه، وإذا ذكر أمامه اسم مؤلف موسيقى آخر فإنه كان لا يتورع عن إهانته والتقليل من قيمته الفنية».

ويعتقد البعض أن هذه الأنانية الشديدة التى كان فاجنر يتصف بها وافتقاده إلى المشاعر الإنسانية كانتا هما أيضا بعض سمات المؤلفين

الموسيقيين ذائعي الشهرة مثل بيتهوفن وهوجو وولف وريتشارد شتراوس.

والشخصية القهرية تجلت سماتها أيضا في بعض المؤلفين الموسيقيين، وظهرت بوضوح في أعمال بعضهم: ومن أشهرهم أنطون بروكنر (١٨٢٤ - ١٨٩٦) الذي كان موسوسا بفكرة الموت دوما، وكان يعاني من رغبة قهرية في العد، وهذا يؤكد أنه لم يكن شخصية قهرية فحسب بل كان يعاني من أعراض مرض الوسواس القهري، والذي من أعراضه أن يجد الإنسان نفسه مدفوعا لجمع أو طرح أي أرقام تقع عليها عيناه أو عد درجات أي سلم يصعد عليها أو عد كلمات صفحات كتاب يقرؤه وهكذا، تماما كالذي يشعر برغبة قهرية لغسل يديه مئات المرات برغم أنه يعلم تماما أنها نظيفة وأنه لا داعي لأن يفعل ذلك، ولكنه لا يستطيع أن يقاوم هذه الفكرة التي تسيطر عليه. ويميل هؤلاء المرضى إلى تكرار أي شيء يفعلونه والتأكيد عليه. ويقول الطبيب النفسي الإنجليزي المعاصر سليتر إن ذلك قد ظهر بوضوح في أعمال بروكنر، ففي بعض الأجزاء يلاحظ التكرار الشديد وإعادة نفس الجزء أكثر من مرة وبنفس الإيقاع. ويظهر هذا التكرار الملح في أعمال أنطونين دفوجاك (١٨٤١ - ١٩٠٤) الذي كان يعاني أيضا من الوسوسة الشديدة.

وأبرز مثال للشخصية القهرية الوسواسة هو أريك ساتي (١٨٦٦ - ١٩٢٥) الذي كان يعيش وحيدا في باريس. وبالرغم من فقره

النسبى ، فإنه كان دائما يرتدى الملابس النظيفة ، وكان شديد الدقة فى حركاته وكلامه ، شديد النظافة يقضى أوقاتا طويلة فى الحمام ، ولم يسمح لأحد فى حياته بدخول حجرة نومه ، وحين فتحت هذه الحجرة بعد وفاته وجدت فى غاية النظافة والترتيب وكان دولاب ملابسه يحتوى على دستة بدل متشابهة فى اللون والطراز تبدو كالجديدة من فرط العناية بها .

وظهر هذا بوضوح على أعماله الموسيقية . ومن أجمل العبارات التى قيلت عن أعماله والتى يمكن الاستعانة بها فعلا فى وصف سلوك وأعمال الشخصية القهرية ، تلك التى جاءت على لسان لامبيرات فى سنة ١٩٣٤ حين وصف أعمال ساتى بقوله : «كما أنه لا يكون هناك أى فرق حين تدور حول تمثال من أى اتجاه فإنك أيضا لا تشعر بأى فرق حين تعزف موسيقى ساتى من أى اتجاه ، ولا تشعر بأى فرق حين يختلف النظام أو التتابع الذى تعزف به الأجزاء التى تتكون منها قطعة معينة» .

وكذلك ألكسندر سكريابين (١٨٧١ - ١٩٥١) يمكن إدراجه بوصفه شخصية قهرية ، فقد كان يقضى وقتا طويلا فى تزيين نفسه قبل دخوله أى مكان به جمع من الناس . ويقال إن خطه كان جميلا منسقا وكل حروفه متشابهة إلى حد كبير . ومن أعراض وسوسته الشديدة أنه كان لا يأخذ نقودا أو بضاعة من أى إنسان إلا بعد أن يرتدى قفازا فى يديه ، وكان دائم الشكوى من الصداع النصفى (الصداع النصفى منتشر بنسبة أكثر بين أصحاب الشخصية القهرية

والمصابين بمرض الوسواس القهري). وعندما تقدم به السن أصبح مهتما بالمسائل الغامضة والنواحي الدينية، وحاول في مرة تقليد السيد المسيح بأن يمشي على مياه بحيرة جنيف، وحينما فشل جلس في قارب يتحدث إلى بعض الصيادين في أمور الدين. ومثل معظم الشخصيات المصابة بالوسواس، فإن حياته الجنسية لم تكن موفقة برغم أنه تزوج مرتين.

ومن الأشياء المثيرة أن كثيرا من عظماء الموسيقى الذين عاشوا في القرن التاسع عشر قد أصيبوا بزهري الجهاز العصبي، الذى كان منتشرا ولا يعرف له سبب، حيث لم يكتشف الميكروب المسبب والعلاج إلا في أوائل القرن العشرين. وهذا المرض الذى يصيب المخ وبعض أجزاء من الجهاز العصبي تظهر أعراضه بعد عشر سنوات أو أكثر من الإصابة الأولى التي تحدث مباشرة بعد العلاقة الجنسية. في هذا المرض تصاب الخلايا العصبية بالتلف والتآكل ويصاب المريض بضعف تدريجي في الذاكرة حتى تضمحل تماما، وتصاحب ذلك أعراض عقلية كالهلاوس والضلالات وبالذات هذاءات العظمة (جنون العظمة)، وقد يصاب المريض بالشلل أيضا.

ومن المؤلفين الموسيقيين الذين يعتقد «ترثون» أنهم أصيبوا بهذا المرض: هاندل وبيتهوفن وهوفمان وشوبرت ودونيزيتي الذى كان موهوبا أيضا في التأليف الموسيقي.

ولعل الإنسان يصاب بالحيرة البالغة بعد أن يعرف أن عباقرة العالم

من المؤلفين الموسيقيين كانوا يعانون من اضطرابات عقلية واضحة أو اضطرابات في الشخصية، وأن ذلك قد انعكس بشكل أو آخر على نوعية موسيقاهم. ولعل الإنسان يتساءل أيضا: هل هناك ثمة علاقة بين الاضطراب النفسي والموهبة الفنية؟ هل ساعدت هذه الاضطرابات بشكل أو بآخر على ظهور الموهبة أو تطورها أو نضجها، أم أن وجود هذه الموهبة التي تظهر في عمليات الخلق والإبداع تتطلب حالة وجدانية وانفعالية معينة، وأن هذه الحالة تجعل الفنان معرضا للاضطراب النفسي؟

مما لا شك فيه أن وجود الموهبة وبالذات الموهبة الفنية لابد أن يلازمها تكوين نفسي خاص، فلا يمكن تصور أن الموهبة المزروعة في مكان ما من مخ الفنان يمكن فصلها عن بقية المخ، وأن هذا المخ يمكن أن يتشابه ويتطابق مع مخ الإنسان العادي، فإن وجودها مرتبط ببقية أجزاء المخ والتي يجب أن تؤهل بصفات خاصة تتلاءم مع وجود هذا الشيء الشاذ غير الطبيعي، فالموهبة شيء شاذ لأنها غير موجودة غير بقية المخلوقات، والفنان إنسان غير عادى لأنه يملك شيئا فريدا غير موجود عند البشر العاديين.

وتتطلب عملية الخلق الفنى حالة انفعالية لا يستطيع وصفها إلا الفنان نفسه، وربما يشعر بها ولكنه لا يستطيع التعبير عنها ولذا سوف تظل سرا إلى الأبد. وإن أقصى ما وصفت به هذه الحالة أنها تشبه عملية الولادة حيث يجتاح الأم أثناء الولادة مزيج من مشاعر الألم

والخوف والفرحة . . . فهى من اللحظات الانفعالية الشديدة، ولو وجد جهاز يمكنه قياس مدى تأثير هذه الحالة الانفعالية الخاصة على الجهاز العصبى للفنان ـ قياس حجمها ونوعها ومدى تأثيرها ـ لربما استطعنا أن نتخيل ماذا يمكن أن تتركه من أثر ـ إن هذه اللحظات لها مستلزمات وجدانية وذهنية خاصة . إنها لحظات تنطلق فيها الشحنات الكهربائية إلى أقصى مداها لتحرك الذهن والوجدان ليصبحا فى حالة طوارئ قصوى، وهى ليست على غرار الحرفة التى حين يجيدها الإنسان فإنه يستطيع أن يعمل وينتج بأقل مجهود انفعالى وذهني .

وباستعمال التعبيرات الطبية النفسية، فإن الفنان فى أثناء لحظات الخلق يصبح فى حالة توتر وتوهج وتألق وتناقض وفى الوقت نفسه تناسق وتناغم . ومع أن الجهاز العصبى للفنان تشريحيا وفسيولوجيا لا يختلف عن الجهاز العصبى للإنسان العادى، إلا أننى أعتقد أنه يعمل بشكل يختلف عن الغالبية، وأنه يتعرض لتغييرات وجدانية وانفعالات لا يتعرض لها بقية الناس، وأن هذه الأمور لا شك تترك آثارها ربما المزعجة على أعصاب الفنان .

وإذا كان الوضع كذلك، فلابد أن المؤثرات التى يتعرض لها الفنان تكون ذات تأثير خاص عليه ويتفاعل معها بشكل يختلف عن الإنسان العادي . هل لهذا السبب يكتئب الفنان أو يضطرب بشكل ما نفسيا، وأن درجة اكتئابه واضطرابه تكون بشكل أعمق، أم أن الاضطراب النفسى هو اضطراب أولى ينشأ من داخل الفنان وليست له علاقة

بالمؤثرات الخارجية، وأنه إذا كانت حياة هؤلاء الفنانين غير طبيعية وسلوكهم يبدو شاذا أحيانا فإن ذلك راجع لاضطرابهم الأولى الداخلى وبذلك لا تستقيم حياتهم مثل حياة بقية البشر؟

هل الموسيقى الحزينة أو المتفائلة التى يبدعها هؤلاء الناس تعكس حالتهم فعلا وهم يقومون بإنتاجها، أم أنهم بما لهم من خبرة بالاكتئاب والانبساط يستطيعون بسهولة أن يدسوا هذه الأحاسيس فى أعمالهم وليس من الضرورى أن يكونوا هم فى هذه الحالة الانفعالية؟

إننا بوصفنا مستمعين ينتقل إلينا الإحساس بالحزن ونحن نستمع إلى عمل موسيقى حزين، ويحدث العكس إذا استمعنا إلى عمل يتسم بالمرح والتفاؤل، فهل يمكن للفنان الذى حرك أحاسيسنا بهذه الانفعالات أن يقوم بإبداعها وهو فى حالة انفعالية مختلفة، وأنه فقط أجاد شحن هذا العمل بهذا الإحساس من رصيده السابق؟ إننى شخصيا لا أتفق مع هذا الرأى الذى يقترحه ترثون فى كتابه.

رأيى فى هذا الموضوع أنه ليس من الضرورى أن يكون الفنان فى حالة حزن شديد أو انشراح طاغ ليعكس لنا هذا فى أعماله، ولكنى أعتقد أنه يكون فى حالة وسط، حالة فيها المزيج من كلا الانفعالين، حالة غريبة لمزيج عجيب من الحزن الذى لا يطفىء حيويته والابتهاج الذى لا يفسد رؤيته الجادة العميقة، ويكون ذلك مصحوبا بالقلق، والتوتر حالة كما قلت لا يمكن أن يستشعرها إلا الفنان، وقد يستطيع - وفى الغالب لا يستطيع - أن يصفها لغيره أو حتى يحددها لنفسه.

وما دامت كل الأعمال الإبداعية الخلاقة لها محتوى فكرى سواء كان رسما أو موسيقى أو كتابة أو نحتا فإنه يحرك لاشعوريا وجدانه حسب المضمون الفكرى لعمله، وبذلك يتواءم الانفعال ويتزاوج مع ما يريد أن ينقله لنا من مضمون، أو بمعنى آخر ينسجم المضمون الفكرى مع الانفعال. وفى هذه الحالة لا يصبح الانفعال - حزنا أو انشراحا - وعاء لهذا الفكر، أو لا يصبح الفكر وعاء للانفعال، بل هى عملية انصهار كامل، ولهذا فإن الأعمال الفنية المجيدة الخالدة هى التى تحرك أذهاننا ووجداننا فى نفس الاتجاه.

إن هذا التشريح النفسى للفنان لا ينتقص من قيمته. وسأنهى الفصل بتوجيه كلمة لصديقى الفنان: برغم أنك مصدر من مصادر المتعة البالغة فى حياتنا، وبرغم أنك تقدم لنا السعادة من ذاتك ومن أعصابك ومن صحتك ومن حياتك، وبرغم أنك تقدم لنا ما يثير سرور عيوننا ونشوة آذاننا ومتعة عقولنا فتتحرك قلوبنا بالبهجة وتسترخى أعصابنا وعضلاتنا - برغم كل هذا فنحن لا نرحمك.. فعيوننا وآذاننا ثم ألسنتنا وراء كل ما تعمل.. نبحث فى حياتك ونفتش عن أسرارك ونتندر بأطوارك الغريبة. هذا قدرك، وهذه هى رسالتك المقدسة، رسالة الشمعة التى تحترق لتبعث الضوء فى العقول وتبعث الدفء فى النفوس.

أنت..والموسيقى..والنفس

يثير لفظ النفس الكثير من التساؤلات وحب الاستطلاع فى الناس، حيث إن دراسة النفس البشرية أصبحت طبيعة العمل فى كل المجالات الثقافية والاجتماعية والسياسية. وقد كانت النفس حتى وقت قريب مجالا لتخصص رجال الحكمة والفلسفة، ورجال الدين، ثم علماء النفس، وأخيرا بدأت تخضع للدراسات الفسيولوجية المعقدة. وحتى نبسط الأمور يجب أن نعرف ماهية النفس: هل هى شيء غيبى أم مادي؟ هل هى من أسرار الكون ولا يصح الخوض فيها، أم يجب تقنينها وتصنيفها بغرض سعادة البشر؟

يجب هنا فى هذا المجال ألا نخلط بين الروح والنفس. فالروح من أمر الله ولا تخضع للقوانين العلمية، أما النفس فشيء مختلف تماما. النفس هى مجموعة من الوظائف العليا للجهاز العصبى المركزى، أى المخ. وأنا هنا لا أستعمل كلمة العقل، لأنه أيضا أحد الوظائف العليا للمخ. ودائما نعرف علم النفس بأنه علم سلوك الإنسان، وعادة ما يحتوى السلوك على عدة ظواهر من المعرفة إلى الوجدان إلى التفكير إلخ.

إذن فنفس الفرد موجودة بطريقة مادية فى الاتصالات العصبية المختلفة فى بعض المراكز الموجودة فى المخ ، وهى تحت تأثير مستمر كهربائى وكيميائي .

إذن فعند دراسة تأثير الموسيقى فى النفس البشرية ، فنحن ندرس تأثير أنواع من الذبذبات الصوتية على مكونات النفس ، ألا وهى السلوك والعاطفة والتفكير وهو موضوع شائك ومعقد . فهناك أدوات ابتدعتها الحياة فى وثباتها المتعاقبة وتطورها المتواصل لالتقاط وتحليل وفرز المواكب المتلاحقة المتداخلة من التموجات والذبذبات ، وهذه الموجات متفاوتة فى الطول والقصر ، فى السعة والسرعة ، وهذه الأدوات التى تلتقط هذه الموجات هى الحواس الظاهرة من لمس وذوق وشم وبصر وسمع ، غير أن هذه الآلات لا تتأثر بكل ما يتموج ويتذبذب ، بل لبعضه فقط .

والحيوانات بما فيها الإنسان متفاوتة من حيث تجهيزها بالأدوات الحاسة ، ويترتب على ذلك أن معرفتنا للعالم الخارجى معرفة محدودة نسبيا ، وأن عالم الحشرة التى تدب على الأرض ، وتسعى فى الظلام الحالك ، يختلف عن عالم الطير الذى يسبح فى الفضاء المضيء وأن عالم القلب الذى هو فى الصميم عالم شمسي ، يختلف عن العالم البصرى والسمعى الذى يحيا فيه الإنسان عندما يسمو بإنسانيته ، أى عالم النسب الهندسية ، والألوان المنسقة ، والأنغام المنسجمة ، التى يخلقها العقل الإنسانى ويعبر عنها بهذه الهمسات الخاطفة التى تحمل

ثناياها معانى الكون بأسره، أى أن إحساسنا وإدراكنا للمؤثرات الخارجية يعتمد على كفاءة أجهزة الحواس الخاصة، ودرجة استقبالها لهذه المؤثرات وليس على الواقع والحقيقة التى كثيرا ما تعجز الحواس عن التقاطها، ومن هنا يختلف عالم الحس بين الحيوان والإنسان.

والأذن البشرية أدق تحليلا وأنفذ تمييزا للكيفيات الصوتية من العين للكيفيات الضوئية، فليس فى إمكان العين تحليل اللون المركب إلى ألوانه البسيطة، فى حين تميز الأذن المدربة بين النغم الأساسى والأنغام التوافقية، ولهذا السبب لا تفوق لذة فنية ما تجلبه الأنغام الموسيقية للنفس من نعيم ومتعة.

وقد وضح للإنسان منذ قديم الأزل تأثير الموسيقى على النفس البشرية، فاستعملت الموسيقى منذ العصور القديمة فى الاحتفالات الدينية، وفى علاج الأمراض، والطبول فى الحماسة للحروب، والموسيقى الهادئة فى المعابد، والآلات النحاسية الصاخبة فى الرقصات العنيفة التى تنتهى بالنشوة والإغماء وإطلاق الأرواح الشريرة. ومازالت هذه الطرق تستعمل لعصرنا الحالى كما سيجيء بعد ذلك.

ويستعمل قرع الطبول البدائية مع تصفيق الأيادى فى الحفلات الجماعية، فى بعض القبائل لإثارة المجموعة ولعملية التفرغ العقلى والنفسي. يبدو أن إيقاع الطبول له تأثيره الخاص على النفس البشرية، لأنه لأول مرة فى التاريخ نجد أن شباب العالم تم اتفاقه على

نشوة ولذة موحدة، ألا وهي الموسيقى الحديثة الصاخبة التى يتمايل ويرقص ويستجيب لها الأوربي، والآسيوي، والإفريقي، والأمريكى بنفس الحماسة والشدة. بل قمت بتجربة ذلك فى مجموعة من الطلبة الريفيين وطلبة المدن، ووجدت أن التأثير موحد بغض النظر عن التشكيل الحضاري.

ولذا يتضح من ذلك أن هذه الموسيقى الحديثة تخاطب اللاشعور الجماعي والذى هو موروث غريزى وموحد للجنس البشري، إذ إن الإنسان له شعوره الخاص ولاشعوره الخاص، ولكنه يتميز باللاشعور الجماعي، الذى يؤمن بالأساطير والخرافات والأحلام، والذى تثيره هذه الموسيقى التى وحدت بين شباب العالم وجعلتهم يتغنون بنغم واحد.

والموسيقى لها تأثيرها المباشر على قشرة المخ وهى مركز الشخصية والوجدان والتفكير. ومن أهم الوسائل التى تؤدى الموسيقى فيها دورا إيجابيا فى النفس، قدرتها على تهدئة التغذية الاسترجاعية والأفعال المنعكسة الشرطية فى قشرة المخ مما يجعل الفرد عرضة للإيحاء، ومن هنا ينطلق فى أحلامه وتخيلاته ويفرغ مشكلاته فيحس بالراحة والسكون. واستعداد الفرد لاستماع الموسيقى يعتمد على حالته النفسية، فلا يمكن لمريض الاكتئاب الاستماع للموسيقى الصاخبة، وبالمثل لا يمكن لمريض الهوس أو الانبساط الاستماع للموسيقى الحزينة، أما مريض الفصام فأحيانا يزيد انطواؤه أو انعزاله إذا استمع

إلى نوعية موسيقى خاطئة ، ومريض القلق لا يصح له الاستماع إلى الموسيقى التى تزيد من تعثره وسرعة إثارته العصبية .

وفيما يختص بالعلاج الموسيقى فى الأمراض النفسية والعقلية ، فقد عاش أمحوتب أبو الطب فى بلادنا حوالى ٢٨٥٠ ق . م . وقد تحول معبده فى مدينة منف بعد ذلك إلى مدرسة للطب ومستشفى للعلاج ، حيث يعالج مرضى العقل بشكل من العلاج النفسى هو شبه إيحائي ، وأطلق عليه اسم النوم الحضانى أو المعبدى تحت تأثير الموسيقى الهادئة ، ثم أخذ الإغريق بعد قرون كثيرة عن قدماء المصريين ذلك الوضع وطبقوا طرقهم فى العلاج ثم أضافوا إليها بعد ذلك من عندهم . وفى عهد أبقراط جرت العادة على أن يتردد المصابون بالمرض العقلى على معبد معين حيث كانت القرابين تقدم وتقام الصلوات والابتهالات على أنغام الموسيقى .

وفى القرون الوسطى ترك علاج المرض النفسى والعقلى فى أوربا فى أيدى رجال الدين ، فشاعت المعتقدات الخرافية عن فاعلية السحر ، وغيره ، وتعرض المرضى للتعذيب والحرق .

وعلى خلاف هذا الذى كان يجرى فى أوربا ، كان فى بلادنا فى القرن الرابع عشر بيمارستان (أى مستشفى) قلاوون بحى النحاسين بالقاهرة ، وهى من أوائل مستشفيات الأمراض النفسية والعقلية فى العالم ، أركانه مكونة من أربعة أقسام : أحدها للجراحة ، والثانى لطب العيون ، والثالث للأمراض النفسية ، وكان المرضى يزودون

بالكساء والغذاء وشراب الورد مع الموسيقى المستمرة طوال فترة العلاج، أى أنهم اعتمدوا أساسا فى علاج المرضى على الموسيقى للتهدئة وللراحة النفسية .

وقبل الاستطراد فى تأثير الموسيقى على مرضى النفوس والعقول، يجب دراسة الموسيقى فى تأثيرها على النفس البشرية السليمة .

وإذا أخذنا بعض الأمثلة التاريخية فى كيفية إشعال الحماسة والعزيمة لاتضح على الفور أهمية هذا السلاح فى تغيير الاعتقادات . فعند هجوم النازى على لينينجراد فى الحرب العالمية الثانية ألف سرا شوستاكوفتش السيمفونية السابعة المشهورة وهربها إلى طهران، ثم القاهرة، ثم نيويورك حيث عزفت للمرة الأولى ونالت إقبالا شديدا، وبدأ عزفها فى كل الأماكن لدرجة أنها ساعدت الرأى العام فى مساندة الحكومة على اتخاذ قرار دخول الولايات المتحدة الحرب حليفة مع روسيا .

لا ننسى أيضا تحرش ألمانيا والنمسا وبريطانيا بحدود فرنسا بعد الثورة الفرنسية، وظهور «المارسيلييز» الذى جمع الشعب الفرنسى تحت لوائه واستغله نابليون في إثارة الكبرياء الوطنى الفرنسي . وكان «المارسيلييز» الموسيقى التى صاحبت كل غزواته على أوربا . وكذلك أثناء الهجوم الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ كان لتأثير بعض الأناشيد والموسيقى مثل (الله أكبر) (والله زمان يا سلاحي) رد فعل قوى لتعبئة كل الرأى العام حتى أنه تم اختيار النشيد الأخير كالسلام الجمهوري .

وإذا كنا ناقشنا التأثير الحماسي للموسيقى ، فلا ننسى تأثيرها في الوجدان ، وخير الأمثلة السيمفونية السادسة الحزينة (لتشايكوفسكي) ، والسيمفونية الثانية والكنشيرتو الثالث (لرحمانينوف) والذى ألفه في حالة من الاكتئاب والسواد الشديد وأهداه لطبيبه النفسى الذى كان يعالجه في هذه الفترة .

وقد استطاعت الموسيقى أن ترهف السمع وتطلق الخيال حتى في وصفها للطبيعة والريف ، مثل السيمفونية الريفية السادسة (لبيتهوفن) وهمسات الغابات من رباعية النيبلونج (لفاجنر) ، ومعظم سمفونيات «جوستاف ماهلر» ، لدرجة أن الموسيقى بدأت تصف الأشياء المجردة ، وكما قال «رتشارد ستراوس» إنه يستطيع التفرقة بين أنواع الجنة بواسطة الموسيقى . ولنا مثل في كرنفال الحيوانات (لصان صانز) ، ويجدر بالذكر هنا الشعور بالحنين للموطن وكيفية تأثير الموسيقى على هذا الوجدان مثل العالم الجديد (لدفوشك) ، وملتافيا (لسميتنا) ، وفنلنديا (لسبيليوس) ، بل إن فاجنر حاول وصف العلاقة الجنسية ونشوة الوصال الباهرة في أوبرا كريستيان وايزولدا .

وقد استخدم التأثير النفسى للموسيقى في حث الناس على الإقدام على سلوك معين ، فتعزف الآن في محطة واترلو بلندن موسيقى سريعة حماسية في ساعات الازدحام لحث الناس للإسراع في خطواتهم ، وفي مطارات أوربا تعزف الموسيقى الهادئة

لكي تهدئ من خوف وروع المسافر، ولتعطيه الصبر للانتظار. . . وهكذا.

أما بالنسبة لمرضى النفس والعقل، فقد استعملت الموسيقى منذ فترات بعيدة، وأقرب الأمثلة لذلك «الزار»، وهو من أكثر العلاجات البلدية شيوعا فى مصر من السودان من خلال الحبشة. ويعتمد احتفال الزار على قرع الطبول بشدة مع رقصات عنيفة يتخلص بعدها المريض من أعراضه النفسية. وقد أتيحت لى الفرصة فى عام ١٩٦٥ لدراسة مائة سيدة من المترددات على الزار، وكان حوالى ٦٣ ٪ منهن متزوجات، وغير سعيدات فى زواجهن لخيانة الزوج، أو لعدم الارتواء الجنسي، أو لعدم التوافق الزوجي. ولقد ندهش إذا علمنا أن ٢٨٪ قد أنهين دراستهن الثانوية، وبفحص هؤلاء السيدات وجد أن معظمهم يعانين من أمراض هستيرية واكتئابية وآلام عضوية فى الجسم سببها نفسي، تتحسن وقتيا بالزار، أى بالموسيقى العالية ولكن يجب التكرار والاستمرار، لأن العلاج هنا لا يهاجم السبب الكيميائى الأصلي، ولكنه يعتمد على الإيحاء المباشر.

كذلك إذا تأملنا «الذكر» نجده إلى حد ما شبيها بالزار ولكن له صبغة دينية ويدور فى حلقات أحيانا من الرجال، وأحيانا من النساء. والكلمة بالطبع مشتقة من ذكر الله، ويبتهل المشتركون بكلمات دينية فى أثناء قرع الطبول والرقص العنيف، يحس بعدها المشترك براحة نفسية كبيرة وارتواء وجدانى شديد.

وإذا حاولنا تفسير ظاهرة قرع الطبول وتأثيرها النفسي سواء في رقصات القبائل أو الزار أو الذكر لوجدنا المريض يكتسب إثارة وتهيجا في الجهاز العصبي من جراء قرع الطبول الصاخب، والذي يزداد في العلو لدرجة لا تتحملها الأذن البشرية، وهنا يصاب الجهاز العصبي بالإنهاك والتعب لدرجة الإغماء أو ما نسميه (بالكف الوقائي)، وذلك لحماية المخ من الضربات المتلاحقة. وهنا يكون المريض في حالة من الضعف والإعياء، فينسى أعراضه المرضية الحديثة، مما يجعل للموسيقى هذا الأثر القوى على المرضى، هو الإعداد الواعي للمريض، وتهيئته النفسية والاجتماعية، وهذا هو الأمل الوحيد لشفائه، كذلك الثقة التامة والإيمان الكامل بهذا العلاج قبل الإقدام عليه، وتأثير الجماعة واشتراك كثيرين من المرضى في العلاج في التأثير بعضهم على بعض، والإحساس بالمشاركة الوجدانية سواء في نفس الأعراض أو نفس المشكلات مما يجعل الاحتفال شبيها بما يسمى أخيرا العلاج النفسي الجماعي. يزيد على ذلك تأثير السيكودراما الموجودة في الاحتفال، والإيحاء بالكلمة والعمل في أثناء مرحلة تفكك الشخصية بعد الإغماء من تأثير قرع الطبول.

وفي أحد الإحصاءات الأخيرة التي قمنا بها في مستشفى جامعة عين شمس وجدنا أن حوالي ٦٠٪ من المرضى المترددين على عيادة الطب النفسي، قد مارسوا أحد العلاجات التقليدية قبل مجيئهم للعيادة النفسية، ومعظمهم من خلال قرع الطبول في الزار أو الذكر أو بعمل الأحجبة وإزالة العمل والسحر...

أما الوسائل الحديثة فى العلاج النفسى باستعمال الموسيقى فلا تعتمد على هذه الموسيقى الصاخبة المبنية على قرع الطبول، ولكن على العلاج النفسى والكيميائى والكهربائي. نحاول تأهيل المريض بالموسيقي، فالمريض النفسى لا ينام على السرير مثل باقى المرضى، بل إنه يتحرك وينفعل ويجب امتصاص طاقاته. فمثلا فى مريض الاكتئاب نبدأ بالموسيقى التى تتوافق مع مزاجه هادئة، سوداوية ثم نبدأ تدريجيا فى إعطائه الموسيقى التى ترفع من وجدانه وتعيده إلى حالته الطبيعية، لأنه إذا بدأنا بالموسيقى المرحة، فعادة ما يلفظها المكتئب وينفر من الاستماع إليها. أما مريض الهوس أو الانبساط فهو فى حالة حركة مستمرة، والشعور بالمرح والنشوة، فهنا يستمع إلى موسيقى مرحة تدريجيا تخفض من كيفيتها حتى يهدأ ويستطيع الاستماع إلى الموسيقى الهادئة.

أما مريض الفصام، فهو عرضة للانطواء والانعزال وأحلام اليقظة، ولذا يجب الاستماع للموسيقى تحت الإشراف الطبى حتى لا ينغمس فى تأملاته ويزيد من انطوائه.

وقد امتد استعماله للموسيقى فى العلاج النفسى فى الأطفال المتخلفين عقليا، فقد وجد أن جزءا كبيرا منهم لا يستجيب لأى شىء إلا للموسيقى، وبخاصة هؤلاء الذين يعانون من مرض المنغولية، وشغفهم بالموسيقى، ومحاولتهم المحاكاة يعطى لهم الإحساس بالإنجاز، الذى يكون له أثره البالغ فى سعادتهم وإعادة بعض الثقة إليهم.

ونستطيع أن نلخص ما سبق أن قلناه : إن للموسيقى تأثيرها النفسى والفسيولوجى على الجهاز العصبى تماما كتأثير الكلمة فى العلاج النفسي ، بل أحيانا يكون تأثير الموسيقى أقوى من الخطابات الحماسية ، والمقالات الوطنية . كذلك ثبت علميا أن للموسيقى أثرها فى تغيير بعض العادات المزاجية وذلك من خلال تأثيرها الكيميائى والفسيولوجى على بعض مراكز المخ ، إذ لا يجب تسميان الحقيقة الواقعة وهى أن الموسيقى شيء مادي ، فهى ذبذبات صوتية تصل إلى مراكز السمع فى المخ ، ثم مراكز الترابط والإدراك فى المخ حيث تؤثر على الدوائر الكهربائية والكيميائية .

وعندما نتكلم عن تأثير الموسيقى على الوظائف العليا للجهاز العصبي ، وقدرة الموسيقى على قشرة المخ ، نكون فى حالة من الاسترخاء والإيحاء للاستجابة للأفكار ومعتقدات معينة ، وكلنا نعى معارضة بعض الأفكار والمجادلات الساخنة ، وكيفية تغير الفرد بعد الاستماع إلى الموسيقى وقبوله ما كان يعارضه من قبل .

ونختتم المقال بتأكيد أن الموسيقى من أروع المخترعات الإنسانية للتأثير فى النفس البشرية سواء فى الحالة السوية أو المرضية . وجدير بنا أن نعلم أطفالنا كيف يستمعون للموسيقى ، ويستجيبون لها حتى نعزز فيهم التذوق الجمالى ونعيد إليهم روح السكينة والأمان والحب بدلا من أفلام العنف والحرب والحقد ، لأنهم من غمرة ازدحام المواد فى المدارس ينسون جزءا مهما من حياتهم ألا وهو النفس التى ترقى فى زهد وشفافية تحت تأثير الموسيقى .

تاريخ الموسيقى فى العلاج

تعد الموسيقى أحد العوامل المساعدة فى تحقيق التفاهم والتقارب بين الإنسـان ومـا حـوله ، بل هـو أشـد أثرا مما يمكن أن تؤديه الكلمـات أو الإشارات . فقـد استخدم الإنسان القديم صوته وتحكم فى نبرته قوة وضعفا ، ثم استعان بما حوله من حجارة أو أخشاب أو نباتات أو غيرها ، كى يولد منها أصواتا محاكية أو مغايرة أو مضخمة لصوته ، مستخدما فى ذلك الطرق والدق والصفق والاهتزاز والنفخ والاحتكاك وغيرها ، سواء كانت تلك الأدوات منفردة أو مجتمعة . كما استخدم يديه وسيلة للاتصال ، ونقل الرسائل وإصدار التعليمات .

وتعريف الصوت هو أنه أشعة لها طول موجة معينة ، أى امتداد لاستخدام الذبذبات .

وقد حاول الإنسان البدائى أن يجعل من الموسيقى فنا ذا أصول وقواعد وتقاليد ، له أسراره وتقنينه ، غير أنها اندثرت بسبب عدم تدوينها وتسجيلها . (وقد ابتكر التدوين الحديث للموسيقى خلال القرن ١٤ م) . وبفحص نقوش المعابد المصرية القديمة وجدران المقابر ، أمكن تحديد حركات الراقصين بأيديهم وسيقانهم فى مختلف

المناسبات، والاستدلال من حركات الشفاه وعضلات العنق المتوترة على تخيل الموسيقى المصاحبة لها عند قدماء المصريين.

ويرجح بعض المؤرخين الموسيقيين أن الموسيقى المصرية القديمة كانت هادئة رصينة داخل المعابد، تنطوى على قدر كبير من الجلال والقداسة، في حين كانت موسيقاهم داخل المنازل والقصور وفى أثناء حفلات السمر والترفيه صاخبة وسريعة.

وقد ارتبطت الموسيقى بالعقيدة الدينية عند المصريين القدماء بدرجة كبيرة، حيث جعلوا من معبودهم أوزوريس إلها للموسيقى له فرقة موسيقية تضم أمهر العازفات والمغنيات..

وقد اقتبس الإغريق القدماء هذا النظام، وأطلقوا على أعضاء هذه الفرقة اسم «الموساي» أو ربات الفنون، ومنهما انبعثت كلمة الموسيقى..

كما جعلوا من حورس بن أوزوريس إلها للتناغم والنظام، وراعيا للموسيقى ومشرفا على العزف بالآلات، في حين عدوا الإله مانير مخترعا للموسيقى وحامى فنونها..

وبذلك ربطوا بين أعظم آلهتهم والموسيقى، وهذا دليل على حبهم وإجلالهم لهذا الفن، مما ساعد على تقدم الموسيقى بدرجة كبيرة، كفن وعلم وصناعة وأسلوب للحياة والشفاء من الأمراض.. وقد استخدم الصوت عنصرا مساعدا على شفاء الأمراض العقلية فكانت الأوتار تعزف والإيقاعات تدق إلى جوار المرضى.

وكان لكهنة المعابد المصرية فضل كبير فى تقدم الموسيقى، وقد حرموا على غيرهم مزاولتها، وحددوا للموسيقى مواقيت معينة. فهناك أوقات للموسيقى وللأغنيات المرحة الخفيفة، وأخرى للموسيقى الجادة الهادئة الوقورة، وغيرها لمصاحبة العمل فتحث على الجد والنشاط. ومنها ما يخفف من الإحساس بالمشقة والتعب. وكانت ثمة موسيقى تتميز برخاوتها ولينها، فتجلب الخمول والنعاس.

كذلك استخدمت الموسيقى بينهم لتهدئة الأعصاب المتوترة، وإضفاء السعادة والحبور والبهجة للقضاء على الرتابة اليومية، مثلما استخدمت لتنشيط المرء فى أثناء العمل وخاصة إذا اقتربت مع الإنشاد الجماعى والتراتيل الدينية إلى أن استخدمت فيما بعد لعلاج الأمراض النفسية والعصبية..

فالموسيقى معروفة منذ أزمان بعيدة بأنها لغة العواطف الجياشة والانفعالات والحماسة، حيث تغير من أحاسيس الإنسان تبعا لنوع الأنغام، سواء كانت هادئة أو صاخبة أو مرحة أو حزينة، أو تلك التى تدفع إلى الاستكانة والهدوء والتأمل، أو تبث فيه الحماسة والاندفاع والجرأة قبل خوض المعارك أو الاشتراك فى الثورات.

وقد اكتشف العالم البريطانى إمرى عام ١٩٧٢ بجانب سقارة المعبد الحضاني، الذى بناه أمحتب فى عهد الملك زوسر. ويُعَدّ هذا

المعبد أول معمار للمستشفى، حيث يتكون من ممر طويل وعلى جانبيه الغرف التي يتم فيها علاج المرضى. وكان العلاج في هذا الوقت يتم من خلال تفسير الأحلام حسب الاعتقادات السائدة، والموسيقى، وبعض الأعشاب أو النباتات التي يظن البعض أنها من مشتقات نبات الخشخاش (الأفيون).

العلاج بالموسيقى

تساعد بعض أنواع الموسيقى على تخفيف الأحزان التى تنتاب الإنسان وقد تقضى عليها وترفع من روحه المعنوية.

وقد أفاض الدكتور/ سمير الجمال فى علاج الأمراض بالموسيقى فى إحدى مقالاته فى ذكر أن الرقص والغناء على إيقاع دق الطبول الخشبية أو الجلدية، أو النفخ فى الآلات النحاسية أو الهوائية عند الإنسان البدائى، مفيد لعلاج مس الجسد الإنسانى بالأرواح الشريرة أو الجان حيث كانت تسبب له أمراضًا خفية، ولم يجد لها سببا أو علاجا، وغالبا ما كان هذا الرقص والغناء على أنغام الموسيقى يدفع المريض إلى الدخول فى حالة من الهذيان والترنح وانعدام الحس، يرتمى بعدها على الأرض مغشيا عليه، ثم يفيق بعدها معافى.. وهذا أصل الزار فى مصر وبعض الدول الإفريقية والذى يمارس للآن..

وقد قمت ببحث مستفيض حول مائة سيدة من المترددات على الزار ووجدت أن غالبيتهن يعانين من اضطرابات نفسية، وأن الموسيقى والرقص قد يخففان من الأعراض ولكنهما لا تشفيان المرض.

وعلى حين كانت الألحان من موسيقى وغناء فى بيوت المترفين فى مصر القديمة زخرفا للحياة الناعمة ، كانت عونا على الحياة الجادة عند الطبقات الوسطى والفقيرة ، وكان الناى والمزمار - بحكم ما كان ينبت فى مناقع مصر من البوص والغاب - أقدم الآلات الموسيقية المصرية وأبسطها . .

وقد تغلغلت الموسيقى فى كل مرافق الحياة فى مصر القديمة ، فإذا هى تدخل محاريب العبادة وأحفال الجنازات والأفراح والحفلات . . وعرف الكثير من الآلات الوترية مثل الجنك (الهارب) والعود والربابة والطنبور ، خاصة فى عهد الدولة الحديثة ، فضلا عن الصلاصل «الأجراس» والطبول والدفوف وأبواق الحرب وغيرها . وقام بالعزف على مختلف هذه الآلات الرجال والنساء ، سواء فرادى أو جماعات يصاحبها الرقص والغناء مع ضبط الإيقاع بالطبول أو بالصلاصل ، أو بفرقعة الأصابع ، أو بالتصفيق بواسطة الأيدي ، أو باستخدام أيد مصنوعة من الخشب أو العاج .

وكان من بين المصريين من يحترف الموسيقى والغناء وسيلة يتكسب منها كثيرون من المكفوفين لعيشهم كما كانت هواية للمترفين يعشقونها لذاتها ، على نحو ما نشاهد فى نقوش مقبرة النبيل «مروركا» فى سقارة ، حيث صورت زوجته وهى تطربه بعزفها على الجنك . . كذلك آمن المصريون القدماء بأثر الموسيقى فى تهذيب المشاعر وترقية الإحساس ، ومع ذلك فإنهم لم يسجلوا أيا من ألحانهم

أو أنغامهم على آثارهم أو فى بردياتهم، إما لأنهم لم يهتدوا إلى طريقة تدوينها وكتابتها، وإما لأنهم كتبوها بطريقة سرية عجز المؤرخون عن تفسيرها، حيث دأب الكهنة على كتمان الكثير من علومهم عن بقية الشعب يلقنونها لأبنائهم فحسب.. ويغلب على الظن أن الكنيسة القبطية لا تزال تحتفظ بالكثير من ألحان قدماء المصريين فى تراتيلها وقداستها.

وقد عرفت مناظر الرقص فى مصر القديمة منذ عصر حضارة نقادة، وذلك قبل عهود الأسرات، حيث عثر على رسوم وتماثيل لرجال ونساء يرقصون.. ولم يلبث الرقص على أنغام الموسيقى من ناى وطبول أن تغلغل فى حياة المصريين على مدى تاريخهم القديم، وعرفوا منه أشكالا وأنماطا كثيرة، وذلك بفضل رعاية الدين، الذى كان الرقص أحد أركانه المهمة ومن خصائص شعائره.. فلا تكاد مناسك الدين فى رحاب المعابد تخلو من منظر من مناظر الرقص الذى يؤديه الرجال والنساء، فضلا عن الملوك الذين كانوا يمثلون أو يعبرون عن بعض أحداث الماضى البعيد.. فكانت رقصة الملك - وهو يمسك المجداف والمنديل أو بآنيتين عند تقديم القرابين - من أهم الرقصات الدينية.

كذلك كان من أهم الرقصات الجنائزية رقصة «المرو» حيث كان الراقصون يمثلون أسلاف الملك المتوفى من ملوك «بوتو» وهى مقاطعة كانت مزدهرة قبل توحيد مصر وقبل عهد الأسرات وهم يستقبلونه

فى عالمه الجديد بالجبانة ، بمختلف أنواع الآلات الموسيقية والعازفين عليها . . كذلك ما كان يجرى فى الأعياد من رقص الراقصات لروح المتوفى لإدخال السرور عليها وذلك على أنغام الموسيقى الصاخبة .

كما كان الملوك المصريون القدماء من أشد الناس حبا للرقص والموسيقى فكانوا يعينون الكثير من المغنيات والراقصات والموسيقيين فى القصر الملكي ، ويمنحونهم الهبات السخية ، وكانوا مغرمين برقص الأقزام السود . . ويبدو ذلك جليا فى حالة الإله «بس» رب المرح والرقص ، خلال عصر الدولة الوسطى ، والذى يصور على هيئة قزم راقص ، ويقرع الدف أو يعزف على الطنبور .

أما فى الدول الحديثة ، فقد امتازت الحياة المصرية خلالها - بحكم ما ظفرت به من ثراء كبير ورخاء عريض - بشيوع الحفلات والمآدب ، التى لا يكتمل السرور فيها فى أثناء تناول الطعام والشراب إلا على أنغام الناى والجنك ، وضبط الإيقاع بالتصفيق أو بالصنوج فضلا عن الموسيقيات اللاتى يرقصن ويغنين ويعزفن فى آن واحد شبه عاريات . . ويُعَدّ رقصهن هو أصل الرقص الشرقى الحديث بكل حركاته وليس كما يشاع من أنه منقول عن الرقص التركي ، بل على العكس فقد نقلت جميع شعوب آسيا كل خطوات الرقص المصرى القديم وحركاته حرفيا .

وكانت المعابد منذ أقدم العصور المصرية القديمة زاخرة بكثيرين من قارعى الدفوف والعازفين على مختلف الآلات الموسيقية ، كجزء

لا يتجزأ من المراسم الدينية ، والتى كانت تقام بمناسبة الاحتفال بعيد الإله الخاص به . . كما كانت الموسيقى تجلجل أصداؤها مصاحبة للغناء بواسطة فريق من الرجال والنساء المعينين بالمعبد بصفة دائمة وذلك لأداء مراسم الاحتفالات بمختلف الأعياد الرسمية فى مصر ، مثل الدعاء للملك عند خروجه للحرب ، أو عند رجوعه سالما منتصرا ، أو عند توليه العرش أو عند احتفاله بالعيد الثلاثينى لحكمه أو عند وفاته .

وكان المعبد يطلق عليه فى اللغة المصرية القديمة اسم «بيت الإله» ، ويعد أقدم معبد ذلك الذى أقيم فى مصر فى مدينة أنو (أونو أو هليوبيس . . المطرية حاليا شمالى القاهرة) . كما اشتهر معبد الملك زوسر الجنائزى فى سقارة (جبانة مدينة منف عاصمة القاهرة الموحدة منذ الأسرة الأولى ، وتقع حاليا مكانها بلدة ميت رهينة مركز البدرشين بالجيزة) .

وكانت منف تزخر بالكثير من المعابد ودور الحكومة والقصور ومنازل النبلاء وعامة الشعب . . وكانت معابد المدينة تختص بعبادة مختلف المعبودات ، مثل الإله بتاح أو سوكر أو رع أو غيرهم . . وكان بكل معبد فريق من الفتيات اللاتى يتبعن سلك الكاهنات منذ عهد الدولة القديمة ، وكانت وظيفتهن الرقص والعزف على الآلات الموسيقية المختلفة المصاحبة للتراتيم داخل المعبد فى أثناء الصلاة للإله المعبود ، كما كان فناء المعبد يشهد جمعا من الفتيات يعزفن على الناى والمزمار والدفوف .

ومن أهم معابد منف، كان هناك معبد صغير ملحق بمعبد الإله رع، ويرجع بناؤه إلى عام ٢٢٨٠ ق.م. (الأسرة السادسة) وكان مخصصا لعلاج المرضى الذين يعانون من بعض الأمراض النفسية والعصبية، وذلك عن طريق استخدام فرق تعزف بعض الأنغام الموسيقية الهادئة، مع الاستعانة ببعض الأعشاب المهدئة للأعصاب.

كذلك اشتهر في مصر العليا معبد كبير للعلاج الطبي والاستشفاء هو معبد أبيدوس، حيث كان الكهنة يعالجون من يلتمس عندهم الشفاء بالصلاة المرتلة على أنغام الموسيقى من دفوف وصاجات وأراغيل ونايات وغيرها لإرضاء الآلهة، فإذا هي تسبغ نعمة الشفاء على المرضى، ولذلك فقد خصص هذا المعبد فرقة موسيقية للمعبد والمستشفى التابع له، مكونة من كهنة وكاهنات ينشدون ويغنون، بالإضافة إلى بعض الراقصات اللاتي كن يتمايلن على أنغام الموسيقى، ويقوم المرضى بمحاكاتهم في حركاتهم، كل حسب استطاعته، في حين كان المرضى المقعدون تعزف الموسيقى بجانب أسرتهم كل حسب نوع مرضه، وبأنغام خاصة.

وقد نقل اليهود الكثير من أناشيد أخناتون الدينية، وخاصة في مزامير النبي داود التي كانوا يرتلونها، فتفعل المعجزات، وتخفف من آلالام المرضى، فقد كانت هناك فرق خاصة من المنشدين على القيثارة، يزورون المرضى في منازلهم ويرتلون هذه المزامير.. وتذكر التوراة أن النبي داود كان يعزف على القيثارة وهو يرتل مزاميره التي تحوى ابتهالات إلى الله الخالق لكي يخفف من آلام الملك شاءول.

أما فى بلاد اليونان القديمة، فقد قام أهلها بنقل جميع الألحان والموسيقى وآلاتها من مصر القديمة، وأدمجوها فى أنغامهم الرعوية البدائية واستخدموها فى علاج أمراضهم على نهج طريقة الفراعنة.

وتذكر الأساطير اليونانية أن أحد أبطالهم قد شفى من جروحه الدامية عن طريق الغناء على أنغام الموسيقى، اعتقادا منهم بأنها تحوى قدرات سحرية لشفاء الأمراض.

وذكر عالم الرياضيات الإغريقية الشهير «فيثاغورث» (القرن ٦ ق. م) بأن فى إمكان الموسيقى أن تشفى الأمراض العقلية مثل الجنون، وتسبغ الصحة على المرضى، وذلك عند استخدامها بطريقة صحيحة.. كما كتب الطبيب اليونانى الشهير «أبقراط» (القرن الخامس ق. م) فى أحد مؤلفاته الطبية بأن كل مريض يحتاج إلى نوع معين من الموسيقى لعلاج حالته الخاصة، ومن هنا ينبغى اختيار نوعية الموسيقى بدقة ومهارة، حتى لا يترتب عليها تفاقم حالته المرضية.

أيضا ذكر الفيلسوف الإغريقى «أفلاطون» (القرن الخامس ق. م) فى كتابه الشهير الجمهورية بأن الاستماع إلى الموسيقى والغناء والتمرينات الرياضية مثل ألعاب القوى، لها قوة علاجية كبيرة لشفاء الأمراض، حيث تكسب العقل والجسم كامل الصحة، كما أن الموسيقى هى أداة لشفاء الأمراض، خاصة إذا صاحبها الغناء. فاللحن والترنيم المناسبان يجدان طريقهما إلى داخل النفس البشرية،

خاصة إذا حاكت الأصوات الإنسانية فترفع معنويات المريض فإذا هو ينال الشفاء .

كذلك ذكر الفيلسوف الإغريقى «أمبيذوكليس» (القرن الخامس ق . م) بأنه كان يعالج مرضى الصرع بالعزف لهم على آلة اللير . . كما أشار الفيلسوف الإغريقى الشهير «أرسطو» (القرن ٤ ق . م) باستخدام الموسيقى لأن لها فوائد علاجية كبيرة للمرضى .

كما أوصى العالم الإغريقى «كاسيود وروس» باستخدام الموسيقى المرحة للتغلب على الأحزان لأنها تسرى عن المرضى وتريحهم نفسيا ، وتخفف من انفعالات الغضب والقسوة والكراهية . . أما فى القرن الثانى ق . م فقد كتب العالم الإغريقى «أثيناوس جراماتيكوس» يقول بأنه يمكن عزف مزامير داود فى المقام الفريجى بجوار الأماكن المصابة بعرق النسا فى الجسم فيزول الألم ، فى حين وصف العالم الرومانى الشهير والطبيب البارع «جالينوس» فى القرن الثانى الميلادى الموسيقى علاجا وترياقا ضد سموم العقارب والأفاعي .

كذلك كانت شعوب دول الشرق البعيدة مثل الهند والصين تولى الموسيقى اهتماما كبيرا ، وربطوها بحياتهم وطقوسهم الدينية حتى أصبحت متلازمة مع غنائهم الديني . وكان الفيلسوف الحكيم الصينى الشهير «كنفوشيوس» (القرن ٦ ق . م) يحب الموسيقى ويعشقها ويؤكد أنها تحقق الانسجام بين الإنسان والكون من حوله .

أما الهنود فقد كانوا يسمون الموسيقى «سحر الأغنية» (ماذراستا)

وما زال الغجر فى أوربا يستخدمون الموسيقى للدلالة على الخير والشر، إذ إن بعضها يمكن أن يثير الأعصاب أو يسبب الجنون.

وبحلول المسيحية فى أرض مصر وبزوغ العصر القبطى بها، زاد ترتيل مزامير داود فى الكنائس لشفاء جميع الأمراض النفسية والعصبية ومعظم الأمراض البدنية. واشتهر خلال القرن الثالث الميلادى فى مصر القديس «أبو طربو» الذى كان يرتل المزامير وأجزاء كثيرة من الكتاب المقدس مستعينا بالموسيقى، وذلك بجوار المرضى بالصرع، فيتم شفاؤهم، ولذلك سميت هذه الصلاة باسم «أبو طربو»، وعرفت طريقة ترتيل المزامير للمرضى داخل الكنائس والأديرة باسم «العلاج المقدس». كذلك انتشرت زيارة المرضى لبعض الكنائس والأديرة فى مواقيت محددة سنوية فيما عرف باسم «الموالد القبطية» حيث كان يتم خلالها الصلاة والترتيل بمصاحبة الموسيقى لشفاء المرضى، كما أن زيارة الموالد الخاصة بالأولياء المسلمين الصالحين والاندماج بالتمايل فى حلقات الذكر تشفى الكثير من الأمراض النفسية والعضوية المستعصية.

وفى العصر الحديث، أجريت فى الكثير من مراكز البحوث فى دول العالم، تجارب كثيرة لبيان تأثير الموسيقى فى علاج بعض الأمراض، فاستخدمت الموسيقى الهادئة لعلاج بعض الأمراض العصبية مثل الهستيريا والتهيج، كما خفضت ضغط الدم العالي، وحسنت أداء القلب خاصة فى حالة الإصابة بالذبحة الصدرية،

وكذلك ساعدت على جلب النعاس والنوم لمرضى الأرق، فى حين استخدمت الموسيقى السريعة والصاخبة لعلاج ضغط الدم المنخفض والاكتئاب النفسي.

وأحد أسباب الإقبال على ارتياد الكنائس هو استخدامها للموسيقى الدينية عزفا على آلة الأرغن، حيث تعمل الأنغام الصادرة عنها على جعل المستمعين مستغرقين فى شبه غيبوبة روحية يزول بعدها الإرهاق عنهم ويحل النشاط فى أجسادهم ونفسيتهم.

وقد أجرى العلماء بعض التجارب على النباتات، فوجدوا أن بعض الموسيقى التى تعزف بجوارها تعين على الإسراع بنموها، كما لوحظ أن بعض الأسماك تستجيب للموسيقى بشكل مذهل حيث يدور كل اثنين فى توافق مدهش حول جهاز راديو تحت الماء يذيع لحن الفالس.

فالمهم فى الأغانى هو الموسيقى والنغمة التى تساعد على شفاء المرضى، فكما أن لكل شعب لغته وكيفية نطقها، فإن لكل مريض نغمة معينة يمكنها شفاؤه بها، فالموسيقى الشرقية القديمة تعطى بعض المرضى راحة عقلية وبهجة داخلية.. ويمكن لبعض الألحان البسيطة أن تدخل البهجة لبعض حالات التخلف العقلى عند الأطفال والخوف من الغرباء، حيث تؤثر فى سلوك العقل، وتلين من تصلب عضلات الساقين والذراعين وتصحيح النطق بما تسببه من استرخاء فى العضلات.

التغلب على المشكلات الجنسية بالعلاج الموسيقى

يستخدم العلاج عن طريق الموسيقى فى فروع مختلفة من الطب، ليس فى زماننا فحسب بل منذ العصور الفرعونية القديمة على نحو ما كانت تستخدم فى المعبد الحضانى بسقارة أيام أمنحتب، وكذا فى مدارس دلفى وجزيرة كوس فى اليونان حيث لجئوا إلى استعمال الموسيقى المهدئة للألم. وقديما وصف الفيلسوف كاسيودوروس الموسيقى بأنها «ملكة الحواس»، وضرب مثلا لسحرها فى علاج الأمراض باستخدام النبى داود لها فى طرد قوى الشر من جسد شاءول. ومن رواد استعمال الموسيقى فى الطب النفسى المعاصر لانج لودك الألماني، وجوست فى فرنسا، كما تستخدم الآن فى عيادات العظام والروماتيزم وطب نفس الشيخوخة والأطفال كإحدى الوسائل المهمة فى العلاج، بل تستعمل الآن قبيل وفى أثناء العمليات الجراحية وبعدها حيث ثبت أنها تنظم دورة التنفس والدورة الدموية ومجرى الدم فى المخ. إن قدرة الموسيقى على تخفيف القلق وفك قيود الإحباط أمر بات معروفا فى العلاجات التقليدية والشعبية سواء الرقصات العنيفة أو الإفريقية بل والزار فى مصر. وفى حالة تدريبات

الباليه الحديثة تؤثر الموسيقى فى السلوك القهرى غير المرن، كما تخفف من جمود الشخصية.

ويعتمد المدخل الموسيقى فى علاج المشكلات الجنسية على الأساس الأنثروبولوجى فى إفريقيا والباسيفيك، فهم يرقصون ويغنون للمبادرة فى الإخصاب، وكذلك تدق الموسيقى فى تصاعد للتنبيه السيكوفسيولوجى لحد النشوة.

وإذا تأملنا مقطوعة «بوليرو» للموسيقار «رافيل» نلمس على التوالى الثبات والتكرار والتصاعد والتخافت وكأنه يدق على ناقوس الجنس.

وإذا عددنا الميلودية[1] وسيلة من وسائل التنبيه الجسدى والنفسى والتغلب على الأفكار القهرية، التى تتسلط على الفرد فى أثناء ممارسة الجنس بوصفها تؤدى إلى الاسترخاء والبعد عن التوتر وتآزر النفس، فلكل فرد بطبيعة الحال الميلودية التى تتفق مع ميوله واستعداده ومزاجه.

والعامل الأساسى الذى يسبب الفشل الجنسى هو الخوف من الفشل فى ممارسته، ولعل مداومة التأمل الذاتى هى المظلة التى تحول دون أى اتصال مع الطرف الآخر، ذلك أن الجانب العاطفى فى

---

(١) الميلودية أو اللحن هو الخط اللحني أو نغم العزف أو الغناء سواء أكان وحده أم مصحوبا بأنغام هارمونية، وعناصر الموسيقى الثلاثة هي اللحن والإيقاع والهارمونية.

العلاقة المتبادلة هو الأساس الذى يقوم عليه إشباع الرغبات العامة ، فإذا فشل الفرد فى إثارة الجانب العاطفى وأصبح تركيزه موجها إلى الضغط على الأعضاء التناسلية ، أصيب المرء بفراغ نفسى مدمر . وهنا يمكن أن تؤدى الموسيقى دورا إيجابيا فى العلاج السلوكى لملء هذا الفراغ ، بشرط أن تكون مناسبة حيث إنها وسيلة الاتصال الوحيدة بعد توقف الاتصال اللفظى والإثارى بين الطرفين .

والإنسان بطبعه حساس للموسيقى ، فهى قادرة على الارتفاع بمزاجه أو الهبوط به ، تهدئ أو تثير . ولقد حاول الباحث جرافيل عمل قائمة بالمقطوعات الموسيقية التى تلائم كل شخصية من حيث مستوى التعليم والمشكلات الخاصة التى تواجه المرء من الناحية الجنسية .

ولا يهم إن كان الطرفان يتذوقان الموسيقى الكلاسيك أو الجاز ، أو الأوبرا أو موسيقى الروك . فإذا ادعى أحدهما أنه لا يستوعب هذه الموسيقى أو تلك ، فثمة وسيلة لإرضائه بموسيقى تثيره وتريحه ، وتدعوه للاسترخاء ، مثل تنويعات الجاز لموسيقى باخ وموزارت .

ومن هنا يقتضى الأمر قبول الطرفين للموسيقى ولتأثير ميلوديتها في الوقت المناسب على الأساس التالي :

الهدوء ـ الجدية ـ السهولة ـ الرقة ـ التخيل ـ الأفكار الشبقية ـ الدعة ـ الإثارة ـ الذبذبة ـ العدوان ـ النشوة ـ الإرهاق . ويمكن فى هذا المجال استخدام مقطوعات التصدير الموسيقى «بريلود» لباخ أو رافيل ، أو موسيقى بنك فلويد وجلبرت بيكود ولويس آرمسترونج وجورج

براستر وكذلك موسيقى تريستان وايوزلدا لفاجنر أو فينوسبرج فى أوبراه تانهوزر.

والغرض الأساسى من الموسيقى فى أثناء الجماع هو تجنب معاناة طلبات العملية التكنيكية من ناحية الرجل، والتى تشتت انتباهه وتبعده عن العوامل الانفعالية، وتجعله جامدا صلبا فى إصراره وتحول دون الخوف من الفشل، ونفس الموقف مع المرأة. فالهدف هو إنجاز لون من التوافق الثنائى يتجاوز العملية الجنسية فضلا عن حوار خال من الألفاظ يدور بين المهجتين يتولى قيادتهما الاستماع للموسيقي، الأمر الذى يساعد الطرفين اللذين يجدان صعوبة فى التفاهم اللفظى والتعبير عن عواطفهما من خلال الكلمة. وللحيلولة دون سرعة القذف يستحسن استعمال موسيقى تتميز بسرعة الإيقاع أو التى تنطوى على أصوات غير متوقعة.

وإذا وجدنا صعوبة فى اللقاء الجنسى فى أثناء الاستماع للموسيقى فيحتمل أن يكون أحد الطرفين قد استخدم لفظا غير متوافق أعنى هادم للهرمونية[1] لإسقاط أخطاء على الطرف الآخر أو للانتقام منه. وفى حالة المرأة التى بلغت نشوتها وتخشى ألا تبلغها ثانية يتغلب القلق على اللذة، غير أنه يمكن إعادة انفعالها بالاستماع إلى موسيقى تعينها على الحصول على الكفاية العاطفية.

ويبدأ العلاج بمناقشة الاضطراب الجنسى (العنة، سرعة القذف،

---

(١) الهارمونيه هي تآلف الأصوات رأسيا بحيث تسمع كلها في طرقة واحدة.

التقلص المهبلي) فيختار الطبيب الموسيقى المناسبة لكل من هذه الأنواع وفق درجة استجابة الفرد لها أو كيفية استعمالها والسلوك المطلوب منهما ثم يأتيان للمعالج لمناقشة ما حدث. حيث يتم توجيههما بالطريقة السليمة. وبالطبع يتوقف النجاح على استجابة الطرفين ومدى رغبتهما في العلاج وثقتهما في المعالج. وبالاستماع إلى الطرفين سيتحدد إذا كان يمكن الوصول إلى الاسترخاء بالموسيقى فقط أو سيحتاجان لمكبرات توضع في الحجرة أو توصل للحجرة من الخارج. وإذا فشل العلاج فلا مانع من استعمال إضافات نفسية أو سلوكية أو دوائية مع الاستمرار في الموسيقى كعنصر أساسي في مواصلة العلاج.

وتؤثر الموسيقى على اللقاء الجنسي على مستويين:

١ - من الناحية الانفعالية: فهي تعيد الاستجابة والتنبه المضطربين من جراء الخوف من الفشل أو التأمل الذاتي العميق أو على الأقل تملأ فراغ الاتصال الفكري واللفظي.

٢ - من الناحية الفسيولوجية: تساعد الموسيقى على التحكم في الاستجابات الجسدية وتجعل إطفاء الارتباطات الشرطية المرضية ناجحة مع بناء ارتباطات سلوكية صحية. ولنجاح العلاج بالموسيقى ينبغي أن يجمع عامل الحب بين الطرفين وكذا الرغبة في الاستمرار والتغلب على المشكلات الموجودة.

ومن هنا يمكن علاج الاضطرابات الجنسية إذا توافرت الشفقة وتوزعت المسئولية بين الطرفين، وحسن الإرشاد من قبل المعالج من حيث اختيار الموسيقى ومواءمتها لنفسية المريض وتجربته الجنسية وتعريف الزوج أو الزوجة بالطرق السوية الإجرائية فى أثناء الاستماع إلى الموسيقى المختارة وفق مزاج كل فرد وميوله .

- الإيقاع[1] السريع الموسيقى الذى يضاعف درجة التوتر .
- الموسيقى الرومانسية البطيئة التى تهبط بدرجة التوتر .
- مقطوعات موسيقية تثير الذكريات والمشاعر الإيجابية .
- النغم وليس الأغنية فى المساء .

وللأسف لم أورد هنا أمثلة من الموسيقى العربية لأننى لم أجد حسب تذوقى الخاص ما يفيد فى مثل هذه الحالات، ولكننى أترك الباب مفتوحا لمن هم أقدر منى فى إيجاد الموسيقى العربية التى تواكب هذه الظواهر .

موسيقى الاسترخاء

فاجنر	نجم المساء
زامفير	الفلوت الرومانسي
ديبوسى	ضوء القمر كلير دى لون

(١) الإيقاع في الموسيقى هو تقسيم الزمن بنقرات تتوالى فتحدد شكل النغم .

رافل	مرثية للأميرة المتوفاة
بروخ	الفانتازيا الإسكتلندية
فيفالدى	كونشيرتو الأوبوا

موسيقى لاعتدال المزاج

ديليب	كوبليا
بيتهوفن	كونشيرتو البيانو الخامس
دفورجاك	السيمفونية الثامنة «الرقصات السلافية»
موتسارت	سيمفونية ٣٥
هاندل	موسيقى المياه
مندلسون	السيمفونية الرابعة
هاندل	كورس المسيح وإسرائيل فى مصر

موسيقى لإزالة التوتر

بيتهوفن	السيمفونية السادسة
موتسارت	كونشيرتو للفلوت والهارب
فيفا لدى	المواسم الأربعة
جريج	سويت هولبرج

موسيقى للنوم

شوبرت	حياك الله يا مريم (أفى ماريا)
ماسانيه	مقطوعة التأمل من أوبرا تاييس
برامز	أغنية المهد (لولاباي)
شومان	الأحلام
روت	أنت المحيط

موسيقى النقاء والوضوح

هاندل	موسيقى المياه
فيبر	افتتاحية أوبيرون
باخ	كونشيرتو براندنبرج
فيفالدى	موسيقى الباروك للوتريات
ألبينوني	
كوريللى	
توريللي	
تليمان	

الأدب.. والطب النفسي

هذا الفصل هو ملخص حوار دار بين السيدة/ سلمى قاسم جودة وبيني، ونشر في مجلة آخر ساعة.

إذا كانت مهمة الأديب هو أن يحدث الناس عن الناس كما يقول تولستوي، فإن مهمة الطبيب النفسي أن يعرف ما يدور في أعماق الإنسان ليعيد إليه توازنه مع نفسه أو تصالحه معها إن صح التعبير.

وبعض علماء النفس كانوا يرون فيما كتبه ديستويفسكي ما مهد الطريق أمام علماء النفس لمعرفة ما يدور في داخل النفس الإنسانية من دوافع ورغبات.

وثمة علاقة وثيقة بين الطب النفسي والأدب. فالأدب يسبق الطب، إذ إن الطب النفسي كان لعهد قريب ليس مسئولية الطب ولكن مسئولية الحكماء والفلاسفة ورجال الدين. ولذا نستطيع أن نقول إنه وجد عبر التاريخ بعض الموهوبين الذين استطاعوا أن ينفذوا إلى نفسية بعض الشخصيات بدراسة تحليلية مقننة وليس فقط ديستويفسكي، فمعظم الأمراض النفسية موجودة في تمثيليات

شكسبير . ورسائل الماجستير والدكتوراه حول علاقة الأدب بعلم النفس والطب النفسى فى العالم وفى مصر ليس لها نهاية .

إذن أستطيع أن أقول إن الطب النفسى استفاد من الأدب استفادة كاملة . وأقرب الأمثلة لذلك أن كل ما يقال عن العقد النفسية مشتق من الأساطير اليونانية : إليكترا وأوديب والسادية والماسوكية على سبيل المثال . فلا شك فى أن المسرح الإغريقى ومسرحيات شكسبير ناقشت الاضطرابات النفسية المختلفة من الغيرة والاكتئاب والانتحار وحب المحرمات وإيثار الذات بطريقة محببة إلى النفس ، لأن كل من يقرؤها يجد أنه يمتلك بعضا من هذه السمات . إذن فتشريح النفس البشرية بواسطة الفنانين كان سابقا لتخصص الطب النفسى ، ولا يوجد دليل على ذلك أكبر من استعمال فرويد لأبطال هذه الأساطير فى شرح كثير من اللاشعور والعقد النفسية .

يقول الكاتب يوجين يونسكو : «لا يوجد حاضر ، فاللحظة الراهنة دائما تكون إما تفكيراً واسترجاعًا للماضى ، وإما ترقبًا للمستقبل . ولكن رجال السياسة والزعماء لا يخشون الموت ، لأن تدفق الأحداث يجعلهم يعيشون فى حاضر مستمر» . وهل هذه المقولة تفسر أحيانا استمرار قرارات الحروب من قبل رجال السياسة لسنين طويلة؟

وللإجابة عن هذه المقولة ، نستطيع القول : إنها حقيقة واقعة أن أى إدراك للإنسان لأى ظاهرة من ظواهر الحياة هو عبارة عن خبرات سابقة مع تطلعات مستقبلية . أما رجل السياسة ، فلا نستطيع أن نقول

إنه لا يخاف الموت، ولكنه يخاف من فقدان القوة التي تُعَدُّ موتا بالنسبة إليه. فرجل السياسة يعيش لكي يصل إلى الحكم وإلى القوة. إذن رجل السياسة محكوم عليه بالموت إذا فقد سلطته، وهو في صراع دائم للحفاظ عليها. ولكنه لا ينظر إلى خبرات الماضي ولا إلى تطلعات مستقبلية فهذا ضد قانون العقل البشري. فرجل السياسة يجب أن تكون له إستراتيجية طويلة المدى للمستقبل ومعتمدة على خبراته السابقة وقدراته الحالية.

ولكن عندما يصاب الإنسان بنوع من الغرور والشمولية يتناسى في هذه الفترة خبرات الماضي والتاريخ ويعتقد أنه فريد من نوعه، وأنه غير مكرر، ويعامل ذاته على أنه نصف إله، ولا يعتقد في احتمال انتهاء قوته أو موته، وهنا تكون الكارثة. وعادة، فالحروب عملية غير إنسانية حيث يموت الشباب لمصلحة الشيوخ، والفائز هو الحاكم الشيخ والخاسر هو الشاب الذي يفقد حياته في هذه الحرب التي يحتمل أنها حتى ليست عقائدية ولا دينية، ولكن تكون بسبب عوامل تافهة لا تساوي هذه الخسارة.

إذن ما التفسير لوجود هذا النوع من الزعماء والقادة الدمويين عبر التاريخ وحتى الآن؟ ولماذا تعطي الشعوب الفرصة لهذا النوع من الحكام، حتى في الشعوب القوية، فنجد على سبيل المثال ستالين وهتلر وموسوليني؟

إن غالبية الشعب تختار وتنتخب حسب العواطف أكثر منها حسب

المنطق، والمعادلة التى نقولها فى الديمقراطية: إن ٦٠ ٪ من مجموع الشعب متوسط الذكاء و٢٠ ٪ أكثر من المتوسط و٢٠٪ أقل من المتوسط، أى أن ٨٠٪ من الشعب متوسطو الذكاء وأقل من المتوسط، وهؤلاء لهم حق الاختيار والانتخاب مثل الأذكياء، ولكن الغالبية تكون للثمانين فى المائة، ولذا فعملية الديمقراطية تساوى بين اختيار عالم أو مثقف كبير مع متواضع الثقافة والعلم. ولذا فهؤلاء الثمانون فى المائة سيتأثرون بالكاريزما أكثر من الواقع. ومن النادر أن عالما فى الطبيعة أو الطب يكون له تأثير على الجماهير مثل هؤلاء الزعماء السياسيين، ولذا فعندما نقول إن الشعوب قوية أو ضعيفة يجب أن نعلم أن ٨٠٪ من أى شعب سهل الانقياد قابل للإيحاء، ويمكن أن يتجاوز العشرين فى المائة من الأذكياء الذين يصبحون أقلية.

ولذا رأينا عبر التاريخ باستمرار فى الثورات التخلص بالإعدام أو الاعتقال أو النفى من أذكياء البلد، حتى تتاح الفرصة لهؤلاء المضللين أن يستولوا على السلطة. ولنا مثل فى الثورة الفرنسية وأيضا الثورة الإيرانية، ولنا مثل فى كل الانقلابات العسكرية فى كل بلاد العالم. إذن يستمد هؤلاء القادة الدمويون قوتهم من العامة والأغلبية التى تعتمد على الحماسة والعواطف بغض النظر عن المنطق.

إذن كلمة باسم الشعب تستهلك لمصلحة الحاكم. فالديمقراطى يقول باسم الشعب، وكذلك الرأسمالى والنازى والفاشى والشيوعى بل والزعيم الدينى. وهم يعتمدون على هؤلاء الذين يستطيعون

السيطرة عليهم ويصفقون لهم في كل مكان. وإذا نظرنا إلى مآسي التاريخ نجد أن القيادات التي قامت بحروب عالمية تتميز بالجاذبية الجماهيرية وتحريك عواطف الشعب وحماسته ونفخ النعرة القومية إلى حد العمى النفسي.

وللأسف، فإن هذا يتكرر عبر التاريخ. وقد يصيبنا العجب حين نرى أن الديمقراطية تأتي بحاكم لا يكون من أكثر الناس كفاءة، ولكن يكون أكثرهم قدرة على إقناع الغالبية، إما بالتغلب عن طريق القوة العسكرية، وإما بالإيحاء عن طريق تضليل الشعوب. إن الذكاء هو عطاء الله، ولذا لا نستطيع أن نحرم هؤلاء من الإحساس بالآدمية ولذا يجب أن تستمر الديمقراطية حتى وإن كان انتخابهم لهذا الفرد ليس أحسن الاختيارات حيث إنه في الديمقراطية يكون مع الحاكم صفوة المثقفين والعلماء والبرلمانات، فلذا لا خوف على الجميع ولكن الشمولية والدكتاتورية تؤديان إلى نكبة ومصائب للبلد.

ففي الديمقراطية معروف أن الحاكم ليس أكفأ الناس، ولكن من حوله هم الأكفاء. ولكن في الشمولية تكون المصيبة أكبر فيؤله الحاكم ويصبح الأوحد وهو ليس الأكفأ. والقول بأن الشعب غير مستعد للديمقراطية هو تضليل خطر، فكل المآسي التي حدثت من حكام في أي بلد في العالم كانت لأنهم انفردوا بالحكم الشمولي. فطالما يوجد من يقول لا، تكون هناك فرصة للنقد الذاتي وعدم تضخم الأنا، ومن ثم يكون البلد في حالة ازدهار وتقدم. إن القيادة الحقيقية هي القدرة على اختيار من حولك. ويعطى دائما المثل برسول الله صلى الله عليه

وسلم، إذ كانت قيادته تنبعث من اختياره للصحابة. والتدهور الذى حدث فى الدول الإسلامية كان بسبب المنافقين والمتسفين حول الحاكم. ولدينا أكبر مثال على ذلك جمال عبد الناصر وأنور السادات، كانت بدايتهما جيدة ولكن أفسدهما من حولهما. نحن نعيب كثيرا على سياسة الولايات المتحدة لأنها محكومة بقوة مختلفة ولكن لا نستطيع أن ننسى أن هذا الشعب أقال نيكسون وأخرج بوش بعد انتصاراته وحاكم كلينتون لمسلكه المعيب للحكم، وهذا لا يمكن أن يحدث فى دولة نامية.

فى بداية هذا القرن، كانت الفكرة الراسخة فى الأذهان أن هناك شعوبا أو أجناسا تتفوق على الأخرى، خاصة بعد الدراسات الأمريكية التى أثبتت أن قدرات ذكاء الجنس الأبيض أكبر من الجنس الأسود، ولكن ثبت بعد ذلك إنه لا يوجد فروق فى الذكاء أو القدرات. ثبت أيضا أنه لا يوجد فروق فى الذكاء إطلاقا بين الرجل والمرأة. وقد فسر ذلك بأنه إذا أتيح للرجل الأسود العناية بالحمل ثم الولادة ثم غذاء الأطفال ثم المدارس والصحة والتطلعات يتساوى الذكاء بين الأسود والأبيض، مثلما يحدث بين طفل القرية وطفل المدينة إذا أتيحت لطفل القرية نفس المؤثرات البيئية الموجودة فى المدينة.

ودائما ما يقال إن عظماء العالم وفلاسفة العالم والشعراء والموسيقيين والرسامين هم من الرجال، وإن وجد فقلة من النساء،

والسبب أنه فى هذا الوقت لم تتح الفرصة للمرأة كى تتعلم وتتحرر وتنبغ، ونرى ذلك واضحا في عشر السنوات الأخيرة كيف أن النساء أثبتن في كثير من الأحيان أنهن يستطعن القيام بما لا يستطيع الرجال القيام به . فوزير الحربية فى كندا امرأة على سبيل المثال، و٦ من أعضاء وزارة كلينتون من النساء، فلا يوجد فروق مطلقا .

وأقرب مثل أيضا الجنس الأصفر الآن . فأكبر قوة اقتصادية الآن موجودة في الصين، وأكبر قوة تهدد الغرب ستأتى من اليابان وتايلاند وسنغافورة . ولاشك فى أن الإعلام الغربى يؤدى دورا كبيرا فى أن يجعل الأسود والأصفر فى منزلة أقل من الأبيض، بل حتى السينما المصرية والعربية تضع الرجل الأسمر فى هيئة بواب أو سفرجى أو سائق، وهذا هو تأثير الاستعمار وقمة فى العنصرية .

ونبعت فكرة الجنس الآرى عندما حاول هتلر إقناع العالم وبخاصة أطفال ألمانيا بأن تشريح وفسيولوجية مخ الآريين يختلفان ويتفوقان عما لدى كل الأجناس البشرية، ويليهم الأنجلوساكون، ووضع العرب والزنوج فى آخر مرحلة . وقد أثار ذلك النعرة الآرية والحماسة في الشعب كى يسودوا العالم، وهو يعلم أن ذلك غير صحيح، ولكنه استطاع أن يغسل مخ العامة وسار وراءه الـ٨٠٪ حتى نهايته وتدمير ألمانيا .

كيف إذن تفسر انتعاش موجات عنصرية عنيفة فى أنحاء العالم؟ هناك شعور بأن تأثير الفلاسفة الذين استوحت النازية أفكارهم فى

حالة ازدهار، مثل المفكر الفرنسي «جوبينو» في دراسته «عن عدم المساواة في الجنس البشري»، ونظرية نيتشه أيضا عن السوبرمان والتحرر من الفضيلة بوصفها حقا للضعفاء.

وهنا يختلف رأيي الخاص عما يعتقده البعض، فقد وضح لنا الآن أن عدم الانتماء للأسرة أو لعقيدة أو لإيمان قد أثر على الصحة النفسية للشعوب وأنتج العدوان والانتحار والقسوة والفردية والعنصرية، وهذا سيؤدي إلى دمار البشرية، ولن يؤدي إطلاقا إلى مستقبل سعيد للبشرية، وسيترك فراغا في معنى الحياة لن يملأه إلا الإيمان الذي نلاحظ بدء عودته في الألفية الثالثة.

والآن في كل بلاد العالم مجموعات تحض على العودة إلى الإيمان، وأقصد الإيمان الحق والمحبة والرحمة بعيدا عن التطرف.

إن العنصرية والنازية وكل العوامل العدوانية ما هي إلا نتيجة للفردية ومحاولة سيادة القوى على الضعيف وعدم وجود الرحمة التي هي مرادفة للإيمان. فالتكنولوجيا جعلتنا في حالة فردية، والصحة النفسية هي التمركز حول الآخرين وليس حول الذات. وسقراط قال إن الفضيلة تواكب العلم، فلا يمكن أن يتقدم العلم دون فضيلة، ولا يمكن أن يكون الإنسان عالما دون أن يكون فاضلا. فإذا كان هناك علم الآن دون فضيلة فهو ليس علما ولن يؤدي إلى سعادة الإنسان. وخلال أوقات النهضة في أي زمن كان هناك تواكب بين الفضيلة والعلم.

هناك مقولة للشاعر الفرنسي شارل بودلير وهو يُعَدّ من الذين مهدوا لنيتشه، «فقط رجل الدين والعسكري والشاعر يستحقون التقدير أما باقي البشرية فتستحق السوط».

ولا أعتقد أنه في عصرنا الحالي نستطيع أن نوافق على هذه المقولة. وسابقا كان الاعتقاد أن الشاعر ملهم من الله، والعسكري يجب تكريمه لأنه يضحي في سبيل كل الشعب، وأن رجل الدين يزهد في الحياة ويصبح راهبا في محبة الله. فإذا نظرنا إلى هذه الفئات الآن سنجد أنه لا يمكن تطبيق هذه الأمثلة. ففي الوقت الحالي الفرد الذكي يتفوق في أي وظيفة وليس لها علاقة إطلاقا بنوعيتها، ولذا لا أوافق على هذه المقولة. ولكن توجد بعض الأبحاث تؤكد أن أذكى الناس هم رجال الفلسفة والسياسة يليهم العلماء ثم تأتي باقي الفئات بعد ذلك.

ونحن على أبواب الألفية الثالثة نرى منتهى العنف، فهل الإنسان لم يتحضر إلا في المظاهر والكماليات، أي أنها حضارة أشياء وليست حضارة إنسانية؟ بل على العكس أصبح الإنسان أكثر خطورة ومحاطا بأسلحة الدمار، والعنف يزداد كل يوم وكأننا أصبحنا نعيش في غابة مكيفة؟!

الحضارة هي في المقام الأول قيم أخلاقية وجمالية، وبدون هذه القيم تكون زيادة الأمراض الاكتئابية والمخدرات. وزيادة الانتحار بين الشباب في كل بلاد العالم تشير إلى انهيار القيم الخلقية

والجمالية. والاهتمام بالتقدم المادي وبالكماليات وبالرفاهية قد قضى على الكثير من القيم لدى الشباب ومن ثم اتجه إلى المخدرات والتطرف والجماعات الغريبة والعنف إلى آخره.

ولا شك في أن العنف يسبقه دائما إحباط. والشباب في العالم كله محبط في تطلعاته، وأصبحت الثقة في أي نظام مهزوزة؛ فلا الاشتراكية جاءت بنتيجة ولا الرأسمالية ولا الشيوعية ولا الديمقراطية ولا الدكتاتورية، فأصبحت الشعوب تتجه إلى شيئين: إما إلى العنف وإما إلى التطرف، فهذا نتيجة فشل كل الأنظمة.

هل ولد الإنسان بطبيعته خيرا ونقيا ولكن المجتمع بمتطلباته هو الذي أفسده، كما كان يعتقد الكثيرون من المفكرين من بينهم روسو على سبيل المثال؟

اختلفت الآراء في هذا. كان فرويد يعتقد أن الطفل يولد باحثا عن اللذة فقط والتي تعتمد على ملذات من الفم ومن الأعضاء التناسلية، وأن طاقة العدوان موجودة في الإنسان عندما يولد، وأن دور المجتمع بسيط. ولذا كانت فكرته تشاؤمية عن مصير الإنسان، وثبت بعد ذلك أن هذه النظرية خاطئة وأن الإنسان يهدف إلى النمو والنماء والتفوق، وأن المجتمع هو الذي يغير الإنسان، فالطفل يولد خامة طيبة تتشكل حسب الظروف البيئية، فالفرد يتأثر بمجتمعه الصغير أي الأسرة ثم بالمجتمع الكبير. ولذا نظرية جان جاك روسو صحيحة.

والآن في أوربا والولايات المتحدة يقولون إن ازدياد العنف لدى

الشباب هو نتيجة لما رأوه في أجهزة التليفزيون والسينما من عنف خلال طفولتهم، إذ إن الطفل عندما يبلغ ١٠ سنوات يكون قد رأى ما لا يقل عن ١٠ آلاف مشهد عنف وجريمة، وهذا ما يجعله أقل حساسية في إدراك القسوة، ومما يجعله ينظر للعنف بطريقة غير مبالية أو يقدم عليه بطريقة كلها تبلد وهذا هو تأثير المجتمع.

سألت الدكتور عكاشة عن الحلم الذي يداعب البشرية في مجال الهندسة الوراثية، وهل من الممكن الوصول إلى ما أسماه نيتشه بالسوبرمان؟

قال: لا شك في أن الهندسة الوراثية ستؤدي دورا كبيرا في علاج الأمراض المختلفة والوقاية منها. وإذا عرفنا أن هناك ٥٠٠٠ مرض معروف في العالم، ويوجد بلايين الدولارات مخصصة لاكتشاف خريطة الجينات في جسم الإنسان التي هي السبب في كل الأمراض، وأنه فعلا تم اكتشاف الكثير من المورثات التي تسبب الأمراض، ولذا بالهندسة الوراثية يمكن تغيير الطفل الذي يعاني من السكر أو الروماتيزم أو حتى السرطان، حيث إنه بتغيير هذه المورثات هندسيا نمنع ظهور هذه الأمراض. ويمكن بالطبع إذا عرفنا مورثات التخلف العقلي والأمراض العقلية أن نقلل أو نمنع من حدة هذه الأمراض بواسطة الهندسة الوراثية.

ولكني لا أعتقد أنه ممكن الوصول إلى أن كل العالم يصبح سوبرمان لأنه إذا اختل النظام الكوني في توزيع الناس لا يمكن

استمرار الحياة، فالسوبرمان لن يعمل فلاحا أو عاملا أو محاربا أو موظفا. إذن إذا أصبح كل البشر سوبرمان فستنقرض البشرية ولكن أملنا فى الهندسة الوراثية أن نقلل الأمراض الجسدية والنفسية بتغيير المورثات.

إن آخر الأبحاث والاكتشافات العلمية فى مجال الطب النفسى ومن خلال تصوير المخ خصوصا الرنين المغناطيسى الوظيفى، قد أحدثت ثورة فى اكتشاف مصاحبات وأسباب المرض النفسى داخل المخ، وزادت القدرة على اكتشاف عقاقير جديدة لعلاج الخلل الفسيولوجى والكيميائى داخل المخ، فقد عرفنا الآن الكثير مما يحدث داخل المخ فى مرض الفصام سواء فى النسيج أو الوظيفة، بل استطعنا تصوير المخ فى أثناء الهلاوس السمعية أو البصرية وكيف أن مراكز السمع والإبصار داخل المخ تشع وتنتبه فى أثنائها. علمنا الكثير عما يحدث داخل المخ فى مرض الاكتئاب، والهلع، والقلق، والوسواس ومرض الزهايمر. وبمعرفتنا للمستقبلات العصبية داخل المخ، والموصلات العصبية المسئولة عن السلوك، والمشاعر، والتفكير، نستطيع البدء فى سلسلة من العقاقير المطلوبة للعلاج والبحث عنها بطرق علمية بدلا من الطريقة التجريبية السابقة.

دراسة نقدية لكتاب فرويد

عن ليوناردو دافنشي.. دراسة تحليلية

يعود اهتمام فرويد بليوناردو إلى خطاب بعث به إلى فليس Fliess في أكتوبر عام ١٨٩٨ يقول فيه: «لربما كان ليوناردو أشهر أعسر في تاريخ البشرية لم يتمتع خلال حياته بأي علاقة غرامية». ولم يترك فرويد فرصة تفوته دون أن يغتنمها لكي يعبر عن إعجابه بليوناردو وشغفه به. وحين سئل عن أحب الكتب إليه، ذكر كتاب ميريزكوفسكي Merezhkovsky عن حياة ليوناردو. ويبدو أن الفكرة الأساسية التي واتته لكتابة هذه الدراسة قد خطرت له في خريف عام ١٩٠٩ خلال زيارة لأحد مرضاه، الذي علق على زيارته في خطاب له إلى كارل يونج Jung بأنه كانت له نفس قامة ليوناردو وعبقريته. ثم أضاف أنه في سبيله للحصول على كتاب عن طفولة ليوناردو وحياته. وانبرى يتكلم عن هذا الموضوع في جمعية التحليل النفسي بفيينا، إلى أن أصدر هذا الكتاب الذي لم يتم إلا في شهر إبريل عام ١٩١٠م.

كان هذا الكتاب أول عمل لفرويد يطبق فيه نظريات التحليل

النفسي على تاريخ بعض الشخصيات العظيمة ، وإن كان غيره قد سبقه فى تجارب مماثلة وبخاصة سادجر Sadger الذى كتب على كونراد فردياناند ميير Conard Ferdinand Meyer 1908 وكلايست ١٩٠٩م . على أن بحث فرويد قد قوبل بنقد لاذع وهجوم قاس .

ويبدو أن فرويد قد شعر قبل صدور كتابه بالأثر الممكن حدوثه ولذا نراه قد أسهب فى الفصل السادس دفاعا عن نفسه وعن نظرياته وإمكانات التحليل النفسي فى تحليل سمات الإنسان مستخدما بضع معلومات ضئيلة فحسب هى التى جمعها فى حالة ليوناردو .

ويربط معظم الناس ، حتى المثقفين منهم اسم فرويد بالجنس . ولعل سبب ذلك أن الجنس كان من الأمور المحرمة لآلاف السنين ، وكان الحديث عنه جريمة لا تغتفر ، مما جعل الناس يهمسون بما يشعرون به عنه دون أن يجسروا على الإفصاح عنه علنا . وما أكثر من ارتكبوا جميع الموبقات باسم الجنس دون أن يستطيع أحد أن يدافع عنهم إن حقا أو باطلاً . وكان فرويد من الرعيل الأول المدافع عن الجنس موضوعا ، وهذا شيء طبيعي فى غور حياة كل إنسان .

ولكن علينا أن نتوقف هنا قليلاً للدفاع عن فرويد ، لأنه وإن كان اسمه قد اقترن بالجنس إلا أنه لم يكن أول من تحدث عنه فى كتاباته ، بيد أنه كان أشهرهم ، ومن هنا ذاع صيته . لقد سبقه هافلوك إليز Havelock Ellis وكرافت إبنج V. Krafft Ebing وباولو جازا Paolo Gaza وإيوان بلوخ Iwan Bloch ، مما وضع أمام فرويد الأساس العلمي

المؤدى إلى معرفة وفهم النظريات الجنسية . وقد انحصرت كل الأبحاث السابقة لفرويد فى الظواهر الجنسية وانحرافات الشباب، ولكنه لم يلبث أن شرع فى تحليل الدوافع النفسية للأطفال التى ينشأ عنها الكثير من الأمراض النفسية .

وبالرغم من التقدم الظاهر الذى حدث فى هذا الوقت فى مجال الأدب، فقد كان الجنس حبيس قوقعة مغلقة لا يستطيع إفلاتا، ولذا فقد أصاب زملاء فرويد الذهول والدهشة عندما أعلن فى جرأة : «إننا نستطيع أن نعزو أثر الكثير من الأعراض النفسية والعقلية إلى ظواهر جنسية، عادة ما تنشأ فى الفترة الأولى من حياة الإنسان» .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت نظريتا بروير Breur وفرويد مجالاً للبحث والنشاط العلمى ومحط أنظار ونقد الكثيرين ممن لا يؤمنون بهذه النظريات التى تحطم الفكرة السائدة عن سذاجة الأطفال وبراءتهم، وتعزو إليهم طاقة جنسية قوية منذ مولدهم . وقد هوجم فرويد فى هذا الوقت كما لم يهاجم عالم من قبل، ولكنه صمد لهذا التيار بقوة إيمانه بنظرياته وصدق عزيمته .

وسأحاول هنا فى مقدمة هذه الترجمة أن أعطى ملخصًا صغيراً لنظريات فرويد التى تتعلق بالتطور الجنسى للإنسان . حتى تساعد بعض القراء الذين لم يحيطوا علمًا بنظرياته على استيعاب تطبيق مبادئه على ليوناردو .

ولعل أبرز ما يثار حول التحليل النفسى هو موضوع الجنس .

فالجنس فى التحليل النفسى مفهوم واسع يضم جوانب مختلفة من النشاط لا يجد فيها غير المتخصص اتصالاً مباشراً بما تعنيه الكلمة عادة، بل يكاد الموقف أن يكون أكثر تعقيداً لسبب آخر. فالتحليل النفسى وإن عزا الأمراض النفسية باختلاف أنواعها إلى اضطراب فى الغريزة الجنسية، إلا أنه قد فسر السلوك السوى أيضًا بحسبانه تعبيراً سليمًا عن الغريزة نفسها. لذلك يعترض بعض مؤيدى التحليل على هذا الشق الأخير من النظرية، فى الوقت الذى يوافقون مع شىء من التحفظ على الشق الأول المتصل بالمرض.

ولو أردنا أن نوضح فى جلاء أسس نظرية فرويد الجنسية فى سلوك الإنسان، يجب علينا أن نثير قضية حار فيها فرويد حيرة شديدة. وتتلخص هذه القضية فى مدى صحة الرأى القائل بوجود «جنسية طفلية». إن الأخذ بهذا الرأى يتيح الكثير من الاكتشافات، وهو ما قام به فرويد فعلاً. على حين أن الاعتراض على ذلك يجعل مفهوم الجنس يضيق إلى حد يقصره على عملية التناسل. وما يزال الأمر موضع جدل حتى الآن.

بيد أنه يمكن مؤقتًا التدليل على جدوى البحث فى المفهوم التحليلى للجنس بالتناسل، ولا داعى إلى أن نطلق على التناسل لفظ الجنس، وأن نصف تلك الرغبة بالكلمة الدالة عليها وحدها. وبذلك نقع فى تناقض جوهرى، هو امتزاج الحاجة إلى التناسل بلذة تختلف فى طبيعتها عن اللذة المنشودة من مجرد الإنجاب، هذا بالإضافة إلى

أن إشباع الحاجة إلى التناسل يشكل لحظة قصيرة فى تاريخ هذا النشاط الإنسانى الذى يتجاوز مجرد التناسل فقط .

لقد كان وقوع فرويد على مفهومه عن الجنس وليد نوعين مختلفين من الملاحظة ، أولهما هو تلك الخبرات الجنسية التى اكتشفها كامنة وراء أعراض مرضاه بلا استثناء ، بالإضافة إلى تذكر هؤلاء المرضى لمواقف طفولية بدأ فيها بوضوح نشاط تلك الرغبات الجنسية فى سن مبكرة . وثانيهما ما جاء عن طريق محاولته فهم مظاهر الشذوذ الجنسى الذى تبدو فيه عملية التناسل بعيدة عن أى نشاط يقوم به الفرد الشاذ جنسيا .

والمصدر الثانى فى الواقع أغزر فى دلالاته للاقتناع بوجود جنسية طفلية ، إذ تتميز الوظيفة الجنسية السوية بأن موضوع إشباعها هو الجنس الآخر ، وأن نشاطها يصل ذروته عند اتحاد العضو التناسلى للشخص بالعضو التناسلى للجنس الآخر فى عملية متكاملة . ومن هنا نكتشف أن الانحرافات الجنسية قد تكون فى الموضوع أو فى النشاط أو فى الهدف . وبالنسبة إلى انحرافات الموضوع فهناك من يجدون متعتهم الجنسية بالاختلاط بأشخاص من نفس جنسهم أو من الحيوانات أو من أنفسهم كما هو الحال فى الاستمناء . أما بالنسبة إلى انحرافات الهدف الجنسى فقد نجد أشخاصاً لا تتصل أهدافهم الجنسية التى موضوعها الجنس الآخر بأعضائهم التناسلية ، بل تتخذ مواضع أخرى من الجسد هدفا لها ، أو قد تقتصر على الخطوات التمهيدية للجماع السوى كالنظر أو الملامسة .

ونخرج من تلك الملاحظات أن هناك مناطق فى الجسم غير المنطقة التناسلية قد تخدم هدف الإشباع . أو قد يكتفى الشخص بخطوات أولية فى محاولاته الجنسية للحصول على الإشباع . كذلك قد نجد أن الموضوع الجنسى نفسه يختفى لتحل محله موضوعات لا تخدم الإنسانية بأى صورة كانت .

كانت تلك الظواهر دليلاً مقنعًا لفرويد كى يتوسع فى مفهوم الجنس ، وكى يرصده فى السلوك الإنسانى بجميع أنواعه . والجسم ينطوى على أكثر من منطقة لمنح اللذة للشخص ، وقد تطغى على المنطقة التناسلية نفسها أو تبقى معها لتزاحمها . كما أن هناك موضوعات جنسية أخرى غير الجنس الآخر قد تحتفظ بقدرتها على تحقيق المتعة الجنسية ، ولذا فليس ثمة ما يبرر قصر كلمة الجنس على التناسل .

وإذا عدنا بعد ذلك إلى مظاهر الجنس فى الطفولة ، لوجدنا أن الإنسان يمر بمراحل ثلاث قبل وصوله إلى المرحلة الحاسمة من النشاط الجنسى التناسلى ، وهى البلوغ .

مرحلة سيطرة الفم Oral Phase :

ويمكن أن نحددها بالسنة الأولى من العمر . وفى تلك المرحلة يكون نشاط الفم بالرضاعة أهم نشاط يقوم به الطفل الذى يجد لذة هى ليست مجرد إشباع لحاجته البيولوجية للطعام فحسب . فامتصاص الطفل لإصبعه إذا أحس بالجوع يدل على امتزاج الحاجة

إلى الطعام بحاجة أخرى يشبعها الطفل بإصبعه. ويمكن القول بأن ذلك الإشباع للجوع، وتخيل الحصول على اللذة ليس إلا نواة للمتعة الجنسية فيما بعد.

ويشهد على ذلك أيضاً أن الطفل بعد شبعه بالرضاعة يعاود امتصاص إصبعه محاولاً الاحتفاظ بالتجربة اللذيذة السابقة. لذلك تعد منطقة الفم منطقة شبقية erotic لإمكان الحصول على متعة جنسية - أي غير بيولوجية - منها.

وترسخ آثار تلك المرحلة لتدخل ضمن الجنسية التناسلية فيما بعد في صورة القبلة. أما التثبيت Fixation عليها فيؤدي إلى مظاهر الانحراف التي تتخذ من الفم بديلاً عن العضو التناسلي وتختار الموضوعات التي تحقق ذلك الإشباع.

مرحلة سيطرة الشرج Anal Phase :

وتبدأ على وجه التقريب في نهاية السنة الأولى، وتستمر طوال السنة الثانية من العمر، وفي هذه السنة يطرأ تغييران مهمان على حياة الطفل. فمن جهة يقل اهتمامه بالنشاط الفمي بعد الفطام واستهلاله السير، ومن جانب آخر تبدأ الأم في توجيه انتباهه إلى عادات التبول والتبرز وغيرها من مظاهر النظافة، وبذلك ينتقل الاهتمام إلى منطقة الشرج ونشاطها تدريجيا، ويغدو موضوع البول والبراز من الموضوعات التي يبدأ الطفل في تقييمها نتيجة لظهور اهتمام الأم

بذلك . ويستشعر الطفل لذة فى إفراغ برازه والاحتفاظ بها . هذا بالإضافة إلى لذته التى يجنيها من رؤية تأثير قيامه بتلك الوظائف على من يقومون بأمره .

وسرعان ما يجد الطفل فى نشاطه ذلك وسائل للتعبير عن غضبه أو فرحه بواسطة تحكمه أو إطلاقه العنان لمخارجه ، وهكذا تتحول فتحة الشرج إلى منطقة شبقية تبقى آثارها فى النشاط الجنسى التناسلى فى صورة القدرة على إطلاق الحب . أو التحكم فيه ، والقدرة على المنح أو المنع فى موضوعات الحب وقد تظل هذه المنطقة محتفظة بما لها من قدرة على التوتر والارتخاء كمنطقة شبقية كما هو فى المستجنسين والشواذ ، كما قد يستقبل عن تلك المنطقة وجدانات العدوان والشعور باللذة من الألم لتصبغ علاقة المحب بمحبوبه .

أما المرحلة الثالثة فهى المرحلة القضيبية Phallic Phase :

وتظهر تلك المرحلة من سن الثالثة إلى السادسة أو ما بعدها بقليل . وفى تلك المرحلة يبدأ الطفل فى الانتباه إلى الاختلافات بين الجنسين ، ويؤدى به ذلك إلى نقل مركز الاهتمام إلى المنطقة التناسلية وأعضائها . ويختلف ما يمر بالذكر عن الأنثى فيما يخص تلك المرحلة . فعلى حين يشعر الذكر بالخوف على عضوه الذكرى من الخصاء Castration نتيجة لخيالات جنسية طفلية تكون المحارم فيها ذات أهمية وكذا الخوف الشديد من الأب ، تشعر الطفلة بالغيرة من

افتقارها إلى القضيب، ونقص متعتها الجنسية، وغيرتها من أمها التى تستحوذ على رجل هو أبوها. والواقع أن التطور الذى يطرأ على تلك المرحلة هو أساس وصول الإنسان إلى الجنسية السوية. فمشاعر التحريم التى تقع على خيالات الأطفال فى تلك السن، تؤدى إلى أن يُستَبْدَل بالنشاط الجنسى القضيبى نشاط آخر يبعد أخطار الخصاء أو الغيرة من القضيب. وظهور مشكلات تلك المرحلة التى تسمى بالأوديبية هو الأساس فى أن يؤدى النضج البيولوجى إلى اكتمال الجنسية التناسلية.

وحتى تكتمل أمامنا نظرية فرويد الجنسية، نشير إلى عمليتين تؤثران على الصحة الجنسية السوية تأثيرا كبيرا. فالمناطق الشبقية المختلفة وغير التناسلية تشحن فى أثناء إثارتها فى الطفولة بشحنات من الطاقة يؤدى انصرافها إلى الشعور باللذة، بعيدا عن المناطق التناسلية. من ذلك أن التثبيت على أى مرحلة يعوق تحقق «الجنسية السوية» باستقلال المناطق الشبقية بشحناتها مما يجعل المناطق التناسلية محرومة من الإثارة الكافية للقيام بوظيفتها السوية. كذلك إذا تعرض المرء فى علاقاته الجنسية السوية لإحباط ما، فقد يرتد إلى نوع من الإشباع غير التناسلى، أى يعود إلى الحصول على اللذة الجنسية من مناطق شبقية ذات أهداف جنسية بدائية. هذان العاملان يوضحان لنا أن «العملية الجنسية السوية» هى تلك التى تقوم فيها المناطق الشبقية المختلفة بدور الإثارة التمهيدية التى تحقق للمنطقة التناسلية إشباعها

الجنسى ، والتى يؤدى تطورها إلى اختيار موضوع من الجنس الآخر هدفًا لذلك الإشباع .

وإذا عدنا إلى تأثير الانحراف فى غير الحياة الجنسية للطفل على الأمراض النفسية ، لوجدنا أن ثمة أمراضا تشير إلى التوقف عند مراحل معينة من مراحل التطور وعدم النمو للمراحل الأخرى . فالفصام Schizophrenia يبدو وكأنه تثبيت على المراحل الفمية المبكرة . والفصام مرض عقلى يتميز باضطراب شديد فى الوجدان والتفكير والإدراك ، مع ظهور اعتقادات اضطهادية خاطئة أو شعور بالعظمة أو هلاوس سمعية وبصرية ، مما يؤدى إلى تدهور بطىء فى شخصية المريض مع انطوائه وانعزاله عن المجتمع وفشله فى التكيف مع البيئة .

بينما الاكتئاب Depression أشبه بتثبيت على المراحل الفمية المتأخرة ، وهو مرض نفسى يتميز باضطراب وجدانى أولى مصحوب بالحزن الشديد والأفكار السوداوية الانتحارية واعتقادات خاطئة بعدم أحقية الفرد بالحياة والتقليل من قيمة الذات مع الشعور بالذنب والإثم ، ويصاحب هذا المرض أعراض جسمية مثل الإعياء والأرق وفقد الشهية للأكل والضعف الجنسى والصداع والدوار . . إلخ . ويشير هذا الاضطهاد وغيره إلى معامل تثبيت على المراحل الشرجية المبكرة .

أما عصاب الوسواس القهرى Obsessive Compulsive Neurosis فيدل على تثبيت على المراحل الشرجية المتأخرة ، وهو مرض نفسى يتميز بظهور أفكار أو الإتيان بحركات أو اندفاعات أو بمخاوف

مستمرة ومتكررة يعلم المريض تماما بعدم صحتها وتفاهتها. وبالرغم من مقاومته الشديدة لهذه الوساوس، فإنها تسيطر عليه بطريقة قهرية وتأخذ أعراضه مظاهر مختلفة مثل غسل اليدين مئات المرات يوميا والوسوسة بشأن الحلال والحرام، والنجاسة والطهارة، والخوف من التلوث من الميكروبات أو الأمراض، أو إحصاء المريض لعدد الأعمدة أثناء سيره، وإتيانه طقوسا خاصة يقوم بها قبل الخروج من داره أو قد تراوده فكرة تتردد معظم الوقت أو العيب فى الذات الإلهية .. إلخ.

أما الهستريا Hysteria بنوعيها الانشقاقية والتحولية، فهى تثبيت على المرحلة القضيبية المبكرة أو المتأخرة، وهى مرض نفسى شديد ذو رموز لا شعورية إلى أعراض وعلامات نفسية أو جسمية، الغرض منها الهروب من خطر معين أو استدرار الاهتمام والرعاية لهذا المريض. ويحتمل ظهور هذا المرض على أشكال مختلفة. فالأعراض الحركية مثل الشلل النفسى، وفقدان الصوت وارتعاش الأطراف والغيبوبة والتشنجات. أما الأعراض الحسية فيمثلها فقدان القدرة على الإبصار أو السمع أو الشم. وتظهر الأعراض النفسية فى هيئة تحويلية مثل فقد الذاكرة والجُوال الليلى وتعدد الشخصيات والشرود، وأحيانا تأخذ الهستيريا مظهرها فى هيئة أعراض عضوية كالقىء والصداع والحمل الكاذب .. إلخ.

وتختص مدرسة التحليل النفسى بهذه الفروض فى نشأة الأمراض النفسية والعقلية بسبب التثبيت فى المراحل المختلفة للتطور. وتختلف

مع مدرسة التحليل النفسي معظم مدارس الطب النفسي التي تنسب هذه الأمراض إلى عدة عوامل أهمها الناحية الوراثية والبيولوجية والفسيولوجية والكيمائية . وقد أثبتت الأدلة الحديثة صدق آراء هذه المدارس، ومن ثم انصرف العلاج في هذه الأمراض إلى العلاج الفسيولوجي والكيميائي الذي أثبت نجاحا لا بأس به، إن لم يفق التحليل النفسي .

والجدير بالذكر أن فرويد قد أوضح أن عملية التطور السوى أو الشاذ لها جوانب أخرى تتصل بالسلوك الإنساني عامة . ففي غضون عملية النمو تنصرف كميات من الطاقة الليبيدية (الجنسية) إلى نشاط لاجنسي ، كي يكفل للإنسان العيش في مجتمعه . وينفعل فيه مع حضارته وينقحها، فقد تتحول الجوانب غير المقبولة اجتماعيا والتي يكبتها الشخص في ظروف معينة إلى نشاط إنتاجي بعيدا عن مصدر الجنس، أو تبقى غير قابلة للتسامي فتتحول إلى شذوذ جنسي أو مرض نفسي . ذلك هو الكشف الجديد في نظرية فرويد الجنسية ، فالجنسية لديه ليست مرادفة للتناسل بل هي دليل على الحياة النفسية الحضارية للإنسان، وعلى الشخص «كوحدة» في إطار المجتمع الإنساني .

وإنه لمن العبث أن نحاول إنكار تأثير فرويد على الأمراض النفسية والعقلية بل وعلى الأدب والفن والقانون وحديثنا اليومي ، وكذلك على التقييم الخلقي للحضارات .

وقد قبل الناس نظرية فرويد دون فحص أو تمحيص أو محاولة لنقد افتراضاته التى قامت على خبرة ذاتية وتطبيق شخصي لمبادئ نظريته . وكل من درس التحليل النفسى يعلم أن فرويد كان يراجع افتراضاته دوما ، وقد غير الكثير من مقالاته ونظرياته بعد اتساع خبرته وتبينه نقصها فى كثير من النواحى . وبالرغم من أن كثيرين من العاملين فى التحليل النفسى والأمراض النفسية يراودهم الشك فى صدق هذا الكلام ، فإننا نجد أن معظم العامة يؤمنون بهذه النظريات ، وهذه فى حد ذاتها ظاهرة علمية عجيبة ؛ إذ كثيراً ما يحدث عكس ذلك . فالكثير من الناس تترادف فى آذانهم كلمات الأمراض النفسية والتحليل النفسى ويؤمنون بوحدة الموضوع برغم الاختلاف البين بينهما .

فثمة نوعان من علم النفس ، علم النفس القائم على حضور البديهة واتزان العقل الذى يحاول فهم سلوك الإنسان ، وآخر يحاول تفسير هذا السلوك بطريق علمى . وما تداوله الفلاسفة والكتاب منذ دهور طويلة ما هو إلا علم النفس الذى يبحث فى فهم سلوك الإنسان دون إعطاء أى تفسير علمى لهذا السلوك . وهذا اجتهاد مبنى على الخبرة الشخصية والافتراضات التى لا تعطى للموضوع أي صفة جدية أو طابع علمى ما لم يطبق بطريقة موضوعية .

والتحليل النفسى فى رأى بعض علماء النفس علم قائم على الفهم لا التفسير ، ومن هنا كان اتجاهه غير علمى ، ويصبح الحكم عليه عن

طريق الإيمان به وليس عن طريق البرهان والتحقيق. ولذا نجد شغف العلماء العلميين بهذا الموضوع أقل مما لدى غيرهم. ولكن أليس الدين والفن موضوعين يقومان على أساس غير علمى كذلك، وبالرغم من افتقارهما إلى البرهان العلمى فقد كانا مصدرين لسعادة الكثير من الناس وطمأنينتهم؟

ولست أعنى بقولى إن الموضوع غير علمى أنه غير مفيد، وإنما أقصد أن تفسيرات هذه الموضوعات قامت على أساس غير علمى. وقد يوافق الكثير من المحللين النفسيين على هذا الشرح بقولهم إن عملهم يختلف فى طبيعة موضوعه عن كثير من العلوم الأخرى التى تستمد قوتها من التجارب العلمية. وقد كان كارل جوستا يونج أحد ناقدى الوسيلة العلمية فى البحث النفسى مفضلاً الذاتية والفراسة والفهم اللاشعورى.

وبالطبع ليس لنا الحق فى مناقشة أو نقد أولئك الذين يبحثون فى الدين والفن والجمال أو أي قيم أخرى فنية، إذ ليس عليهم أن يخشوا أى نقد علمى، ولكنهم فى الوقت نفسه لا يستطيعون الادعاء بأنهم قد اكتشفوا حقيقة علمية.

إذن فقد قام التحليل النفسى على أساس إكلينيكى غير تجريبى، وعلينا أن نتذكر أن العمل الإكلينيكى دائماً ما يتمخض عن الكثير من النظريات والفروض ويضعف أمام البرهان والحقيقة، لأن كل الأبحاث الإكلينيكية تقوم على أساس مساعدة المريض وليس على

إيجاد تفسير لماهية المرض . وكثيرا ما نجد صعوبة شديدة فى التحكم فى جميع العوامل المؤثرة عند قيامنا بتجربة معينة لإثبات موضوع خاص . يقول البعض إن التحليل النفسى يقوم فوق أريكة المحلل . ومعنى هذا أنهم لا يفهمون الاختبارات ، إذ إننا لا نستطيع التمييز بين نظريتى أينشتين ونيوتن بالاستلقاء تحت شجرة تفاح .

ويعاب على المحللين النفسيين تعميمهم لنتائجهم . فقد بنى فرويد نظرياته على أساس بعض المدلولات اللفظية لبضع مئات من المرضى بالعصاب من الطبقة الوسطى بفيينا . وبدلاً من إثبات نظريته على آخرين من طبقات مختلفة وأعمار متباينة ، عمم نظرياته على جميع البشر معتقدا أنه اكتشف حقيقة عامة مقدسة ، بينما لا تعبر هذه الحقيقة إلا عن مجموعة وفئة لا تمثل الكل .

هذا بالإضافة إلى حقيقة إهمال عامل الوراثة كسبب فى نشأة الأمراض النفسية وهو اتجاه خطير فسره الطبيب النفسى البريطانى إليوت سليتر Eliot Slater عندما قال : لقد ظهر فى السنوات الأخيرة اتجاه خطير بين الأطباء النفسيين لتقليل قيمة عامل الوراثة ، فتجاهلوه فى محاضراتهم وكتبهم . ويبلغ هذا الاتجاه أشده فى بريطانيا والولايات المتحدة . وبدلاً من محاولة التقريب ، والاتجاه إلى التناغم أو التآلف بين العصاب والذهان (الأمراض النفسية والعقلية) والفطرة والبيئة والتطور النفسى الفسيولوجى ، نجد أن معظم الباحثين يتجهون بأعمالهم ناحية العلاج والتحليل النفسى بالطب الاجتماعى ،

والعلاج الجمعي، وعلم الأجناس، والاجتماع والنظرية السياسية. وليس من قبيل المبالغة إذا قلنا إن ما نشاهده الآن يعد ظاهرة غير علمية يزداد مشجعوها يوما بعد يوم، وينبغي علينا الاحتراس من الانسياق وراءها.

وإذا عدنا إلى ليوناردو موضوع هذا البحث، لا يساورنا الشك في أنه كان رجلاً معقدا ومحيرا للغاية. وعندما نتأمل حياته وأعماله نتلاطم في بحر خضم من المتناقضات التي لا نستطيع فهمها. وقد قدم لنا فرويد هذا البحث محاولاً تفسير سلوك ليوناردو على طريقته الخاصة بإطفاء الشعلة لفهم الكثير من أعمال ليوناردو، ولكننا لا نستطيع تصديق كل ما قيل. والفرق بين تحليل أي سيرة سابقة وما كتبه فرويد هو أنه استخدم تعريفات نظرية التحليل النفسي ثم طبقها على كل جزء من حياة ليوناردو. ولو كان لنظرية التحليل النفسي مكانة نظريات الميكانيكا أو الوراثة وثباتها لكان من السهولة التوصل إلى حل المشكلة.

ولقد يأخذنا العجب عندما نلاحظ أن ناقدي هذا العمل لم يلاحظوا إلا أخيراً أضعف ما في بحث فرويد. فالجزء الأكبر من هذا البحث يدور حول تخيل ليوناردو في أحد أحلامه ليلاً زيارة الطير لمهده، أعني «مهد ليوناردو»، وقد سمي الطير نيبيو Nibio وهي الكلمة الإيطالية المعبرة عن الحدأة، ولكن فرويد ترجم خلال بحثه الكلمة إلى الألمانية Geier التي يقابلها النسر في اللغة الإنجليزية. ويعود خطأ فرويد

إلى بعض المعاجم الألمانية التى لجأ إليها فى بحثه، فقد استخدمت مارى هيرزفيلد (١٩٠٦) Mary Herzfeld كلمة Geier فى أحد تفسيراتها لتخيل ليوناردو بدلاً من ميلان Milan، وهى الترجمة الألمانية للحدأة. وكذلك ميريزكوفسكى، الذى كان له أكبر الأثر على فرويد والذى كان أحد مراجعه المهمة فى بحثه، استعمل الكلمة الألمانية Geier وإن كان وضع الكلمة الصحيحة بالروسية أى الحدأة.

وقد اتجه بعض القراء على ضوء هذا الخطإ إلى أن يحولوا أنظارهم عن قراءة هذا التحليل بوصفه عديم الأهمية، فقد بنى على أساس واه خاطئ. ولكن إذا تعمقنا بطريقة أكثر موضوعية وحاولنا فهم دراسة فرويد للموضوع فسنصل إلى نتيجة أخرى.

تأتى بعد ذلك مسألة العلاقة بالتاريخ المصرى القديم التى أفاض بعض النقاد فى تحليلها على أساس علاقة حلم ليوناردو بالنسر، ومن ثم بأمه بناء على معلوماته التى عرفها عن التاريخ المصرى القديم. فكلمة الأم «مات» Mut بالهيروغليفية تعبر عن النسر لا الحدأة. ونستنتج من هذا أن نظرية فرويد القائلة بأن الطائر فى خيال ليوناردو يعبر رمزيا عن أمه غير مستمدة من الأساطير المصرية. ومن ثم مسألة إلمام ليوناردو بهذه الأسطورة غير ذات موضوع، وبذلك لا توجد هناك علاقة بين تخيل ليوناردو وبين الأساطير المصرية.

وإذا أخذنا كل موضوع على حدة، فسيثير ذلك اهتماما خاصا، إذ كيف تأتى لقدماء المصريين الجمع بين فكرة النسر والأم؟ وهل تفسير

علماء التاريخ المصرى القديم لهذه الظاهرة بأنها مجرد مصادفة يعد حلاً للمشكلة؟ وإن لم يكن الأمر كذلك، فمناقشة فرويد لموضوع الأم الإلهة ليست لها أهمية بغض النظر عن ليوناردو، كما أن تخيل ليوناردو للطائر الذى زاره فى مهده ووضع ذيله فى فمه يحتاج إلى تفسير سواء أكان هذا الطائر نسرا أم حدأة، وتحليل فرويد لهذا التخيل لا يتناقض مع هذا التفسير، ولكن هذا الخطأ يحرمه من تعزيز نظريته التحليلية.

بالرغم من هذا السهو فى أثناء الترجمة لكلمة النسر والحدأة، وبالرغم من عدم أهمية هذا التفسير الذى أثاره فرويد على أساس تاريخ الأساطير المصرية القديمة فإن عمله الأساسى لم يتأثر بهذه الأخطاء، فقد تناول التركيب التفصيلى لحياة ليوناردو العاطفية منذ سنى طفولته الأولى، والصراع بين نزواته العلمية والفنية، والتحليل العميق لتاريخ حياته الجنسية بكل أمانة وإخلاص.

وما من شك فى أن شخصية ليوناردو محيرة. وينعكس ذلك خلال حياته فى تصويره. ولقد حاول فرويد فى كتابه هذا وبطريقته الخاصة إعطاء صورة عن حياة هذا العبقرى.

وقد يحيرنا شخص ما - وليكن جارنا الجديد - بعدم تآلف حياته وتآزر سلوكه، كأن نرى هذا الجار يردد دائما شوقه ورغبته واهتمامه البالغ بحديقته، وفى الوقت نفسه يهملها إهمالاً تاما حتى تذوى الخضرة وتصبح حديقته جرداء، أو نرى مدى اهتمامه وامتلاكه

لأدوات رياضة ما، ولكنه لا يمارس أى نوع من أنواع الرياضة ولا يخرج من داره. هنا نصبح أمام أمر محير. ولكن إذا اكتشفنا أن زوجته قد توفيت من مدة بسيطة وأن الاهتمام بالرياضة أو الحديقة كانت هوايتها المفضلة، وأنه فى حالة من الأسى والحزن أبعدته عن ممارسة هواياته السابقة، نعثر على الحل لهذه المعضلة المحيرة والسلوك غير المتآلف، وبالتالى نستنتج أننا فهمنا سلوك هذا الجار من خلال إدراكنا لأسباب عدم التآلف فى حياته وإعطاء صورة كاملة له مع معرفة الحقيقة.

كذلك نحن أمام مشكلة محيرة بالنسبة لأعمال ليوناردو وحياته. فبالرغم من تعدد مواهبه وكفاياته الفائقة، فإن إنجازاته لم تصل إلى مستوى قدراته. فقد أشتهر بعجزه عن إتمام الكثير من أعماله، وتميزت صوره بتدفق المشاعر ولكنه مع ذلك لم يظهر هذا الشعور نحو أى إنسان، حتى قال عنه مؤرخ الفن سير كنيث كلارك: «إن ليوناردو لهو هاملت التاريخ الفنى».

إنه لمن الصعوبة بمكان أن نتخيل ليوناردو: هل هو فنان شتتته الاهتمامات العلمية؟ أو عالم أصيل جذبه عالم الفن؟

لقد حاول فرويد أن يعطينا ثمار دراسته. ومحاولته لفهم شخصية ليوناردو من خلال قصة متكاملة مؤسسة على نظرية التحليل النفسى. وسيعترض كثيرون على هذا التفسير المذهل الشاذ، لا سيما هؤلاء الذين لا يعلمون إلا القليل عن نظرية التحليل النفسى. فعندما حيرنا

ذلك الجار السابق حاولنا فهمه من خلال استنتاجات عامة منطقية، ولكن فرويد يبنى استنتاجاته على معانى وتعميمات النظرية التحليلية. ومن هنا تختلف قصته تماما عن قصة النقاد الفنيين ومؤرخى الفن والمتخصصين فى هذا الفرع. فسينظر هؤلاء إلى قصة فرويد بشىء من الاهتمام والحيرة، وسيتوهج لهم بعض الضوء عن حياة هذا الفنان، ولكنهم سيتساءلون عن مدى حقيقية هذه القصة، ويقينية افتراضات فرويد، وهل قصة فرويد عن ليوناردو هى أحد أمثلة وتصورات التحليل النفسى؟ وإن كانت فلأى مدى؟

يركز فرويد اهتمامه فى دراسته على إحدى ذكريات ليوناردو المبكرة. فيستطرد فى أول الفصل الثانى من دراسته قائلاً: «إذا أسعفتنى الذاكرة فلا أعتقد أن ليوناردو قد ذكر شيئا فى مذكراته العلمية عن طفولته إلا فصلا عن هروب النسور». عندها يتوقف فجأة فى كتابته ليتذكر حادثا يرجع إلى أولى سنى حياته، حيث يقول: «يبدو أنه قدر لى أن أهتم بالنسور، لأنى أتذكر فى بدء حياتى، بينما كنت فى مهدى إذا بنسر يهبط على، ويفتح فمى بذيله، ثم يلطمنى به عدة مرات على شفتى». وقد أفاض فرويد فى تفسير هذا التصور أو التخيل فى كتابه على أساس أن ليوناردو قد تخيل نسرا وليس حدأة. وإذا تناسينا هذا الخطأ الواضح، وافترضنا أن فرويد بنى تفسيره على أساس تخيل الحدأة فسنواجه أيضًا بعض الاعتراضات على افتراضاته.

ويشبه فرويد تخيل ليوناردو بما يلاحظه فى مرضاه فى أثناء التحليل النفسى، عندما يتذكرون فى طفولتهم أحداثا غير حقيقية لم تحدث إلا فى محض خيالهم. ويحتاج المرء إلى إظهار مثل هذه التخيلات الوهمية التى تركز على فترة خاصة فى أثناء الطفولة للتعبير عن رغبة لا شعورية مكبوتة. ولذا فقد كشف لنا فرويد، عن أن ليوناردو بتذكره لهذا التخيل إنما كان يعبر عن رغبة لا شعورية، فما هذه الرغبة؟

يعود بنا فرويد إلى الماضى، ويربط بين تخيل ليوناردو والفترة التى حدثت فى أثنائه، أى فى فترة الرضاعة واعتماده على ثدى أمه. إنه قد حول عملية امتصاصه لثدى أمه إلى حدأة تلطمه بذيلها على شفتيه. وهنا يكشف لنا فرويد أن تلك رغبة لا شعورية من ليوناردو لعملية الفلاشيو Felatio، وهى عملية جنسية تعنى بامتصاص القضيب بواسطة الطرف الآخر، أى أن ذلك تخيل للجنسية المثلية السلبية، ومن ثم يعبر بطريقة خفية عن رغبته اللاشعورية فى هذا الأمر.

ولكن لماذا يستبدل ليوناردو أمه بالحدأة؟ وكيف يتأتى أن يكون القضيب هو عضو ذكرى، بديلاً عن الثدى الأنثوى المعبر عن الأمومة؟ ومن أين جاءت هذه الجنسية المثلية السلبية؟ ونظراً للخطإ السابق ذكره فى الترجمة الألمانية، حاول فرويد الإجابة عن السؤال الأول مفسرا العلاقة بين النسر والأم، دون تطبيق هذا التفسير على الحدأة التى هى التخيل الأصلى لليوناردو.

يقدم لنا فرويد فى هذا الكتاب افتراضا موجزا عن حياة ليوناردو المبكرة بأنه كان طفلاً غير شرعى لامرأة تدعى كاترينا، وأن والده تزوج من سيدة أخرى لم تنجب له أى طفل، وتبنى ليوناردو عندما كان بين الثلاث والخمس من عمره. إذن فقد تركه والده مع كاترينا فى أولى سنى حياته فغمرته أمه بالحنان، واتخذ هذا الحنان لونا شبقيا، كمعظم الزوجات التعسات عندما ينقلن حبهن لأولادهن. ثم انقطعت هذه العلاقة فيما بين سن الثالثة والخامسة عندما ذهب إلى منزل أبيه وزوجته العاقر حيث بدأ ليوناردو فى كبت اهتماماته الجنسية، وبدأ يتقمص شخصية كاترينا، ويختار حبه مرادفا لذاته، وقد تسامى بهذا الكبت الشديد إلى نهم للاستطلاع وحب المعرفة.

ويتمادى فرويد فى تحليل استجناس ليوناردو بالإشارة إلى خلو حياته من أى اتصال عاطفى عقلى أو جسدى مع أي امرأة، وأنه أحاط نفسه دائما بالجمال من صغار الصبية وحبه لرغد العيش، ويتضح كبته الشديد للجنس فى بعض كتاباته ورسوماته من احتقاره للعملية الجنسية.

ويذكرنا فرويد أن كبت الحياة الجنسية التام لا يهيئ للفرد أحسن الفرص لإظهار مواهبه المتسامية. وقد ظهر ذلك فى ليوناردو عندما أصبح عاجزا عن اتخاذ قراراته الفنية، وبدأ فى التردد والتأخير فى إنهاء أعماله. مثال ذلك لوحته الشهيرة «العشاء الأخير».

فقد افترض فرويد أن انتزاع ليوناردو من أمه كان له أثر سيئ على

حياته، جعله يعتقد لا شعوريا أن والده قد أهمله في طفولته ولم يكفل له العناية الكافية، وتركه وحيداً في رعاية أمه. وكما يحدث دائما، تقمص ليوناردو شخصية والده في وقت متأخر، وسلكت صورته الاتجاه نفسه الذي سلكه والده ناحية أبنائه، فإذا هو لا يعتني بها ويعجز عن مواصلة الاهتمام بها ولا يعني بإتمامها إلى أن يسعد برؤيتها في صورتها الكاملة التامة.

لقد كان لهذا الحرمان الأبوي أثره البالغ على ليوناردو. فقد تصدى دائماً لفكرة الأبوية ونبذ السلطة، واعترض على آراء القدماء، وأصبح أول عالم طبيعة ثار على الكنيسة المسيحية خصوصاً لفكرة الأب الإلهي، ويرمز هذا التصدي الشديد للسلطة إلى نبذه لوالده وبالتالي اعتراضه على المسيحية.

ويعزو فرويد الرغبة في الطيران خلال الأحلام في التحليل النفسي إلى الشوق للجماع الجنسي، وإلى أن اهتمامات ليوناردو الجنسية في أثناء الطفولة تجاه والدته قد أحبطت ثم كبتت، ولم يجد منفذا يحل محل حنان أمه الدافق إلا الاتجاه إلى الاستجناس، وبالتالي عجزه عن تحقيق العملية الجنسية مع الجنس الآخر.

ويفترض فرويد أن ليوناردو قد مر في سن الخمسين بمرحلة تتميز بنشاط متقدم في شحنته الجنسية، وأن محتويات عقله اللاشعوري أصبحت في حالة يقظة ونشاط دائم، وقد التقى بالموناليزا «جيوكندا»

في أثناء هذه الفترة وقام بتصويرها إذ أيقظت فيه رؤية هذه المرأة الفلورنسية ذكرى أمه في أثناء طفولته .

وهنا تتضح لنا صورة الموناليزا ، ويذكرنا فرويد أن وجه هذه الصورة يعبر عن التناقض بين التحفظ والشهوة وبين الرقة والجنسية . ويرمز لنا هذا التناقض إلى ما لاقاه ليوناردو من والدته ، حتى أصبح لهذه الابتسامة الأبدية على وجه الموناليزا التى أثارت فيه ذكريات والدته وطفولته قوة قهرية مسيطرة عليه ، حتى إننا نجدها فى معظم أعماله بعد ذلك .

ويسترسل فرويد فى تفسير صورة «المادونا والمسيح الطفل والقديسة حنه» على أنها عمل رمزى لحياة ليوناردو الخاصة . فلقد اعتنت به أمه فى طفولته ثم احتضنته بعد ذلك زوجة أبيه العاقر ؛ وتعبر الصورة عن طفل فى عناية والدتين من نفس العمر وعليهما هذه الابتسامة المميزة .

إذن ما موقفنا إزاء تفسير فرويد التحليلى لحياة ليوناردو ؟ أول ما يتبادر إلى الذهن أن فرويد قد أخطأ فى بعض افتراضاته ، مما جعله يسترسل فى تفسيرات أصبحت الآن غير ذات معنى . فقد جاءت الأدلة حديثا بعد أن كتب فرويد دراسته ، على أن زوجة أب ليوناردو قد احتضنته فى سن مبكرة أكثر مما ظن فرويد . وحتى إذا افترضنا أنه مكث مع كاترينا أمه حتى نهاية السنة الأولى ، أى أنه أتم رضاعته منها ، لكان لمنطق فرويد وتفسيره له قيمته التحليلية ، ولكن إذا كان قد

وضع فى حضانة زوجة أبيه فور مولده فستختلف هنا نظرة فرويد لشخصية ليوناردو وشبقيته تجاه أمه وحرمانه العاطفى منها، وعندها قد يفسر المحللون النفسيون شخصية ليوناردو الانطوائية أو المظاهر الاكتئابية وكأنها قد أدت الدور الرئيسى فى حياته.

كذلك أشار فرويد فى الفصل الثالث عند الحديث عن نفقات مراسم دفن كاترينا إلى أنها والدة ليوناردو. ويختلف معه معظم المؤرخين المعاصرين فى صحة هذا الافتراض.

ويخطئ فرويد ثانيا فى تحليله لرسم ليوناردو لعملية الجماع الجنسى. فقد اعتمد فى مصدره عن هذا الرسم على محلل يسمى ريتلر Reitler، الذى اعتمد فى مقالته على أحد مستنسخات هذا الرسم، والفرق واضح بين المستنسخ؛ والأصل، فنلاحظ فى المستنسخ وجود قدمين أحدهما لرجل والأخرى لامرأة، أما فى الأصل فلم يتم ليوناردو الأرجل أو الأقدام. كذلك يصف ريتلر تعبيرات وجه الرجل على أنه يشعر بالتقزز والاشمئزاز من العملية، وأن التجاعيد واضحة مع النظر جانبا، أما فى الأصل فلا يوجد أي تجاعيد فى الجبهة، كما أن الرؤية ليست فى الاتجاه الجانبى وهو ما يجعلنا نشك فى صحة أخذ هذا الرسم كحجة أو برهان إضافى لكبت ليوناردو الجنسي. فالصورة تعبر عن الهدوء والطمأنينة كما وصفها سير كنيث كلارك، وليس كما ظن فرويد.

إذا تجاهلنا أخطاء فرويد فى استنباط الحقائق عن حياة ليوناردو،

واسترساله في تفسيرات مبنية على أخطاء واضحة في الترجمة أو في تاريخه الشخصي ، إذا تجاهلنا ذلك فسنواجه أيضا الكثير من النقائص العلمية في تفسيره لهذه الدراسة .

١ - يشير فرويد في فقرتين من كتابه إلى سلوك مرضى عصاب الوسواس القهري الذي شرحناه في هذه المقدمة ، ولكنه يتركنا حيارى إزاء كيفية نشأة هذا الوسواس المسيطر على حياة ليوناردو . ثم إننا لا نعرف مدى أهميته في دراسة شخصية ليوناردو إذ تولد هذا القهر المسيطر دون تفكير أو رؤية ، وذلك على عكس ما يبدو في الدراسة .

٢ - يذكر فرويد في محاولته لتفسير اهتمام ليوناردو بالطيران ، أن الطيران في الأحلام ما هو إلا تعبير عن رغبة لا شعورية في العملية الجنسية . وإذا افترضنا صحة هذه النظرية الجنسية لفرويد فلا نستطيع افتراض صحة تفسيره لتخيل ليوناردو . فلقد ادعى أن هذا الاهتمام من جانب ليوناردو تنبع جذوره منذ طفولته ، وأنه قد تحول إلى كبت جنسي وإلى شوق لا شعوري للعملية الجنسية . ولكن فرويد لا يذكر لنا لماذا تحول كبته الجنسي ورغباته اللاشعورية إلى الطيران ولم يتجه في تحوله إلى شيء اخر . وإذا كان من رأى فرويد أننا جميعًا نعاني من الكبت الجنسي ، إذن فهو لم يصف شيئا جديدا بالنسبة لليوناردو . وبتتبع دراسات التحليل النفسي نجد أنه في رأى المحللين النفسيين أن هذه الرغبة

اللاشعورية فى عملية الجماع تستعمل بديلا لكثير من الاهتمامات والنشاطات والصعاب الشخصية ، ولذا فلم يذكر لنا فرويد شيئا على جانب كبير من الأهمية.

٣- نعترض أيضا على افتراض فرويد أن نبذ ليوناردو للمسيحية سببه ثورته على السلطة الأبوية ، لنفس الأسباب السابق ذكرها ، كذلك تفسيره لتعطش ليوناردو للمعرفة وتعمقه فى العلم على أنه تسام لرغباته الجنسية المكبوتة تجاه والدته. وكما يقول فرويد قد يختلف الناس بعضهم عن بعض فى طريقة تساميهم برغباتهم الجنسية ، لكنه لم يذكر لنا لماذا اتجه ليوناردو إلى هذا الاتجاه.

٤- نستطيع تفسير تخيل ليوناردو للحدأة ولطمها له على شفتيه بطريقة مختلفة عن تفسير فرويد التحليلى. فقد انتشرت فى هذا العصر خرافة أن لمس الطير للطفل هو فأل ينبئ بالعبقرية والتمرد عند الكبر. فلقد قيل قديما إن النحل قد رسا بخفة على شفة أفلاطون ، ومن ثم أكسبه حلاوة اللسان والكلام. والعلاقة قديمة بين الطيور والتنبؤ بالعبقرية والإلهام بالفم ، كما كان هو موضع الحكمة والنبوة ، ودائمًا ما صور الثالوث المقدس فى مسيحية العصور الوسطى بذيل حمامة فى فم الله. أما فى وقت ليوناردو فكانت الأسطورة تقول إن أجنحة الطير الهابط تصل ما بين شفتى الله والابن. ومن هنا لم يكن تخيل ليوناردو أمرا غريبا أو شاذا إذا أخذنا فى الحسبان التفكير السائد وقتذاك.

٥ ـ أما عن تصوير ليوناردو للقديسة حنه شابة صغيرة السن ، فلا غرابة في ذلك فقد كانت صورتها مع العذراء تظهر دائما على هذا النمط . وشباب القديسة حنه هو نتيجة للتفكير الديني المثالي السائد خلال عصر النهضة ، حيث جرت العادة بتصوير القديسات على هيئة عذراء طاهرة جميلة . ومن هنا فلا يوجد ما يدعو فرويد إلى حسبان رسم ليوناردو للقديسة حنه لغزا محيرا يعبر عن شوقه لأمه ، ومن ثم فلا داعي لتلك القصة التحليلية التي ساقها فرويد لتفسير هذا اللغز .

٦ ـ أخطأ فرويد في قوله إن ابتسامة الموناليزا لم تظهر في أي عمل سابق ، فنحن نجدها فيما يعرف بالكرتون اللندني للقديسة حنه ، والذي صور عام ١٥٠٠ قبل معرفة الموناليزا المبكرة في التصوير ، كما نلاحظ تلك الابتسامة في الفن الفلورنسي قبل ظهور ليوناردو .

ونرجو أن تكون قد وفقنا في إعطاء القارئ فكرة واعية عن كيفية دراسة تراجم العظماء عن طريق التحليل النفسي وما يتبعه من عقبات ومصاعب ، وكذا مزايا ومضار تطبيق هذا العلم على بعض الشخصيات الشهيرة ودقة التفصيلات التي يعتمد عليها المحلل في دراسته ، مما يجعل البحث عبارة عن سلسلة مستمرة من التدريبات العقلية .

جرت العادة بأن تعتمد أبحاث الطب النفسي والعقلي على مادة مستمدة من الشخصيات الضعيفة ، ولكن عندما تتناول واحدا من

أعظم ما أنجبت الإنسانية فالأغلب أن يثير ذلك الاستنكار بين العامة. وقد آن الأوان كي نعلم أنه ليس من غرض هذه الأبحاث الانتقاص من قدر الرفيع أو الهبوط بحق اللامع، وكذلك هي لا تحاول تقريب الهوة بين الكمال الذي يتمثل في هذا العظيم وبين قصوره في عمل ما يكون عادة موضع البحث، وتخطئ إذا اعتقدنا أن فهم حياة هؤلاء العظماء يتأتى بالاقتصار على دراسة أعمالهم الجليلة فحسب. ويزيد خطؤنا إذا تصورنا أن وضعهم تحت قوانين الدراسة المرضية سيؤثر في قيمتهم وأثرهم الفني.

لقد كان ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) محط إعجاب عظام معاصريه خلال عصر النهضة بالرغم من أنه كان وما يزال لغزا بالغ التعقيد، ولا نستطيع أن ننكر حقيقة أن ليوناردو أحب عباقرة التاريخ القلائل إلينا. ولقد يسهل علينا أن نتصور حدود عبقريته ولكن يستحيل علينا تعريف مداها وحدودها. إن تأثيره في التصوير واضح منذ زمانه، ولكننا لم نتبين إلا حديثا عظمته بوصفه عالما طبيعيا ومعماريا بالإضافة إلى فنه.

وبالرغم من أنه قد ترك وراءه منجزات نادرة من الصور بالرسوم فما زال الكثير من اكتشافاته العلمية في طي الكتمان. ونادرا ما نجد الباحث في تاريخ ليوناردو قد تركه دون أن يبخس من حقه شيئا. وقد ذكر فاساري Vasari أن ليوناردو في ساعاته الأخيرة قد أحس بتأنيب الضمير لأنه أغضب الله والإنسانية بعجزه عن استكمال رسالته في الفن. وحتى إذا لم يكن ثمة نصيب من الصحة فيما قاله فاساري، أو

أن ما ذكره ما هو إلا إحدى الأساطير الكثيرة المتداولة حول الفنان الغامض، فإنها تدل على المعتقدات السائدة بين الكثير من معاصرى ليوناردو وقتذاك. ترى ما السبب الذى جعل معاصريه عاجزين عن فهم شخصيته؟

إن تعدد مواهب ليوناردو واتساع معرفته قد مكنتاه من التردد على قصر دوق ميلانو «لودوفيكو سفورزا» Lodovico Soforza ليعزف على عود من اختراعه، وكذلك لتوجيه خطابه الشهير لنفس الدوق الذى تباهى فيه بما أنجزه بوصفه معماريا ومهندسا معماريا.

نعلم أن الجمع بين الكثير من المواهب كان أمرا مألوفا خلال عصر النهضة الإيطالية، بيد أن هذا لن ينسينا أن ليوناردو كان من أبهر وألمع الأمثلة على ذلك، خاصة أنه لم يكن مثل غيره من العباقرة الذين امتلئوا بالعقد النفسية من جراء ما أصابتهم به الطبيعة من تشويه فى مظهرهم الخارجى، ومن ثم تجلت عقدهم فى معاملاتهم للناس، بل كان طويل القامة جميل المظهر قوى البنية فاتن الخلق بليغ الحديث محبوباً من الجميع. لقد تذوق الجمال فيما حوله وتعلق بالثياب الفخمة الأنيقة وكل ما هو مترف فى الحياة.

وقد استعرض مقدرته على التمتع بالحياة فى جزء من رسالته عن التصوير عندما قارنه بالفنون الأخرى. فهو يصف ما يقابله المثال من صعاب بقوله: على حين يبدو وجه المثال على غرار الخباز مغبرا بالتراب مغطى بآثار الرخام، كأنما تساقطت من السماء ندف الثلج

فغشت ظهره وتناثرت شظف الأحجار في داره . . يجلس المصور أمام لوحته في راحة تامة مرتديا أفضل ثيابه ممسكا بأخف ريشة يغمسها في أبهج الألوان، مرتديا بما يتراءى له من ثياب وقد تراكمت الرسوم الجميلة في مرسمه . وعادة ما تصحبه الموسيقى في أثناء الرسم، أو يستمع إلى أحد الأصدقاء يتلو عليه بعض المقطوعات الأدبية، فيصغي دون الاضطرار إلى الإنصات إلى دقات المطرقة وضربات الأزميل وغيرها من الأصوات المزعجة .

وتعد أيام ليوناردو المبكرة أبهج فترات حياته، إذ إنه اضطر بعد سقوط حكم لودوفيكو مورو إلى مغادرة ميلانو مركز نشاطه، ومحور أمانه ليخطو صوب حياة تخلو من الأمان قد لا تحقق له ما يرنو إليه من نجاح، إلا أنه وجد ملاذه أخيراً بفرنسا بعد أن فقد شعلة المرح وتجلت بعض الجوانب الغريبة في طبيعته .

وقد اتسعت الهوة بينه وبين معاصريه بعد أن ركز اهتمامه في العلوم بدلاً من الفن، مما جعلهم يحكمون عليه بأنه أضاع وقته في نزوات تافهة في خدمة الفن الأسود، ناسين أنه كان بوسعه أن يسترسل في التصوير ليصبح مثل ثراء زميله في الدراسة بيروجينو Perugino .

إن ما نعلمه الآن عن كتابات ليوناردو تجعلنا نقترب من فهمه . ففي العصر الذي حلت فيه التقاليد القديمة محل سلطة الكنيسة كان ليوناردو الرائد بل المنافس لبيكون Bacon وكوبرنيق Capericus وحيدا منعزلاً عن الجميع .

إن أبحاثه فى تشريح جثث الإنسان والحيوان وتصميمه للآلات والطائرات ودراسته فى غذاء النبات وتفاعله مع السموم جعلته يبعد عن عشاق أرسطو ويقترب من الكيمياويين المنبوذين الذين كانت معاملتهم فى هذا الوقت مرتعا للأبحاث التجريبية . وبناء على هذا الاهتمام أهمل فرشاته ورسومه وخلف صورا كثيرة دون أن يتمها . وقد أخذ عليه معاصروه إهماله شأن منجزاته الفنية وعدُّوا موقفه إزاء فنه لغزا أبديا . لقد حاول الكثيرون من المعجبين بليوناردو تبرئته من تهمة عدم التوازن ، وقالوا فى دفاعهم عنه إن ما نأخذه عليه ما هو إلا صفة عامة لكل الفنانين ، وضربوا لنا المثل بمايكل أنجلو النشيط الذى وهب حياته لأعماله الفنية ومع ذلك ترك البعض منها دون أن يتمها .

ويستطردون فى دفاعهم ليقولوا إن عدم استكمال رسومه لم يكن ملحوظا إلا بعد أن أعلن ذلك بنفسه . وما يبدو للمشاهد أحد معالم الرسوم أحيانا ما ينظر إليه الفنان الخالق كعمل غير مرض أو مقصود ، وأنه لمن الظلم أن نحمل الفنان مصير أعماله بالرغم من صحة بعض ما روى عن هذا الصدد . وما ذكرناه هنا لا يحوى كل الأمور التى سنصادفها عند ليوناردو ، فكفاحه فى أعماله ثم هروبه النهائى منها والموقف السلبى الذى اتخذ تجاه مصيرها نجده فى كثير من الفنانين . غير أن سلوك ليوناردو قد فاقهم كثيرا .

ويقول سولمى Solme (1910) بالرغم من أن ليوناردو لم يتم أى عمل بدأه ، فإنه كان يرتجل معظم الوقت فى أثناء إعداد نفسه للرسم ،

وغالبا ما كان يجد عيوبا فى أعمال الآخرين يضعونها فى مصاف المعجزات. ومرجع ذلك إلى تقديسه للفن ووضعه شامخا فى المكان اللائق به، فهو يتم معظم صوره الرائعة الأخيرة مثل «ليدا» Leda «المادوناى دى سانت أونوفروى Madonna di Sant Onofroi وباكخوس Bacchus والقديس الفتى يوحنا المعمدان St. John The Bepust وقد أشار لومازو Lomazzo الذى نقل صورة «العشاء الأخير» فى قصيدته عن مقدرة ليوناردو الخارقة فى عدم إتمام أعماله، إن بروتوجينس Protoge-ness الذى لم يرفع فرشاه من فوق لوحاته يتساوى مع فينشى الإلهى الذى لم يتم أى شيء».

كان بطء ليوناردو مضرب الأمثال، فقد رسم لوحة «العشاء الأخير» فى صومعة سانتا ماريا ديل جراتزى Santa Maria Dell Grazie بميلانو بعد دراسات وأبحاث مستفيضة استمرت ثلاث سنوات، ويذكر ماتيو بانديللى Matteo Bandelli الكاتب القصصى والمعاصر لليوناردو الذى كان فى ذلك الوقت أحد رهبان الدير، أن ليوناردو كان يتسلق الصقالات فى الصباح الباكر يزاول عمله دون أن يضع فرشاته جانبا ودون تفكير فى طعام أو شراب حتى الغسق، ثم تمر أيام دون أن يلمس الفرشاة. وكثيرا ما كان يتأمل الصورة بالساعات دون ملل، وأحيانا كان يقصد ميلانو حيث يقوم بنحت تمثال لفرنشيسكو سفورزا لكى يضيف بعض التصويبات والتعديلات لينصرف بعدها فورا.

ويذهب فارارى إلى أن ليوناردو استمر فى رسم لوحة موناليزا مدة

أربع سنوات ، وكانت لزوجة الفلورنسي فرنشسكو ديل جيوكوندو Francesco Giocondo دون أن يستطيع إتمامها ولم يسلمها إلى ممولها ، وأن ليوناردو قد أخذها معه إلى فرنسا حيث اشتراها منه الملك فرنسوا الأول وإذا هي الآن إحدى كنوز متحف اللوفر العظيمة .

ونستطيع استبعاد الفكرة السائدة عن عدم اتزان علاقة ليوناردو بفنه ، إذا قارنا بين التقارير التي كتبت في حقه وبين الدراسات واللوحات المذهلة التي تركها وراءه ، حيث نلاحظ أعماله وعمقها التي تبين لنا استحالة بلوغه هذه المرتبة إلا بالتأني والوسوسة وأحيانا بالامتناع عن التنفيذ . وقد كان بطؤه الظاهر في أعماله عرضا لهذا التوقف الذي سبق انسحابه من ميدان التصوير ، وذلك ما حدد مصير «العشاء الأخير» . فإن ليوناردو لم يرض برسوم الفرسكو Fresco التي تحتاج إلى الإسراع في الإنجاز بينما ما تزال الأرضية رطبة ، بل آثر التصوير بالزيت الذي يحتاج لوقت أطول للجفاف ومن ثم وقت أطول لتأمله كي يلائم مسراته ومزاجه . وللأسف سرعان ما انفصلت الصبغة عن الأرضية بالإضافة إلى عيوب الحائط ومصير البناء نفسه وبذلك حددت كل هذه العوامل المصير المحتوم لإصابة اللوحة بالبلى .

ولقد سببت تجربة فنية مشابهة تحطيم لوحة «معركة أنياري» Battle of Anghiari التي دخل بها المباراة مع مايكل أنجلو في صالة ديل كونسليو بفلورنسا والتي لم يتمها أيضا . ويتجلى هنا الدليل الغريب على تأرجحه بين الحماسة لفنه وبين تبرمه به .

لقد أظهرت شخصية ليوناردو الكثير من الصفات من جمود وعدم مبالاة . وفي الوقت الذي حاول فيه كل إنسان إيجاد مجال لنشاطه - هدف من الصعب تحقيقه بدون طاقة عدوانية على الناس - كان ليوناردو غارقا في هدوئه متجنبا الجدل والمنازعات، كريما في خلقه مع الجميع ، حتى لقد امتنع عن أكل اللحوم إيمانا منه بقسوة قتل الحيوانات . وكان يجد لذة كبيرة في إطلاق سراح الطيور بعد شرائها ، كما هاجم وأدان الحرب ووصف الإنسان بأنه ليس ملك المملكة الحيوانية بل أسوأ من الحيوانات المتوحشة .

ولم تمنعه هذه الرقة الأنثوية العاطفية من أن يصاحب بعض المجرمين في أثناء تنفيذ حكم الإعدام عليهم، لكي يدرس ملامح الرعب والخوف مرتسمة على وجوههم، ومن ثم يستطيع بثها في لوحاته . كذلك لم تمنعه هذه الرقة من اختراع أشد أنواع الأسلحة فتكا ودخول خدمة سيزار بورجيا بوصفه مهندسه الحربي ، وظهر وكأنه لا يبالي بعنصري الخير والشر أو كانت له طريقته الخاصة في قياسهما . لقد شارك مع سيزار في حملته الحربية التي جعلت روما ملكا لألد أعدائها ، ولم يسطر ليوناردو في مذكراته ما يدل على ندمه على هذه التصرفات ، وهو ما يذكرنا بموقف جوته في أثناء الحملة الفرنسية .

وإذا أردنا دراسة حياة ليوناردو العقلية ، فعلينا أن ندرس حياته الجنسية دون أن نمر عليها مرور الكرام . وما كتب عنه في هذا المضمار قليل ، وبالرغم من قلته فله قيمته التحليلية . كان الصراع شديدا في

هذا الصدد بين الشهوانية المطلقة دون قيود والزهد الكئيب . ولم يتوقع أحد من فنان يصور جمال المرأة أن ينبذ الجنس كما فعل ليوناردو. وقد استشهد سولى كدليل على بروده الجنسى بقول ليوناردو : «إن عملية الإنجاب وكل متعلقاتها تثير الاشمئزاز ، ولولا وجود الوجه الحسن والطبائع الشهوانية وهى عادة قديمة للتداول لهلكت البشرية» .

ويظهر التناقض التام فيما نشر بعد موته من مؤلفات علمية عظيمة وتفاهات يصعب تصديقها بأنها قد صدرت عن عقل مفكر عظيم كليوناردو ، الذى كان يتجنب التصوير الجنسى وكأنما إله الحب غير جدير بالالتفات إليه . ومن المعروف أن معظم الفنانين كانوا يطلقون العنان لتصوير المواقف الجنسية والإباحية ، على حين اتجه ليوناردو اتجاهاً عكسيا ، ولم يصور غير رسومات تشريحية لأعضاء الأنثى الجنسية مع موضع الجنين فى الرحم .

إن فشل ليوناردو فى نقل صورة صحيحة لعملية التكاثر يعود لكبته الجنسى الشديد ، وهو يرسم جسم الرجل كاملاً ، ثم يصور جزءا بسيطا من جسم المرأة . وإذا أمعنا النظر فى الرسم مع تغطية جزئه الأسفل لتبينا التموجات الجبهية الممتدة للظهر والتى تعطى الوجه سمة سيدة . كذلك نجد خطأين ظاهرين فى ثدى المرأة : أولهما من الناحية الفنية حيث يبدو الثدى متهدلاً على الصدر فى صورة غير مرضية . وثانيهما من الناحية التشريحية ، فلقد فات ليوناردو إزاء

تجنبه للناحية الجنسية أن ينظر إلى حلمة الثدى بنظره فاحصة ، فلو أنه فعل ذلك لفطن إلى أن لبن الرضاعة يفرز من عدة قنوات لبنية وليس من قناة واحدة تمتد للتجويف البطنى .

ونستطيع إعطاء العذر لليوناردو لصعوبة إمكانية التشريح الجسدى فى ذلك العصر ، إذ كان يعرضه لعقاب القانون . وإذا تسامحنا إزاء قلة معرفته التشريحية فالحقيقة واضحة بأنه أهمل دائما أعضاء الأنثى التشريحية فى صوره ، وزاد اهتمامه بأعضاء الذكر فيرسم الخصية ومحتوياتها بتفصيلات دقيقة . والوضع المنتصب الذى اختاره ليوناردو لتصوير عملية الجماع الجنسى شيء نادر فى عمل فنى ، مما يدل على عمق الكبت الذى يعانيه والذى جعله يختار هذا الوضع العجيب . فعندما يريد الإنسان أن يستمتع يختار لنفسه وضعا مريحا لكى يهيئ لنفسه المتعة القصوى ، زد على ذلك ما نراه فى الرجل من تجاعيد جبينه ونظرته الجانبية وشفتيه المزموتين وتعابير الاشمئزاز والاستعلاء المرتسم على وجهه بدلاً من سعادة شبق الحب والاستغراق فى اللذة .

ويتفاقم خطؤه حين صور الساقين ، فكان عليه أن يرسم ساق الرجل اليمنى بينما أخذ القطاع الجانبى وبذلك وجب عليه أن تكون ساقه اليسرى أعلى من قطاع الصورة ، بينما عكس ذلك فى تصويره للمرأة عند رسم ساقها اليمنى بدلاً من اليسرى . وما نراه هنا هو محاولة ليوناردو اللاشعورية لقلب صورة المرأة إلى رجل الأمر الذى نستنتج منه أن كبته الجنسى قد أدى إلى هذا الارتباك .

وقد قوبلت كتابات ريتلر بالنقد اللاذع لتسرعه فى الحكم على شخصية ليوناردو من خلال عجالة تخطيطية يشك البعض فى أن عناصرها المختلفة تنتمى بعضها إلى بعض.

وقد كثر الجدل حول ما هو معروف من أن ليوناردو لم يستمتع خلال حياته بمعانقة أي امرأة، أو أنه انخرط فى علاقة عاطفية فكرية مثل علاقة مايكل أنجلو مع فيكتوريا كولونا، بينما أثيرت حوله الشكوك بشأن علاقة استجناسية فى أثناء تدريبه فى مراسم أستاذه فيروكيبو Verrocchio اضطرته إلى ترك مكان عمله، وقد أدى به استخدامه صبيا ذا سمعة سيئة كنموذج موديل إلى أن تحوم حوله الشبهات. وقد أحاط ليوناردو نفسه بعد أن أصبح أستاذا فى فنه بعدد من الغلمان والتلاميذ الحسان ليتتلمذوا عليه. وقد اصطحب معه آخرهم فرنشسكو ميلزى Francesco Melzi إلى فرنسا حيث مكث معه حتى وفاته ومن ثم أصبح وريثه بعد ذلك. ونحن إذا لم نجزم بصحة رواية معاصريه بنبذ فكرة الجنسية المثلية فى علاقته بتلاميذه، إلا أننا نوافق على أن عاطفته نحوهم لم تصل إلى علاقة جنسية بالمعنى الحرفى لضعف نزعته الجنسية عامة.

والطريق الوحيد لدراسة غرائب حياته الجنسية والعاطفية هي بالتنقيب في ازدواج طبيعته كفنان وكباحث علمى. وإن حاولنا أن نبحث عن دراسة نفسية لليوناردو، فسنجدها فيما سجله إدموندو سولمى Edmondo Solmi. أما الكاتب ديمترى سيرجيفيش ميريزكوفسكى

Dimitry Sergeyvich Merezkovsky ، فـقـد اتخذ ليـونـاردو بطـلاً فى إحدى رواياته التاريخية ووصفه بطريقة كتاب القصص. وقد ذهب سولمي إلى أن رغبة ليوناردو الجامحة لمعرفة كل شيء حوله واستقصائه أعـماق الكمـال بروح من التـعـالى، كل ذلك أدى إلى عـدم إنهـاء أعماله.

وقد أفضى ليوناردو فى مقال فى «كونفرنز الفلورنسية» بما يعبر عن إيمانه، ويلقي الضوء على طبيعته قائلاً: «ليس من حق الإنسان أن يبغض أو يحب أى شيء دون أن يستكمل معرفته الشاملة بطبيعته». وفى مقال آخر عن التصوير نراه مدافعا عن تهمة الإلحاد فيقول: على هؤلاء النقـاد المنددين به أن يلزمـوا الصـمت، ومن خـلال صـمـتـهـم سيتعرفون بخالق هذه الأشياء الجميلة حولنا، وهذا هو السبيل إلى حب الخـالق العظيم وعـبـادته، فـإن الحب القـوى ينبع من مـعـرفـة المحبوب ولن تستطيع أن تحبه إلا إذا علمت القليل عنه، وإن استطعت فسيكون ذلك بقدر ضئيل. ولا يجوز أن نأخذ حديث ليوناردو كحقيقة سيكولوجية ثابتة فإنه كـان مثلنا يزيف مـا يدعى، وبأنه لا يوجد أساس من الصحة لاستطاعة الإنسان تأجيل حبه أو كرهه حتى ينتهى من دراسة الحب أو المحبوب. والعكس هو الصحيح، فإن الحب ينطلق من غرائز عاطفية ليس لها علاقة بالمعرفة.

وفى اعتقادنا أن ما عناه ليوناردو هو محاولة التحكم فى الحب وألا يدعـه يسير فى مجراه حتى يمر خـلال العقل والمعرفـة كـمـا نهج فى

حياته، وأنه من الأفضل أن يعامل الآخرون الحب والكره كما عامله هو. وقد انعكست هذه النظرية على قوة تحكمه في عواطفه ووضعها تحت سيطرة البحث، فهو لم يذق طعم الحب أو الكراهية، ولكنه تساءل عن كيفية ومعنى سلوك من يحب، ولذا بدا وكأنه لا يبالى سواء بالفضيلة والرذيلة أو بالجمال والقبح.

ونستطيع أن نجرد حياة ليوناردو من العاطفة، فهو لم يفتقر إلى الشعلة المضيئة أو القوة الدافعة وراء كل نشاط بشرى، ولكنه حول عاطفته إلى ظمإ للمعرفة ووهب نفسه للبحث فى أناة ومثابرة. قد وصل إلى ذروة أعماله الفكرية عندما اكتسب المعرفة الكافية وأتاح لعواطفه المكبوتة أن تتدفق منه كالماء المنساب من النهر. وقد تبينت له عاطفته عندما تمكن من عرض ترابطه الفنى فى ذروة اختراعاته، فإذا هو يمتدح الخليقة بلغة فاتنة بعظمة الخالق فى أسلوب روحانى.

وقد أدرك سولى هذا التحول فى ليوناردو وعلق على كلمته حول قانون الطبيعة عندما قال: إن تجلى العلوم الطبيعية فى العاطفة الدينية هو أحد خصائص ليوناردو. وقدم مئات الأمثلة على ذلك.

وقد سمى ليوناردو بفاوست الإيطالى، نظرا لعشقه النهم للمعرفة، وإن كان يوجد بعض الشك فى احتمال تحول غريزة البحث إلى استمتاع بالحياة (تحول أساسى فى مأساة فاوست) فيستطيع مجازفة تشبيه تطور ليوناردو بطريقة تفكير سبينوزا. ونحن نفقد بعض النشاط العضوى بتحول قوة الغريزة النفسية إلى أنواع النشاط المختلفة.

وقد ضرب ليوناردو أمثلة كثيرة تؤيد هذا المعنى. فتأجيل الحب حتى معرفة المحبوب تعنى أن المعرفة ستحل محل الحب، وأن الرجل الذى شق طريقه للمعرفة لا يستطيع أن يكره أو يحب، بل هو يسمو عن هذه العواطف. وهذا ما يؤيد ما نشاهده فى حياة ليوناردو وخاصة إذا قارناه بغيره من الفنانين من ناحية خلو حياته من الحب، وكأنما العواطف العارمة التى اجتاحت غيره من الفنانين وألهمتهم لم تمسسه. وقد نسى ليوناردو فى غمره إعجابه بعظمة الكون ذاتيته ونسى أنه جزء من القوى التى غيرت اتجاها معينا فى هذا الكون الذى يقدر جمال هنات الأمور وكبرياتها.

وقد بدأ ليوناردو أبحاثه فى خدمة الفن كما ذكر سولمى، واتجه بنشاطه نحو قوانين الضوء ورسم المنظور حتى يتأكد من إمكانية سيطرته على محاكاة الطبيعة ليكون قدوة يقتدى بها غيره. ولا شك فى أنه قد بالغ فى أهمية هذه الفروع من المعرفة، وقد أخذ بعد ذلك فى موضوعات تصوير الحيوانات والنباتات ثم مقاييس جسم الإنسان الخارجية ثم التشريح الداخلى ووظائف الأعضاء. وأخيراً دفعت به غريزة المعرفة بعيداً عن الفن ليبدأ اكتشاف القوانين العامة للميكانيكا، وتنبأ بتاريخ الترصيص فى الطبقات (التنضيد) والاستحجار (التحول من الحالة العضوية إلى الحالة المعدنية) فى وادى نهر آرنو Arno، واستطاع تخليد اكتشافه بحروف بارزة فى كتابه بقوله إن «الشمس لا تتحرك».

وقد امتدت أبحاث ليوناردو إلى جميع فروع العلوم الطبيعية . وبالرغم من أنه كان رائداً في اكتشافاته ، فإنه اتجه دوما نحو العالم الخارجي مما جعله بعيداً عن أسرار عقل الإنسان . وبالرغم من تصويره البديع لكثير من شعارات أكاديمية البندقية Academia Vincica-na ، فإن وقته لم يتسع للبحث في علم النفس .

وعندما حاول العودة بأبحاثه إلى عالمه الفني الأول ، وجد نفسه مشوش التفكير مدفوعا إلى أن يخلق أكثر من مشكلة في صوره ، تماما كما واجه المشكلات الكثيرة في أبحاثه اللانهائية عن الطبيعة ، وبات عاجزا عن تحديد مطالبه . وكثيرا ما ترك أعماله دون أن ينهيها بعد أن استغرقت منه وقتا وجهدا مضنيين . لقد أصبح الفنان الذي اتخذ من «الباحث» خادماً بعينه عبداً خاضعا لهذا الباحث .

ولزاما علينا أن نجد تفسيراً لتطوير الغريزة إلى قوة خارقة في شخصية الإنسان كما حدث مع ليوناردو في غريزة التعطش إلى المعرفة . فقد أدت دراستنا التحليلية لمرضى الأمراض النفسية إلى أن نتنهي إلى فرضين :

أولهما : نشاط هذه الغريزة القوية منذ الطفولة ، وأن التسامي بها قد تطبع في حياة الطفل .

وثانيهما : تعزيز هذه الغريزة بقوة الغريزة الجنسية التي ستحل مكانها خلال فترة من حياة الشخص المقبلة .

وعلى هذا الأساس نجد أن مثل هذا الشخص سيهب نفسه للبحث بنفس العاطفة التى كان سيهبها غيره للحب. ونحن نشهد كل يوم كيف ينجح الإنسان فى توجيه جزء كبير من غرائزه الجنسية نحو نشاطه العملى.

وقد تطورت هذه الغريزة فى قدرتها على التسامى وفى استبدال الإرضاء السريع بأهداف أسمى غير جنسية. ونحن نؤمن بهذه العملية طالما أن تاريخ الطفولة قد أوضح أن هذه الغريزة القوية كانت فى خدمة التأثير الجنسى. ومما يؤيد هذا القول، ضمور الحياة الجنسية فى بعض الشباب كأنما قد استبدلوا بجزء من نشاطهم الجنسى هذه الغريزة القوية.

وقد يصعب تصديق المرء بأن للأطفال غريزة قوية سواء جنسية أو غيرها، ولكن سرعان ما تزول هذه الصعوبة عندما نعلم أن أسئلتهم التى لا تنقطع مهما تكن إجابتنا لهم عنها، إنما تعبر وترمز إلى السؤال الذى لا يجرءون على أن يسألوه. فإذا ما نما الطفل وازدادت معرفته، توقف حب الاستطلاع فجأة. وقد شرح لنا التحليل النفسى أن معظم الأطفال أو على الأقل الموهوبين منهم يمرون خلال فترة الثالثة من عمرهم بالمرحلة التى ندعوها «بالأبحاث الجنسية الطفلية». ولا تنشأ هذه الظاهرة إلا إذا أثارها حدث مهم كولادة أخ أو أخت صغرى، أو خوف من ظاهرة خارجية وفيها يتبين الطفل خطورة الموقف على ذاته. وكثيراً ما يتساءل الآباء عن كيفية إجابة أسئلة أبنائهم خاصة عندما يسألون: كيف جاءوا إلى هذه الحياة؟

وقد ندهش إذا علمنا أن الأطفال عادة ما يرفضون تصديق فتات المعلومات التي تعطى لهم، مثل خرافة طائر القلق ومعناها الأسطورى، ودائما ما يثبتون استقلالهم الفكرى بعدم تصديقهم رواية آبائهم. وأحيانا لا يغفرون هذه الخدعة، ومن ثم يحاولون معرفة الحقيقة بطرقهم الخاصة النابعة من غرائزهم، ويفترضون مجيئهم عن طريق الطعام أو أنهم ولدوا من خلال المستقيم أو من خلال الدور الغريب الذى لعبه الوالد. ويبدأ الأطفال فى هذه الفترة الإلمام بشيء يسير عن العملية الجنسية التى تتراءى لهم عملية وحشية عدائية. وغالبًا ما ينتهى تنقيبهم دون الاهتداء إلى إجابة شافية، وذلك لأن تركيبهم الجنسى لم يصل بعد إلى تصور عملية إنجاب الأطفال، وغالبًا ما ترسخ عميقا فى عقولهم هذا الفشل الأول فى تاريخ استقلالهم الفكرى.

وتنتهى فترة الاستطلاع الجنسى للطفل بعملية كبت تؤدى إلى ثلاثة منافذ لها علاقة بالاهتمام الجنسى: أولاً، أن فترة الاستطلاع تتبع مصير الغريزة الجنسية فى حرمان الشخص من حب الاستطلاع وبالتالى التأثير على نشاطه الفكرى الحر وتحديده طوال حياته، خصوصًا أن هذه الفترة تليها فترة النهى الدينى التى يستهدف لها الأطفال، ويؤدى الضعف الفكرى خلال هذه الفترة إلى نشأة الأمراض النفسية.

ثانيا، تتغلب قوة التطور الفكرى على عملية الكبت الجنسى وعند

انتهاء فترة استطلاع الطفل الجنسى، يتم الترابط بين الفكر والجنس ويعود النشاط الجنسى المدفون فى اللاشعور على هيئة قهر فكرى قوى يكسب التفكير صبغة جنسية ويلون العمليات باللذة والقلق تمامًا كالعملية الجنسية. ويتناب الإنسان عندما ينتهى من مشكلة عقلية شعور يأخذ محل الإرضاء الجنسى. غير أن الأفكار القهرية تستمر دون أن تنتهى. وكلما وجد المرء خلالها تبين له أن هذا الحل صعب المنال.

والطريقة الثالثة، وإن كانت أندرها، إلا أنها أكملها وبها يهرب الإنسان من الحرمان الفكرى والتفكير القهرى. ولا شك فى أن الكبت الجنسى له دوره هنا أيضا ولكنه لا يوجه أى جزء من الغريزة الجنسية إلى اللاشعور. وتتسامى الطاقة الجنسية من البداية إلى حب للاستطلاع والبحث، ومن ثم يصبح البحث إلى حد ما قهريا وبديلاً للنشاط الجنسى. ولكن نظرا للاختلاف التام للعوامل النفسية المسببة لهذا المخرج للكبت (التسامى بدل الإفصاح من اللاشعور) نلاحظ خلو المرء من العصاب. ولا يوجد هنا أى ارتباط بالعقد الأصلية فى مرحلة استطلاع الطفل الجنسى، ولذا تعمل الغريزة حرة فى خدمة الفكر. ويزيد الكبت الجنسى الغريزة قوة بإضافة الطاقة الجنسية المتسامية، ولكنه يستمر يعمل بتجنيب النواحى الجنسية.

وإذا حاولنا تطبيق هذه المعلومات على ليوناردو من ناحية نهمه الغريزى نحو العلم والبحث وضمور حياته الجنسية، لتبين لنا أنه يتبع

النوع الثالث . ويبدو أن محور طبيعته وسرها يتركزان فى نجاحه فى التسامى بطاقته الجنسية إلى الظمإ نحو المعرفة . ولكى نثبت ذلك علينا البحث فى أولى سنى طفولته . ومن الصعب تحقيق ذلك نظرا لندرة المعلومات المكتوبة عنه وعدم التأكد من صحتها . ونحن لا نعرف عن طفولته إلا أنه ولد عام ١٤٥٢ فى بلدة فينشى Vinci الصغيرة بين فلورنسا ورامبولى . وهو وإن كان طفلاً غير شرعى إلا أنه لم يكن ينظر له بمنظار أسود كما هو الحال الآن . وكان والده سير بيرو دافنشى Ser Piero De Vinci مسجلاً ، ينتمى إلى إدارة المسجلين والفلاحين الذين أخذوا اسمهم من مدينة دافنشى . أما أمه فكانت فلاحة تزوجت أحد أبناء هذه المدينة ، ولا تظهر هذه الأم بعد ذلك فى حياة ليوناردو بصرف النظر عن رأى ميريزكوفسكى القصصى الذى يعتقد أنه استطاع أن يجد أثراً لها .

والحقيقة التى نعرفها عن طفولة ليوناردو هى ميثاق رسمى لتسجيل الضرائب عام ١٤٥٧ يذكر فيها ليوناردو بوصفه طفلا غير شرعى لسير بيرو فى الخامسة من عمره ، ولم ينجب سير بيرو بعد زواجه من دونا ألبيرا أى طفل ، ولذا فقد نشأ ليوناردو فى منزل والده ولم يتركه إلا عندما دخل ستوديو أندريا ديل فيروكيو للتدريب . ولم تزد معلوماتنا عن طفولته عن ذلك إلا وجود اسمه فى قائمة أعضاء كبادنيادى بيتورى عام ١٤٧٢ .

بورتريه «فان جوخ» للدكتور جاشيه

صورة معبرة عن المناخوليا (المزاج السوداوي) في العصر الحديث

*** تشخيص حالة الفنان «فان جوخ» والجدل المثار حولها:**

هناك الكثير من الجدل والاختلاف حول تشخيص تلك النوبات التي كان الرسام العالمي «فان جوخ» يعاني منها: فبينما تكلم «ياسبرز» عن احتمال الفصام كتشخيص قائم، عارض آخرون هذا الافتراض متعللين بأن رسومات وكتابات فان جوخ لا توحي بذلك. واقترح آخرون «الصرع النفسحركي» تفسيرا مقبولا، بينما عزى بعضهم نوبات القلق والتوتر التي كانت تعترى الفنان إلى سوء استخدام مادة «الإبسنت».

ونظرا لأن «فان جوخ» كانت نوباته من الاكتئاب وعسر المزاج تعتريه باستمرار، فلقد دعا ذلك طبيبه ومصدر ثقته - على حد قول «فان جوخ» نفسه - أن يشخص حالته على أنها مناخوليا (مزاج سوداوي) وهي نوع من أنواع الاكتئاب. وعلى الرغم من عدم وجود دليل قاطع يدفعنا إلى التسليم بهذا التشخيص فإن ذلك يعكس مفهوم

الاكتئاب والمناخوليا (مزاج سوداوي) في هذه الأونة، كما يتضح ذلك فيما كتبه «فان جوخ» إلى أخيه ثيو في مايو عام ١٨٩٠ حين ذكر قوله:

«لقد أخبرني الطبيب جاشيه أن المرض الذى أعانى منه يسمى المناخوليا (المزاج السوداوي)، وأنه من الممكن أن يزداد حدة في بعض الأوقات، وإن كان أخبرنى أيضا أنه يستطيع أن يساعدنى في هذه الحالات. وعلى الرغم من أننى أشعر بتحسن الآن فإننى أعتقد أننى سوف أحتاج إلى الطبيب جاشيه قريبا».

كانت تلك كلمات «فان جوخ». ولم تمض أسابيع قليلة بعدها - وبالتحديد في ٢٩ من يوليو عام ١٨٩٠ حتى قام الرسام المشهور بإطلاق الرصاص على نفسه في منطقة القلب ولم يلبث أن مات بعدها بساعات قليلة.

والحقيقة أن جاشيه كان شخصا غير عادى، وبالتأكيد لا يستحق الإهانات التي وجهها له شخص مثل أنطونين أرتو في كتابه «فان جوخ، انتحار مجتمع» الذى وصفه بأوصاف لا تليق، واتهمه بأنه جرد «فان جوخ» من كل أفكاره العاقلة على حد قوله.

*** شخصية جاشيه:**

كان جاشيه شخصية مرحة إلى حد ما وإن كانت تعتريه أحيانا نوبات من اليأس والكآبة كتلك التي التقى في أثنائها «بفان جوخ»

وهو ما دعا «فان جوخ» إلى عَدِّ جاشيه بمثابة القرين أو الشبيه، كما أوضح جوخ ذلك في كتاباته حين قال: «وجدت في الدكتور جاشيه صديقا أو أخا جديدا لما لمسته بيننا من أوجه تشابه في الشكل والمضمون، فكلانا غريب الأطوار، وأنا لا أعتد بنفسي حين أرسم هذه الصورة بمشاعري وأعتقد أن البورتريه الخاص بي لا يختلف كثيرا عن ذلك الذي رسمته للدكتور جاشيه».

ومما يذكر أن جاشيه نفسه كان مولعا بالرسم إلى حد كبير. ويلاحظ في بورتريه الدكتور جاشيه الذي رسمه «فان جوخ» استخدام الألوان والعلاقات فيما بينها تماما كما في البورتريه الذي رسم «فان جوخ» نفسه.

*** مفهوم وعلامات المناخوليا «المزاج السوداوي» عند جاشيه**

عَدَّ جاشيه المناخوليا (المزاج السوداوي) مرضا من الممكن أن يصيب كل الأشياء الطبيعية بما فيها الحيوان والنبات وحتى الجماد. ومن السمات التي ذكرها جاشيه لهذا المرض الآتي: «الميل إلى الأمام مع وضع الذراعين في اتجاه الصدر مع قبض اليدين مع تنكيس الرأس على الصدر وإلى إحدى الجهتين، مع ميل كل عضلات الجسم إلى الانقباض خاصة العضلات الخاصة بالمقلتين مما يجعلهما تبدوان غائرتين، وتبدو الحواجب بارزة مع وجود تجعيدات وثنايا طولية فيما بينهما، ويبدو المنخفض ما بين الأنف والفم أكثر وضوحا مع اصفرار

بالجلد وميل إلى النظر إلى الأرض».

وجدير بالذكر أن بعض هذه الأعراض والعلامات ما زالت لها أهمية فى تشخيص الاكتئاب، كتلك التى ذكرها «بلويلر» فى كتابه، وتعرف باسم «علامة فيراجوت» وتعنى أن يكون الثلث الداخلى للجفن لأعلى وللخلف ـ بحيث يكون الجفنين ما يشبه «الزاوية».

*** «الطبيب ذو المزاج السوداوي»، «محاولة لتفسير بورتريه د. جاشيه»:**

إذا تأملنا الصورة التى رسمها «فان جوخ» للدكتور جاشيه فسوف نجد الثنايا بين المقلتين مع عقد الحاجبين ووضوح المنخفض ما بين الأنف والفم وميل الرأس والكتف للأمام.

ويشبه هذا الوصف إلى حد كبير ما سبق ذكره من أوصاف المزاج السوداوى، ومن المدهش أنه يشبه أيضا ما رسمه «فان جوخ» لنفسه، مما يجعلنا نفكر فى أن صورة د. جاشيه التى رسمها «فان جوخ» لم تكن مجرد صورة تعبر عن تعاطفه مع جاشيه فقط، ولكنها كانت تعبر عن «فان جوخ» نفسه مثل «نوربرت كونويت».

ويلاحظ فى هذه الصورة أيضا استخدام الألوان والأدوات المعبرة كالمنضدة الحمراء والكتب الصفراء والزهور الأقحوانية والوجه الشاحب والقفازين اللذين يشيران إلى أحد النباتات الطبية والكتابين

اللذين يشير أحدهما إلى حالة مرضية مميتة ويشير الآخر إلى عالم الرسامين مما يضفى قيمة جمالية أخرى .

ومن الممكن تفسير الصورة بطريقة أخرى رمزية إذا نظرنا إلى ما جمعته الصورة من رموز علمية وطبيعية وفنية ، مما يوحى بأن كل هذه الأشياء قاصرة عن تحقيق السعادة للإنسان فى وجوده العابر فى الحياة .

* وأخيرا يمكن القول إن الفنان «فان جوخ» قد عبر فى تلك الصورة الشهيرة عن المعاناة الإنسانية فى أبرع صورها حين رسم الطبيب المفعم بالحزن والكآبة كخير شاهد على ما يعانيه «الرسام» نفسه من هذه المشاعر ، مما يجعل كل من يشاهد هذه الصورة يتساءل فى نفسه : «ماذا نفعل إذا كان الشخص الذى من المفترض أن نطلب منه المعونة هو نفسه فى حاجة إلى المساعدة؟» .

موناليزا: التفسيرات كثيرة والحقيقة غائبة

*** موناليزا والإهانات المختلفة:**

لم تتعرض امرأة عبر العصور المختلفة إلى كم من الإهانات مثلما تعرضت «موناليزا» صاحبة أشهر لوحات الرسام «ليوناردو دافنشي». ولقد تراوحت هذه الاتهامات بين كونها تعانى من شلل عصبى فى الوجه، أو الهتم (فقدان الأسنان الأمامية)، أو الانحراف الجنسى مع الولع بارتداء ملابس الجنس الآخر.. إلى غيره من الاتهامات.. والحقيقة أن «موناليزا» ليست فى وضع يسمح لها بالدفاع عن نفسها ضد كل هذه الإهانات، ومازال الباب مفتوحا لتفسيرات أخرى تتعلق بصاحبة أشهر وأغرب ابتسامة فى التاريخ.

*** بعض التفسيرات المقترحة والمثارة حول «موناليزا»:**

١ ـ موناليزا.. رجلا؟!

بالمطابقة بين صورة «موناليزا» وصورة ذاتية للفنان دافنشى نفسه باستخدام الكمبيوتر، وجد أن هناك تطابقا عجيبا فى سمات الوجه،

الأمر الذى أدى إلى الاعتقاد بأن الموناليزا ما هى إلا صورة للفنان دافنشى نفسه رسمها من المرآة. والدليل على ذلك أن الوجه فى اللوحة يبدو وكأنه معكوسه (ليليان شوارتز، ١٩٨٦). والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو لماذا أراد دافنشى أن يرسم امرأة؟

والإجابة يقترحها د. دجبى من مستشفى بلندن، إذ يقول إن هناك بعضا من الأدلة يوحى بأن «دافنشي» كان يعانى من الشذوذ الجنسى (الجنسية المثلية) أو ربما كان ذلك يعنى أنه يرفض جنسه كرجل وأراد تحقيق هذه الرغبة فى لوحته التى غير فيها من هويته الجنسية.

وفى الولايات المتحدة الأمريكية ذهب مفسرون آخرون إلى أبعد من ذلك حين رأوا أن ابتسامة الموناليزا لو نظرت إلى اللوحة وهى مقلوبة ليست إلا تعبيرا عن رجل عار الجسد فى وضع جنسى مثير!! وإن كان هذا التفسير الأخير من الصعب قبوله أو الاقتناع به.

وجدير بالذكر أن «فرويد» قبل ذلك بسنوات فى تحليله للفن وعلاقته بالجنس قد أشار إلى الصراع الجنسى النفسى فى ابتسامة «موناليزا» والتى يراها ربما من الابتسامة المحافظة مع الميل إلى الإغواء فى الوقت ذاته.

وجدير بالذكر أيضا فى هذا المضمار أن «دافنشي» كان يستخدم يده اليسرى ويرسم من المرآة، مما قد يشير إلى أن الانعكاس الواضح فى الوجه من الممكن أن يكون قد تم بصورة عفوية غير مقصودة.

٢ـ موناليزا: امرأة ملتحية؟!!

عند تصوير لوحة الموناليزا بواسطة الأشعة السينية (أشعة X) إبان سرقتها من متحف اللوفر في سنة ١٩١١ أظهرت الأشعة ظلال «لحية» مختفية تحت الوجه. مما قد يدعو إلى الاعتقاد بأن دافنشي بعد أن رسم نفسه في زى امرأة أعاد التفكير مرة أخرى حتى لا يسيء زملاؤه من الفنانين الظن به، فأطمس اللحية ودهن مكانها بالألوان. ويعتقد بعض خبراء الرسم أنه بعد سنوات كثيرة وعندما تخفت الطبقات الخارجية للون المستخدم في الرسم قد يبدو ذلك واضحا.

٣ـ موناليزا: امرأة حامل؟

د. كنث كيل من مستشفى «إشفورد» ليس عنده أدنى شك في أن «موناليزا» كانت امرأة وكان يدرس لطلبته أن سمات وجهها مع انسياب ملابسها توحي بأنها كانت حاملا بل وفي مرحلة متقدمة من الحمل!!

٤ـ موناليزا: امرأة مريضة؟!!

ذهب بعض الأطباء إلى الاعتقاد بأن موناليزا كانت تعاني من شلل بعصب الوجه، كما يبدو من ابتسامتها وتعبيرات وجهها والتي توحي بأن العضلات لا تتحرك تقريبا من ناحية من الوجه، ولذلك كانت ابتسامتها مائلة (د. كيدار أردور).

وذهب أطباء آخرون إلى أنها كانت تعاني من شلل نصفي ربما

نتيجة عيب خلقى أو إحدى حوادث الأوعية الدموية الدماغية حيث تبدو يدها اليمنى مسترخاة فوق يدها اليسرى والتى تبدو «مشدودة العضلات» (د. جين جالك).

وذهب أحد الأطباء اليابانيين المتخصصين فى أمراض القلب إلى أنها كانت تعاني من زيادة في نسبة الكوليسترول، كما يبدو ذلك من الاصفرار الواضح في زاوية عينها اليسرى.. ولذلك يرى هذا الطبيب (د. هاروناكامورا) أن موناليزا كانت معرضة إلى نوبة قلبية فى أى وقت من حياتها!!

٥ ـ موناليزا: عاهرة؟!!

اعتقد بعض المفسرين أن موناليزا لم تكن زوجة «فرانشسكوديل جيوكوندو» التاجر البندقى كما هو معروف، ولكنها كانت عاهرة تعرف باسم إليزابيث جو الاندى (البروفيسور كارول فيشي). وذهب بعضهم إلى القول بأن ابتسامتها لم تكن إلا دعوة إلى الرجال لمشاركتها الفراش. ودلل كارول فيشى على ذلك بأن اليزابيث كانت إحدى الموديلات التى كان دافنشي يفضلها.

٦ ـ موناليزا: مجرد خطأ؟

يدعى خبير الفنون سيمور ريت أن الابتسامة الشهيرة للموناليزا جاءت نتيجة خطإ وقع فيه دافنشى وقام بتصحيحه فى لوحة ثانية تبدو فيها الابتسامة أكثر اتساعا، ولكن اللوحة الصحيحة اختفت ولم تظهر إلا اللوحة المعيبة! ولحسن حظه ذاع انتشارها واتسعت شهرتها.

٧ـ موناليزا: الخدعة الكبرى؟!

زعم بعض خبراء الفن أن اللوحة المعروضة حاليا فى متحف اللوفر ليست الموناليزا الحقيقية، ولكنها صورة مزيفة تم اختراعها بعد سرقة اللوحة الأصلية سنة ١٩١١. ويدلل هؤلاء الخبراء على ذلك بقولهم إن الموناليزا رسمت على خلفية زرقاء مع ظلال صفراء فى حين أن الألوان الموجودة فى اللوحة الحالية هى الأخضر والأحمر، وعلى ذلك فاللوحة الموجودة حاليا ليست هى اللوحة الأصلية. ولكن مما يلقى ظلالا من الشك حول هذا الادعاء أن أحدا من محبى الرسم والمولعين به لم يدع أن الموناليزا الحقيقية موجودة عنده حتى وقتنا هذا منذ سرقتها!!

مخ الإنسان ذلك المجهول،
الغضب والهلع والاكتئاب
مجرد تغييرات في كيمياء المخ

المخ البشرى حتى الآن يحير العلماء وبرغم التقدم العلمى الرهيب . . فما زال الكثير من خباياه مجهولا .

لقد استطاع العلماء التعرف على كل مكونات المخ تشريحيا ووظيفيا . . وقد أدى ذلك إلى علاج الكثير من أمراضه. ولكنهم . . فى بحثهم عن العقل الذى هو جوهر المخ اكتشفوا أنهم ما زالوا يقفون أمام لغز كبير .

فى السنوات الأخيرة ، زادت الأبحاث العلمية التى تريد أن تعرف العقل بصورة أعمق لبحث مكونات : الذكاء ، الوعي ، الذاكرة ، اللغة ، اتخاذ القرار ، الانفعال . وكان يظن أن أماكنها الثابتة فى المخ معروفة وقد أثبت الأبحاث الحديثة أنها عملية وظيفية لكنها ليست محددة بمكان ثابت .

هناك كم كبير من الاتصالات شديدة التعقيد تتم بين خلايا المخ

ومراكزه المختلفة لأداء وظيفة واحدة مثل الذاكرة التى تشغل آلافا من خلايا المخ تعمل فى وقت واحد، وبأسلوب منظم، وتحتل أماكن كثيرة بخلاف الأماكن التشريحية العادية المعروفة سابقا.

كيف يقوم المخ بتخزين هذه الذاكرة وترتيبها؟ هل تكون على هيئة شحنة كهربائية أو تغيرات كيميائية؟ كيف يفقد الإنسان الذاكرة؟ وهل يمكن استعادتها أو تنشيطها؟ الوعي.. أين مركزه؟ وماذا يعمل على وجه التحديد؟ كل ما نعرفه أن إصابة جذع المخ تؤدى إلى الغيبوبة، لكن قد يفقد الإنسان الوعي دون إصابة لجذع المخ. هل غيبوبة المخ تعني الموت؟ الانفعالات.. أين مركزها؟ وكيف تتكون؟ لماذا نحب؟ ولماذا نكره؟

واللغة.. إن مجرد تفكير شخص فى كلمة محددة ينشط خلايا المخ. فإذا نطقها ينشط خلايا أخرى.. أما إذا كانت الكلمة نفسها مكتوبة فإن قراءتها تتطلب نشاط خلايا مختلفة. وهذا إن دل على شيء فإنما يؤكد أن اللغة عملية مركبة وليست مجرد وظيفة فى المخ.

ساعد العلماء فى محاولتهم من أجل الكشف عن أسرار العقل ظهور أنواع كثيرة من أجهزة الأشعة المقطعية والرنين المغناطيسى الوظيفى التى مكنتهم من رؤية المخ البشرى بتفاصيله الدقيقة فى أثناء أدائه لبعض وظائفه، وشجع هذا العلماء على التفكير فى أن وظيفة العقل أكبر بكثير من مجرد النظر إليها تشريحيا.

وهذا يجعلنا نتساءل مرة أخرى ما الوظيفة الحقيقية للعقل؟ هل

هى متغيرات كيميائية، أم نشاط كهربائي، أم أن هناك قوة خارقة تقف خلفها لها علاقة بالروح والنفس؟

كلها أسئلة جذبت أنظار العلماء واهتمامهم فى البحث عن أسرار العقل بعيداً عن العملية التشريحية . وكلما زاد البحث اكتشف العلماء مدى الغموض الذى مازال يكتنف هذا العضو الخطير الذى يمثل قمة الجهاز العصبى المركزى، والذى لا يتعدى وزنه الكيلو ونصف الكيلو ويمثل ١ : ٦٠ من وزن الجسم.

ولمعرفة بعض أبحاث العلماء فى مجال العقل البشرى بحثا عن المزيد من الحقيقة، نجد أنه من خلال التقدم فى التصوير الحديث للمخ يمكننا الآن رؤية المخ من خلال شاشة وهو يعمل، ويتفعل، ويفكر، ويتكلم، بالإضافة إلى رؤية الأمراض العصبية والإصابات والأورام المختلفة التى تصيب أى مكان من المخ .

لدينا جهاز فحص المخ الطوبوجرافى بالكمبيوتر، وهو عبارة عن جهاز المخ القديم ولكنه يستطيع أن يترجم الرسم إلى صور وخرائط . من هذه الخرائط نستطيع أن نعرف الطاقة الكهربائية الموجودة فى المخ .

جهاز البث البوزدرونى، ويحتوى على شبه مفاعل نووي . تكاليفه باهظة ويستعمل فى الأبحاث العلمية فقط وهو غير متوافر فى مصر .

لدينا جهاز سبكت وهو خاص ببيان كمية تدفق الدم الذى يدخل كل مراكز المخ المختلفة . ولبيان أهمية هذا الجهاز أقول إنه عندما يرى

شخص زهرة ويمتعه جمالها وألوانها، يبين زيادة تدفق الدم فى الفص المؤخرى من المخ المسئول عن الإبصار. فإذا سمع موسيقى هادئة وتأثر بها نجد تدفق الدم قد نشط فى الفص الصدغى للمخ الموجود فيه مراكز السمع. يحدث ذلك فى بقية مراكز المخ: الذاكرة والإدراك والترابط الفكري.

جهاز تصوير المخ بواسطة الرنين النووى المغناطيسى. هذا الجهاز موجود فى مصر وعن طريقه يمكننا رؤية جميع أنسجة المخ.

كل هذه الأجهزة تساعدنا فى رؤية وتحديد الأمراض لعلاجها. أما الجديد الذى يبحث عنه العلماء فهو معرفة كيف يفكر الإنسان الطبيعى وكيف ينفعل ويحس. هل يختلف أسلوب تفكير المرأة عن الرجل؟ وكان التحدى الأساسى لهذه الأبحاث هو كيفية تشخيص المريض إذا لم نكن على علم بعمل المخ فى الإنسان الطبيعي؟

إن الهجوم الذى انصب على نظريات فرويد رائد التحليل النفسى أنه أخذ عينات من المرضى وبنى عليها نظريته ثم طبقها على الأصحاء. فأفسد كثيرا من المفاهيم الخاصة بالقيم والأخلاق والدين. اجتهد بذكاء شديد فى البحث عن أشياء كثيرة فى اللاشعور، لكن التساؤل كان: كيف أبنى نظرية أساسها شخص مريض ثم أطبقها على شخص سليم؟ يجب أولا أن أعرف ماذا يفعل الأصحاء ثم أطبق ذلك على المرضي.

والسؤال: ما العقل؟ العقل هو الوظيفة العليا فى المخ التى تضم

العاطفة والتفكير والسلوك. وقد كان العقل دائما محل خلاف على مر العصور. فقد وضعه العلماء في أماكن مختلفة في الجسم. وقال أفلاطون إن العقل في المخ لكن أرسطو جاء ليقول إنه موجود في القلب. وأخيرا عرفنا أن العقل موجود في المخ.

وبدأ العلماء أبحاثهم الجادة لمعرفة حقيقة العقل. من هذه الأبحاث. كان موضوع الوعي، فالوعي يعتمد أساسا على نشاط التكوين الشبكي، وهو مجموعة من الخلايا العصبية موجودة في جذع المخ تعطي النشاط الدائم لقشرة المخ، حتى إن بعض العلماء يقولون إن الروح موجودة في هذا التكوين الشبكي، ويبقى الإنسان واعيا ومستيقظا ما دام هذا التكوين الشبكي يقوم بتنشيط قشرة المخ، وينام الإنسان فور توقف عمل هذا التكوين.

عندما يولد الإنسان يكون التكوين الشبكي والقشرة المخية ضعيفين جدا، وهذا هو السبب في أن الطفل ينام بصفة مستمرة، ثم تبدأ ساعات نومه في التناقص مع نموه حتى يكتمل التكوين الشبكي وتقوى القشرة المخية. وإذا حدث وقلت نسبة الأكسجين وتدفق الدم في الوصول بصورة كافية للتكوين الشبكي لأي سبب مرضي مثل عدم كفاءة الرئة أو الكلية أو القلب، فإن المريض يعيش في حالة من الخدر وشبه الغيبوبة.

أما إذا حدث نزيف في جذع المخ فإن التكوين الشبكي يموت، فيصاب الإنسان بغيبوبة لا يفيق منها. وتعيش بقية أعضائه على

الأجهزة المساعدة. وقد أثارت هذه الحالة جدلا عالميا لفترة طويلة حول تعريف الوفاة: هل هي توقف القلب، أم موت المخ؟ وقد حسمت هذه القضية في معظم الدول عندما تقرر أن موت المخ هو الأساس، وهو ما يعرف بالموت الإكلينيكي.

قبل الدخول في نتائج الأبحاث الجديدة دعنا نتساءل عن تكوين المخ تشريحيا. وباختصار شديد نستطيع القول إن المخ يتكون من فصين: الفص الأيسر في الأشخاص الذين يستخدمون أيديهم اليمنى نسميه الفص السائد، ويكون الفص الأيمن هو السائد في الأشخاص الذين يستخدمون اليد اليسرى. الفص الأيسر مسئول عن الكلام والنطق والسببية والعقلانية، ويطلق عليه اسم «الفص العالم». أما الفص الأيمن فمسئول عن المسافات والتذوق الجمالي والموسيقى والعواطف، ولذلك يطلق عليه اسم «الفص الفنان».

يصل بين الفصين «المقرن الأعظم»، وهو مجموعة الألياف العصبية التي تربط بين فصي المخ، ثم يوجد جذع المخ. والمخ يزن كيلو ونصف الكيلو ويمثل ١ إلى ٦٠ من وزن الإنسان، ويتركب من ١٦ بليون خلية عصبية. وتتركز وظائف المخ العليا في قشرة المخ، وتشكل هذه الوظائف: الإحساس - الإدراك - التعليم - الذاكرة - اللغة - المنطق - القدرة على الحكم على الأشياء. وهو ما نطلق عليه (العقل).

وفي مجال البحث عن اختلاف عمل مخ الرجل عن المرأة في أثناء التفكير، أجريت عدة أبحاث جاءت نتائجها جميعا جديدة ومذهلة،

تم تصوير فصي المخ لدى رجال ونساء في أثناء عملهما حتى تكتمل الصورة وظيفيا كما هي تشريحيا . وأوضحت النتائج أن اتصال الجزء الأمامي من «المقرن الأعظم» أي الوصلات العصبية بين فصي المخ تكون في المرأة أكثر تماسكا واتصالا والألياف الموجودة فيه أكبر حجما واتساعا مقارنة بالرجل . وتعني هذه النتيجة : أن الاتصال العصبي بين فصي المخ في المرأة أكثر شمولا وثراء مما هو في الرجل . فقد سجل العلماء أن الرجل يستخدم بصفة مستمرة الفص الأيسر وجزءا صغيرا جدا من الأيمن . لكنهم وجدوا أن الفصين يعملان بعضهما مع بعض في مخ المرأة ، وأن الاتصال بين الفصين مستمر . ومعنى ذلك أن إدراك المرأة كلي أي يجمع بين المنطق والعاطفة . وهذا يلغي فكرة أن المرأة أكثر عاطفة من الرجل . فالاتصال التشريحي لنسيج المخ بين الفصين الأيسر والأيمن في المرأة أقوى منه في الرجل .

لا جدوى من الهروب ، ونحن على أبواب عصر جديد يحمل ملامح مختلفة تماما للمرأة بعد أن بدأت الأبحاث العلمية الحديثة بإمكاناتها المتطورة تضعنا أمام معلومات مغايرة لكل ما عرفناه عن النساء . . فالأنثى الضعيفة . . المنكسرة . . الباحثة عن الحماية . . صورة قد تدخل قريبا أرشيف الذكريات .

لا جدوى من الهروب .

المرأة قوية جسديا ، والأرقام القياسية التي تحققها في أثناء الدورات

الأوليمبية تتضاعف بمعدل أسرع من الرجل، بل تكاد تقترب من الأرقام القياسية للرجل.

المرأة قادرة على تحمل الضغوط النفسية والعصبية، واشتراكها فى رحلات الفضاء الخطرة أيد هذه الحقيقة.

المرأة لا تعرف الضعف فهى تملك من الثبات والقوة ما يسمح لها بارتكاب أصعب الجرائم وأكثرها وحشية، والأرقام تقول: عدد النساء القاتلات في تزايد ملحوظ.

لا جدوى من الهروب.

المرأة تغيرت .. جسديا.. ونفسيا.. والأخطر عقليا بعد أن أكدت الأبحاث العملية الأخيرة أن عقل المرأة مختلف عن عقل الرجل!!

وفى محاولة لاكتشاف خفايا عقل المرأة، وتسليط الضوء على مواطن القوة والضعف فيه.. وفتح الأبواب السرية لعالم المرأة الخفي.. وفك الشفرة الغامضة لهذا اللغز الجديد.. كان لابد أن يصحبنا خبير تعامل طويلا مع العقل البشري، ولمس عن قرب آلام النفس وعذاباتها.. ويعرف جيدا طريقه وسط شبكة الأعصاب الإنسانية الشديدة التعقيد.

لقد أصبح لدينا الآن الكثير من المعلومات ما يجعلنا نجزم بأن مخ الرجل يعمل بطريقة مختلفة عن مخ المرأة.. فمن المعروف أن تشريح

مخ الرجل تقريبا مثل تشريح مخ المرأة برغم أن مخ الرجل أكبر. ويرجع ذلك إلى أن حجم الجمجمة عند المرأة أقل، ولا توجد علاقة مباشرة بين حجم المخ ونسبة الذكاء، حيث إن الفيل مثلا يملك مخا أكبر من مخ الإنسان، ولكنه ليس أذكى منه. . وأينشتاين عندما أعطى مخه للتشريح بعد وفاته لم يجدوا عند التشريح أى فرق بينه وبين أى متخلف عقلي. . ولكن الاختلاف هو فى وظيفة الخلية العصبية فى المخ.

فمنذ سنوات رسم الفنان العالمى «سلفادور دالي» ديكورات فيلم من أفلام الخيال العلمى تحكى قصة رحلة عجيبة يقوم بها مجموعة من العلماء داخل أوردة وشرايين الجسم البشرى بحثا عن المرض. . ومن خلال أحداث الفيلم والديكورات المبهرة نكتشف العالم الخفى للجسد الإنساني. . ولو حاولنا اليوم أن نكرر التجربة ونرسم صورة لعمل المخ عند المرأة . . هل سنجد اختلافا بين الرجل والمرأة فى هذه المادة الجيلاتينية؟

منذ ما يقرب من عشر السنوات، توصل العلماء والباحثون إلى وجود اختلاف بسيط فى التشريح بين مخ الرجل ومخ المرأة. . ولكن هذه الأبحاث لزمت الصمت تجاه الإجابة عن مدى تأثير هذه الاختلافات التشريحية على عمليات التفكير عند كل منهما.

بفضل التطور الذى طرأ على أجهزة تصوير المخ، استطاع العلماء التعرف على طريقة عمل المخ عند كل من المرأة والرجل، وأصبح

بالإمكان مراقبة عمل المخ خلال عمليات التفكير أو الإحساس أو التذكر. وقد توصلوا هذا العام إلى إثبات أن هناك اختلافاً في الشحنات العصبية الصادرة عن المخ، كل من الرجل والمرأة سواء عند بدء القراءة أو في حالة الاسترخاء.

وقد أحضروا مجموعة من الرجال والنساء في مستوى ذكاء متقارب أو متعادل، ثم ألقوا أمامهم بأبيات من الشعر الجميل والعاطفي، ووجدوا من خلال التصوير أن الفص الأيسر فقط عند الرجل هو الذي يستجيب لهذا الشعر، ولكنهم وجدوا عند المرأة أن الفص الأيمن والأيسر استجابا سويا للشعر.. ومعنى ذلك أن المرأة استطاعت أن تتفهم الشعر وتستجيب له بشكل أكثر قوة. والأهم أن هذه الأبحاث تؤكد أن النصف الأيمن من مخ الرجل على علم دائم بما يقوم به النصف الأيسر، أما عند المرأة فالنصفان لا يكفان عن اللغو العصبي.. بمعنى آخر، فإن مخ الرجل منقسم إلى أجزاء واضحة بينما مخ المرأة وحدة متداخلة.

ويعني ذلك أن اتهام المرأة بالقصور لأنها عاطفية اتهام خاطئ بل اتهام رجالي، لأنها ـ كما تقول، ويؤكد العلم الحديث ـ عقلانية جدا حتى في أكثر المواقف عاطفية، حتى وإن لم تظهر ذلك صراحة! وهنا لا أوافق على تحديد كلمة «عاطفية» في إطار الضعف وتعبير «المنطق» للإشارة إلى القوة.

بتحديد أكثر، المرأة لها نفس منطق الرجل. فالفص الأيسر عند

المرأة يعمل بنفس كفاءة الفص الأيسر عند الرجل، ولكنها تتفوق على الرجل بأنها قادرة على أن توصل شحنات عاطفية إلى فص المنطق فتعادل العملية فى التفكير بصورة أفضل بكثير من الرجل.

ويعني ذلك أن هناك انفصالا بين عاطفية الرجل ومنطقه، بمعنى أنه عندما يحب، يحب بلا منطق، وعندما يمنطق الأمور فإنه يمنطقها بلا عاطفة. فى حين أن المرأة تمنطق الأحداث بعاطفية. وفى قمة عواطفها لا تتخلى عن المنطق.

إن المرأة أكثر استعدادا للإصابة بالاكتئاب. وكنا نرجع ذلك إلى الظروف الاجتماعية التى تحيط بالمرأة، ولكن من الاكتشافات الحديثة تبين أن المرأة عندما تتسلط عليها الأفكار الحزينة تبذل جهدا عقليا أكثر عما تبذله في حل أعقد معادلات الرياضة الحديثة. ومن أطرف التجارب التى أجريت فى هذا الصدد، تلك التجربة التى أجراها العالم روبن جور وزوجته للتعرف على قدرة كل من الرجل والمرأة على التقاط المشاعر. وكان ذلك عن طريق عرض عدد من الأشخاص على مجموعة من الرجال والنساء ومطالبتهم بالتعرف على الوجوه الحزينة من بين المجموعة المعروضة. وكانت النتيجة أن عينة النساء نجحت في التعرف على ٩٠٪ من الوجوه الحزينة المعروضة عليهن. وقد وجد الباحثون فى هذه النتيجة تفسيرا لارتفاع نسبة إصابة النساء بالاكتئاب أكثر من الرجل. فالمرأة حسب رأيهم أكثر استجابة لمشاعر الحزن.

وهذا لا يعنى أن المرأة نكدية. إن المرأة مثل الرجل قد تكتئب عند التعرض للإجهاد أو الشدة، ولكن بعض النساء «والنسبة ليست كبيرة» يتعرضن للاكتئاب قبل الدورة الشهرية وبعد الولادة. كما تعانى المرأة من الاكتئاب نتيجة للوصول إلى ما يسمى سن اليأس، وهى تسمية خاطئة. فالقرآن الكريم ذكر «يأس المحيض» فقال تعالى ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ﴾ [الطلاق: ٤]، ومقصود به يأس من الإنجاب فقط. وبعض السيدات يتصورن أن انقطاع الطمث هو نهاية لحياتهن الأنثوية، وذلك حصيلة وراثة من سنوات إهدار حقوق المرأة عندما كانت وظيفتها فى المجتمع هى الإنجاب. أما خلال مائة السنة الأخيرة فقد تغير الوضع تماما وأصبح لها كل الحقوق وأصبحت هذه المرحلة هى قمة النضوج الفكرى والعاطفى والجنسى دون خوف من الإنجاب أو الحمل.

يجب أن نميز أعراض نقص هرمون الأنوثة وتتمثل فى زيادة ضربات القلب والإحساس بعرق غزير وسخونة تصاحبها أعراضا نفسية، فهذه الهزة الهرمونية تسبب أحيانا سوطا على الجهاز العصبى يؤدى إلى الإصابة بالاكتئاب والإحساس بالضياع وسهولة البكاء.

لا أدرى هنا إذا كان كلامى سيعجب الرجل، وبخاصة الرجل الشرقى. ولكن الرجل أيضا يا سيدتى يعانى من سن اليأس والأعراض واضحة عنده، ولكنها سلوكية وليست عضوية. إنه يشعر بأن العمر يهرب منه، فيحاول أن يمسك به من خلال تحقيق مزيد من

التفوق فى عمله أو يدخل فى تحديات صعبة أو يتورط فى علاقات نسائية جديدة ، لا بحثا عن العاطفة ولكن بحثا عما يؤكد له أنه ما زال مرغوبا ومطلوبا من النساء . ولكن هذه المرحلة سرعان ما تنتهى ، ويكتشف الرجل مثل المرأة تماما أن كل مرحلة من مراحل العمر لها جمالها ورونقها .

ينبه الغضب عند المرأة منطقة «التلفيف الحزامي» فى المخ ، أما عند الرجل فإنه يعطى نشاطا للفص الصدغي . والفرق بين الاثنين أن التلفيف الحزامى جزء حديث تطويرىّ فى المخ ويتحكم فى الانفعالات المركبة مثل الغضب وتعبيرات الوجه المصاحبة لشعور الضيق أو الحنق . أما الفص الصدغى ، فإنه يحول المشاعر إلى أفعال وحركات وعدوان على الآخرين . وهذا الفص موجود لدى الحيوانات أيضا ، فى حين أن التلفيف الحزامى ضعيف جدا عند الحيوانات .

وهنا نتساءل : هل يعنى ذلك أن عقل المرأة أكثر تطورا وتحضرا؟

والواقع أن الرجل استجابته للانفعالات غير مركبة بطريقة حضارية ، بل مركبة بطريقة بدائية لو أكملنا رحلتنا الخيالية داخل العقل وسألنا : علميا ، هل نستغل قدراتنا العقلية بنسبة ١٠٠٪ ، أو أقل بكثير؟ بالطبع لا ، وإن كنا لا نعلم بالتحديد ما هى طاقات المخ البشري . فالإنسان لا يستغل إلا قدرا ضئيلا من إمكاناته العقلية . ولا أحد يعرف بالضبط - حتى الآن - ماذا يحدث لو حاولنا استخدام قدر أكبر من قدرات المخ . ربما ينتج عن ذلك تداخل فى الوظائف .

نعم يمكن تحسين أداء العقل البشرى عن طريق التدريب . فالذاكرة مثلا كالمكتبة يمكن تحسين الخدمة بها عن طريق العناية بترتيبها وليس زيادة سعتها .

لقد سمعنا عن عمليات نقل القلب وتغيير الشرايين ، وزرع الكبد ، فهل من الممكن نقل المخ؟ فى الوقت الحالى يصعب أن نتصور أن بإمكاننا نقل وإعادة ربط ملايين الخلايا الحية من شخص إلى آخر ، ولكن ما يحدث الآن هو زرع بعض الخلايا التى بها قصور لتحسين أداء المخ كما يحدث للمرضى المصابين بداء الشلل الرعاش «Parkinson» .

إن التحدى الحقيقى الذى يواجهه إنسان هذا العصر ليس اكتشاف كواكب مجهولة ، ولا أقمار غامضة تجوب الفضاء الفسيح ، ولكن اكتشاف قدرات الإنسان الخفية ، وأخطرها العقل وخاصة عقل المرأة . وقد أضافت الأجهزة الحديثة الكثير إلى علاج الأمراض النفسية . فحتى وقت قريب لم يكن أحد يصدق أنه يمكن أن نرى ما يحدث داخل المخ للمصابين بالأمراض النفسية . ففى مرض مثل الوسواس القهرى ، وجدنا أن تدفق الدم فى الفص الجبهى يزيد عن الأسوياء ، ويقل تدفقه فى جزء يسمى التلفيف الحزامي ، وأن الأنواء القاعدية وهى جزء مهم للحركة وتناسقها تكون أصغر حجما فى المرضى عنها فى الطبيعيين ، وأن هناك خللا يصيب موصلا كيميائيا يمنع تدفق الدم ولم يكن يتسنى حدوث هذا إلا من خلال رؤية المخ ومن ثم تم

اكتشاف علاج للوسواس القهرى منذ عدة سنوات يصلح الخلل الوظيفى الذى أصاب المخ .

ومرض الوسواس القهرى عبارة عن أفكار أو أفعال تسيطر على صاحبها رغما عنه ، يعلم تماما أنه لا يصح التفكير فيها لكنها قهرية بالنسبة له . ولقد كنا نظن أنه مرض نادر ، لكننا اكتشفنا أننا لدينا مريض بالوسواس القهرى بين كل ٥٠ شخصا ، وأنه يُعَدُّ ثالث الأمراض النفسية انتشارا على مستوى العالم بعد الاكتئاب والرهاب (الخوف) ، لكن معظم المصابين به لا يفصحون عما بداخلهم من أفكار وسواسية عن الدين أو الجنس .

أضافت الأبحاث الجديدة الكثير للأمراض النفسية التى هى أساسا نتاج لخلل وظيفي . فقد اتضح لنا إلى حد كبير كيمياء الاكتئاب والألم والهلع والوسواس القهرى والفصام - لكننا ما زلنا عاجزين عن معرفة كيمياء الغيرة - والحسد والكراهية ، وما زال أمامنا الكثير من الأسرار التى لم تكتشف بعد فى المخ .

الذاكرة . . أين مكانها؟ وكيف يفقدها الإنسان؟ وهل يمكن المحافظة عليها؟ الذاكرة ليس لها مركز ، كل جزء فى المخ يعمل لذاكرة معينة . مكان الذاكرة الحديثة يختلف عن مكان الذاكرة بعيدة المدي . عند استعادة ذكرى معينة تزيد كمية الدم المتدفق فى المكان المخزن فيه تلك الذاكرة ، ومعه شحنته الانفعالية تماما مثلما يحدث لشخص بترت ذراعه ، إنه يشعر فى نفسه بألم فى يده المبتورة برغم عدم

وجودها. ذلك بأن هذا العضو ظل يعطى إشارات للمخ لسنوات طويلة قبل البتر. وما زال المخ يختزن ذاكرة هذه اليد. ومن ثم الإحساس ما زال موجودا برغم عدم وجود اليد نفسها. وقد يفقد الإنسان الذاكرة نتيجة لارتجاج فى المخ، ويتوقف حجم الفقدان على مكان الإصابة كما قد يفقدها نتيجة لضمور الخلايا. فالإنسان يولد ولديه ٣٦ بليون خلية عصبية فى المخ، تضمر مع الزمن ليبقى لنا منها ١٢ إلى ١٦ بليون خلية وما يضمر منها لا يعوض.

ومرض الزهيمر أكبر مثال على فقدان الذاكرة، وهو ضمور فى خلايا المخ يصيب ١٪ ممن وصلوا إلى سن ٦٠ سنة، وتزيد النسبة لمن وصل إلى سن ٧٠ سنة لتتراوح ما بين ٥٪ : ١٠٪، ثم تتصاعد النسبة وهو تطور طبيعى لكبر الإنسان. وضمور الخلية العصبية معناه عدم القدرة على التسجيل أى تذكر ما يحدث. لهذا فإنه مع بداية ضمور الخلايا يفقد صاحبه الذاكرة للأحداث القريبة بينما يتذكر بكل التفاصيل الأحداث البعيدة، وذلك بسبب عدم قدرة المخ على تسجيل الجديد لعدم وجود خلايا حية. ومع الوقت تبدأ خلايا أخرى فى الضمور لتستهلك الذاكرة التالية حتى تصل فى النهاية إلى الفقدان الكامل لها، الأمر الذى يؤدى إلى عدم معرفة أقرب الناس لصاحبها. وهى المرحلة الأخيرة. ولكى يحاول الإنسان تأجيل ضمور الخلايا عليه أن يجعل مخه يعمل بصفة مستمرة. فكلما زود الإنسان الإثراء البيئى المعرفى للمخ، أجل وأبطأ من زحف فقدان الذاكرة فى الكبر وضمور خلاياه.

إن من يفهم ويستوعب فسيولوجيا وتشريح وكيمياء المخ ولا يؤمن بوجود الله، فإنه لم يفهم شيئا لأن المخ البشرى معجزة الخالق.

يبقى الجزء الجراحى فى المخ عن مدى استفادة الجراح من هذا التقدم فى اكتشاف المخ ورؤيته. إن رؤية الجراح لتفاصيل المخ وتمكنه من تحديد الأماكن التى يريد التدخل جراحيا فيها تجعل الجراحة أكثر أمانا: ويتركز الدور الجراحى أساسا فى استئصال الأورام التى قد تكون سطحية على قشرة المخ، وهى عادة أورام حميدة يتم استئصالها بسهولة. وقد تكون الأورام عميقة، وتحتاج إلى دقة فى التعامل معها وقد مكن استخدام الميكروسكوب الجراحى من الوصول إلى أدق الأماكن فى المخ. أيضا المناظير الحديثة تمكن الجراح من خلال فتحة صغيرة فى الرأس من الوصول إلى الأورام الصغيرة لاستئصالها.

ويوجد أسلوب حديث مازال استخدامه محدودا وهو استعمال أشعة الليزر فى تدمير بعض الخلايا النشطة دون اللجوء إلى فتح المخ. كما تقدمت جراحات علاج التشنجات العصبية التى لا تستجيب للعلاج الدوائي. ونتائج جراحات المخ فى مصر لا تختلف نسبتها عن النتائج العالمية، لكن تبقى مجموعة صغيرة من الحالات تحتاج إلى خبرة متميزة وأجهزة مساعدة غير متوافرة فى مستشفياتنا .. يتم إجراؤها فى الخارج.

إن التطور الذى يحدث فى المراكز البحثية العالمية حول كشف أسرار المخ البشرى الذى مازالت الكثير من خباياه غامضة، هو الأمل الذى يتطلع إليه الإنسان، فالمخ البشرى حقا، هو معجزة الخالق.

التطرف... ظاهرة مرضية، والعلاج بالردع والحوار معا

الإبحار فى عالم النفس البشرية : أحلامها، همومها، عقدها، وأزماتها، وتحولاتها يحتاج لربان ماهر يعرف كيف ينقذها من الغرق . . . يجسد الداء ويصف الدواء ويشرح بعض الجوانب الصحية والمريضة فى هذه النفس . . .

لا يوجد فرع فى الطب له علاقة بالأدب والفن مثل الطب النفسى ولذا كانت البداية فى دراسة الطب النفسى فى بريطانيا عرضا لبعض المسرحيات وبعض الكتب المألوفة فى هذا الوقت . ولذا أتذكر أننى عندما ذهبت إلى معهد الطب النفسى فى بريطانيا وكعادة المصريين يسألون أساتذتهم : ما الكتب المفضلة التى نستطيع قراءتها كمراجع؟ وجدت أستاذى البريطانى ذكر لى اسم ثلاث قصص ومسرحيتين، وعندما ذهبت للمكتبة وجدت أنها قصص عادية جدا وليس لها علاقة بالطب النفسي، فذهبت إليه ثائرا وأخبرته أننى جئت للبعثة من بلاد فقيرة ووقتى لا يسمح بقراءة القصص، وأنى أريد دراسة مهنة الطب النفسى مباشرة، فابتسم

وقال لى تأكد أننى لا أضيع من وقتك، وأننى سوف أجعلك تستفيد. اقرأ وسوف نناقش كل عمل قرأته.

وكان أول الأعمال كتابًا «لكافكا»، وكان على ما أذكر «المحاكمة»، وعندما بدأت القراءة وجدت أنها متعة ولكنى وجدت أن الكاتب يجنح لخيال غريب، وأحيانا تتداخل الألفاظ والمعانى بحيث يترك للقارئ حرية فهمه كما يشاء. وهذا هو أحد الاضطرابات الموجودة فى التفكير عندما يصبح التفكير مغلقا.

وعندما سألنى أستاذى عن رأيى فى فكر «كافكا»، فأجبته: إنه ليس مترابط التفكير. فقال لي: نعم إنه كان يعانى من اضطراب فصامى، وكان عنده اضطراب فى التفكير. ثم بدأ أستاذى يطلب منى قراءة هاملت وعطيل وأن أحضر المسرحيات. وكانت هذه بداية غريبة جدا: تعلم الطب النفسى بطريقة مختلفة. إننى أقرأ فى الأدب والمسرح والفن ومن خلالها أفهم الطب النفسى. وكنت أتمنى كأستاذ فى الطب النفسى أن أبدأ فى تعليم أولادنا بهذه الطريقة، ولكن هنا توجد صعوبات ضخمة فى مجتمع مختلف.

فالطبيب النفسى الناجح يجب أن يكون على وعى تام، ليس فقط بالفن والأدب ولكن أيضا بالعلاقات الإنسانية التى تؤثر حتى فى السياسة العامة للدول. والذى يقوم بسياسة الدول أفراد، والأفراد لهم سمات تعليم وتكوين فى الشخصية بحيث إنه من الممكن إلى حد ما فهم القرار الذى يتخذه كل زعيم سياسي. ولا شك فى أن البصمة

الأدبية والفنية مفروض أنها توجد في هذا الفرع لأنه له علاقة بأشياء كثيرة. ومن الملاحظ أن معظم الأفلام والروايات سواء التي تحصل أو لا تحصل على جوائز تقوم على العلاقات النفسية بين الأفراد. والاضطرابات النفسية تشمل ٧٠ أو ٨٠ في المائة من كل ما نراه. فلا شك في أن كل هذه العوامل مؤثرة، فضلا عن تأثير شقيقي الأكبر علي، وكان عاشقا للفنون والثقافة والأدب وخاصة عندما كتب الأذن ترى والعين تسمع.

إن كل العقد النفسية مأخوذة من الأساطير اليونانية، سواء عقدة أوديب أو إلكترا أو حتى الاضطرابات السادية والماسوكية، وكلها لها علاقة بالأدب. ولا شك في أن معرفة هذه الأشياء تضفي على العلم ثراء ولكني أستطيع بالطبع أن أقول إن الأدب ساعدني في احتراف الطب النفسي. وما زالت هوايتي الأساسية في أوقات فراغي هي القراءة في الأدب والفن والتاريخ والقراءات الدينية.

إن هناك كتابا عنوانه «العرب ظاهرة صوتية»، وهو أن العرب تعودوا أن تكون مباراتهم كلامية، وهذا استمر منذ العصر الجاهلي حتى الآن، وبالتالي أصبح التعبير اللفظي والظاهري هو الغالب في السلوك بين العرب، مما يؤدي إلى مشكلات كبيرة. فالكلمة سهلة، أما التنفيذ فصعب، والصمت أصعب من الكلام. ولذا فالعرب ومناطق البحر المتوسط وأمريكا الجنوبية لايتميزون فقط بالكلام كأساس لحياتهم، ولكن أيضا بالصوت العالي والتعبير الانفعالي بالوجه والأيدي.

ولا ننسى شيئا فى غاية الأهمية . إن إحدى معجزات الدين الإسلامى هى اللغة متمثلة فى معجزة القرآن الكريم، ولقد تأثرنا بذلك تأثرا شديدا . وتُعَدّ الكلمة هى الأساس، ونبوغنا مقترن بالكلمة أكثر من النواحى الأخرى . وأيضا نلاحظ أن ديننا الكريم حرم الكثير من الأشياء فى وقت ما؛ حرم التماثيل بسبب عبادة الأصنام وحرم الصور، وكل هذه العوامل كان لها أثر فى الحد من قيمة الفن التشكيلى والنحت والتصوير، وحتى الموسيقى يقال إنها إلى حد ما غير محببة إلا إذا كانت موسيقى رفيعة، وبالتالى موسيقانا تُعَدّ موسيقى بدائية تعتمد على الطبل والدفوف وتعتمد على الإثارة الحسية، ومن ثم أعتقد أن هذا هو السبب، ومن ثم إبداعنا يكون دائما فى مجال الكلمة .

ولا نستطيع القول بأنه لا يوجد لدينا فلاسفة، ولكن مدارسهم محدودة ولم تصل إلى درجة العالمية . والملاحظ أن الفلاسفة الذين ظهروا فى فترات سابقة فإن نظرياتهم إلى حد ما جاءت من خلال عصر الترجمة، ترجمة الدراسات اليونانية إلى العربية ثم القيام بإضافات من عندهم وتصديرها مرة أخرى إلى أوربا . وما يحدث الآن مختلف إلى حد كبير . هناك الآن آراء تنادى بأن نعود إلى الأصالة وأن نعود إلى الوراء وألا نترجم ما هو موجود حاليا، فهناك بعض الجمود .

أيضا الفلاسفة فى الماضى كان العالم أيامهم أضيق من الآن . لم تكن هناك الولايات المتحدة ولا أستراليا، وكانت العلاقة بين العرب والرومان والإغريق وأوربا والهند والصين . وفى الماضى كان هناك

تفرغ وجدية فى القراءة، وكانت مغريات الحياة أقل من الآن. والمشكلات التى تواجه الفلاسفة فى الوقت الحال هى أنهم لا يستطيعون التفرغ للإبداع والفكر، ولكن هذا لا يعنى أننا لا يوجد عندنا فى مصر فلاسفة، ولكن كما ذكرت مدارسهم محدودة. فعلى سبيل المثال الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتبه، وإن كانت أكثرها تراجم، ولكن أضاف إليها بعض الشيء ولكنه لم يستطع الاستمرار فى مصر لأسباب سياسية. والدكتور زكى نجيب محمود له آراؤه الخاصة والتى لها احترامها ولكنها لم تصل إلى درجة العالمية.

والفلسفة تحتاج إلى فكر عميق داخلى، والظاهر الآن فى البلاد العربية الاهتمام بالمظهر وليس الجوهر، وقراءة الفلسفة وفهمها هى أجمل رياضة عقلية. وأيضا الوقت ونوع التدريس فى بلادنا العربية يهتم بالمظهر أكثر من الجوهر. ومن ثم طالما أن التعليم فى الابتدائى والثانوى بهذا الأسلوب الحالى - وهو التلقين والسطحية - فلن يتم إفراز فلاسفة. ولا ننسى أن الفلاسفة الذين ظهروا فى عصور الإسلام المختلفة كانوا ينتمون إلى الحضارة الإسلامية أكثر منها إلى العربية، وكان أغلبهم من بلاد فارس.

هناك مثل أتذكره: إن أى إنسان يميل إلى العقلانية والموضوعية ويميل إلى العمق يتجه إلى اليسار قبل سن الثلاثين. وإن العاقل والناضج يختلف مع اليسار بعد سن الثلاثين. إذن فشباب الأدباء فى مرحلة يريدون المثالية، يريدون إزالة الفوارق بين الطبقات، يريدون ملك الدولة لكل شيء، وهذا يكون نابعا من حماسة خاصة.

وخصوصا أن هناك ترابطا فى أفكار الناس . إن اليسار مرتبط بالثقافة أكثر ، فكان الانتماء لليسار نوعا من الموضة ، وأكثر الأدباء كانوا يتجهون لليسار ، وبالطبع فهناك بين اليمينيين مثقفون ، وهناك على العكس من ينادون بوجود فوارق ، بل ونادي البعض بأنه يجب أن يكون هناك السوبرمان مثل نيتشه وشوبنهاور وهم ضد اليسار تماما . ولكن الأدباء الموجودين حاليا كانوا فى مرحلة الانبهار باليسار والتوحد مع الاشتراكية ، وكانوا يعتقدون أنها السبيل الوحيد لإثبات الذات ، ولكن ثبت الآن أن المثقف موجود سواء كان يمينيا أو يساريا ، وليس لذلك أى ارتباط يكون بالمجتمع والبيئة . وأكبر مثل أن أعظم أدباء روسيا ظهروا قبل الشيوعية : تولستوى ودستويفسكى وتشيكوف ، وأيضا الموسيقيون . وإذا نظرنا إلى ما بعد الثورة فلن نجد نفس العظمة وضخامة الإبداع .

يقول البعض إن نسبة الأمية ما زالت عالية جدا فى الشعوب العربية ومن الصعب فى هذه الحالة أن يكون الأدب محركا لثورة أو دافعا للتغيير . ولكن ردا على هذا الرأى يمكن القول إنه عندما قامت الثورة الفرنسية والروسية كانت هناك أيضا أمية ، وأنا أعتقد أن الأدب ممكن أن يروى وأن يحكى وليس بالضرورة أن يقرأ ، وأرى أن الشعب المصرى مع كثرة ما عاناه من قمع وقهر واستعمار لمدة طويلة تعلم الصبر الشديد جدا حتى أصبح ملتصقا بأرضه بطريقة مرضية لدرجة أن كلمة عرضى أصلا مرادفة لكلمة أرضي . . وشخصية المصرى بطبعه مسالمة .

وعلى أى حال لكى يكون للأدب تأثيره، فيجب أن يصل إلى الناس. وهنا فى مصر مع نسبة الأمية العالية جدا يصل إلى الناس من خلال الإعلام: التليفزيون والراديو. والأدب الذى يعرض فى التليفزيون إلى حد ما يعبر عن طاعة لولى الأمر والاستسلام للواقع. وهذه الأجهزة تتبع الحاكم، فحتى الأديب الثورى لن يستطيع أن يصل إلى الناس! لا يستطيع الإنسان أن يعيش دون أن يشعر بكرامته، وبما أن تاريخ الحاضر ومنظر المستقبل لا يعطى للشباب أو للمواطن هذا الإشباع فالنرجسية الوطنية والقومية تجعله يتكلم عن أمجاد الفراعنة وأمجاد الإسلام وأمجاد العرب.

ولا شك فى أن عدم وجود قدوة فى الحاضر أو فكرة قدوة فى المستقبل جعل الكثير من الشباب يصاب بنوع من الجزع واليأس والقنوط ويلجأ إلى الأسلاف حيث يرضى النرجسية الذاتية. ولا يصح أن مصريا يتكلم ويفخر بخوفو فى كلامه العادى فى الوقت الذى تمتلئ فيه الشوارع بالقمامة والمتسولين، وهذا تناقض شديد. فإذا كنا نحترم ماضينا فيجب أن نحترم حاضرنا، ولكن من الواضح أن احترامنا للحاضر والمستقبل اختفى وأصبحنا نعيش فى الماضي، وهذا هو التأخر، وهذا هو ما أسميه العالم الثالث.

فإذا نظرنا للعقد النفسية الموجودة فى شعوبنا نجد أنها تتكلم عن الماضى. وأنا أعتقد أن حضارة الولايات المتحدة سببها الرئيسى أنه لم يكن لديهم ماض. فكان عليهم العمل لصنع حاضرهم ومستقبلهم. وأظن أنه لا خلاف على انبهارنا بهم فى مجال العلم

والمعرفة حتى لو لم نكن نتفق معهم أخلاقيا . ويبدو أن العودة إلى السلف تعوق التقدم .

وكما ذكرت ، فإن الشباب لا يجد فى حاضره ما يفخر به ولا يجد فى مستقبله ما يتطلع إليه ، فيعود إلى الوراء . أما كبار السن ، فإنهم لا يجدون فى حاضرهم الحالى ما يستطيع أن يرضى ذاتهم فيكون الكلام عما قبل الثورة والتاريخ ما هو إلا إسقاط المؤرخ عن الحقبة التى يتكلم عنها . والتاريخ زائف وكاذب ولا يوجد تاريخ صادق ١٠٠ فى المائه ، لأن التاريخ كتبه فرد أسقط إدراكاته الخاصة على هذا الحاكم أو على السياسة .

وهناك أيضا اعتبار أنه عندما يكبر الفرد - أى بعد ٦٠ أو ٦٥ سنة - فإن تمكنه من استيعاب الحاضر يصبح أقل ؛ فالخلايا العصبية لا تستطيع أن تحتفظ بالمواد الجديدة وما يبقى هو المواد القديمة ، فهم يعيشون فى الماضى بالفعل ، وهذا هو ضمور الخلايا العصبية فى الشيخوخة . وأحب أن أضيف إلى ذلك أنه يقال دائما عن العربى إنه شديد الوفاء والشهامة ، ولكن للأسف فى الوقت الحالى هذه السمات غير موجودة ، لأنه أصبحت هناك قاعدة مؤداها أنه ما من حاكم يرحل أو يترك الحكم إلا ولا يوجد كلام إلا عن سلبياته . وأنا أعتقد أن لكل شخص إيجابياته وسلبياته سواء الحكام الذين عاصرناهم أم لا . فهذه قضية أزلية حتى منذ أيام قدماء المصريين : كان فرعون عندما يتولى الحكم يشطب أعمال من قبله . فتحطيم القدوة دون بناء قدوة أخرى ميراث قديم نتوارثه !

وأنا أرى أن التنافر الموجود بين الشباب أو بين أفراد الشعب المصرى بل والعربى هو نتيجة إعطاء مؤثرات ومنبهات متناقضة فى الوقت نفسه فيصبح الإنسان فى حالة من الصراع النفسي، ويصاب بحالة من اللامبالاة وبأنه سوف يقبل أى شىء. هناك مؤثرات متناقضة ليس فقط فى الدين، بل فى السياسة أيضا وفى الأدب وفى الفن؛ ففى كل شىء الأحوال متناقضة كما أسميها، فثقوب الضمير اتسعت جدا، وأنا أشبه الضمير بأنه مثل الحاجز الذى به ثقوب ضيقة جدا ولا يمر أى شىء من خلالها. والذى حدث أن الضمير يتكون من الأبوين ومن المجتمع، ولكن عندما يعطى المجتمع أشياء متناقضة مع وجود الأبوين يعيشان فى هذا المجتمع نجد أن الثقوب اتسعت، فلاشك فى أن الإنسان الآن الغافل اتسعت ثقوب ضميره فتساهل فى أشياء لم يكن يرضاها من قبل!

وأعود لأقول إن الإعلام أصبح أقوى من المدرسة وأقوى من الأبوين، ومن ثم تناقضت المؤثرات التى تحدث فى الإعلام، وعدم وجود خط واضح جعل الشباب فى حالة من الحيرة والتناقض واللامبالاة، والقابلية للإيحاء تصبح خطيرة ويكون عرضة للانتماء لأى مذهب يعرض عليه. ولا يوجد فى الإعلام تخطيط إستراتيجى ولا أهداف. وعندما تنشر أخبار عن الاغتصاب فى الصفحة الأولى فإن جريمة الاغتصاب تتزايد. وثبت رسميا أن الكلام عن ظاهرة معينة بصفة مستمرة يزيد من حدة هذه الظاهرة لأنه يحدث نوعا من أنواع التحصين للإنسان فيقبل شيئا لم يكن يقبله. خذ مثلا قضية فتاة

العتبة وهذا التركيز الهائل عليها وكأنها أصبحت المشكلة الأولى والأخيرة، والبرامج التى تتعرض لمشكلة الإدمان وكأننا نعلم الأطفال ما هو الشم، ولقد قال لى بعض المرضى إن أمتع وقت لتعاطى المخدرات هو بعد برنامج سلوكيات!!

يقول بعض الناس إن ظاهرة الإدمان والاغتصاب والعنف سببها العامل الاقتصادى. ولكن الإدمان موجود فى البلاد الغنية أكثر، والتطرف أيضا موجود فى بلاد مثل ألمانيا وفرنسا وفى بعض الأماكن من الولايات المتحدة. وهذه الظاهرة تعبر عن شيئين: زيادة سمات حدة المزاج والتطرف فى العبث، وتنبع من عاملين: تنبع من محاولة الهروب من الواقع واليأس الذى يواجه بعض الناس بغض النظر عن أن البلد فقير أم غني لأن هذه الظواهر موجودة فى كل البلاد، بل نحن أقل من غيرنا. ومن الممكن أن يكون الرجل الفقير الذى لا يعمل سعيدا وغير يائس، ولكن يجب إعطاؤه هدفا. وأنا رأيى أن غياب الهدف العام والهدف القومى وغياب القدوة يجعل الإنسان غير قادر على التضحية ومن ثم يكون فرديا. وبما أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فرديا دون الانتماء لمجموعة إذن يجب أن يهرب من هذا الواقع الأليم، فإذا تعرض لبعض الجماعات فسيهرب من واقعه ودنياه وحياته باحثا عن الآخرة أو عن الجنة. وإذا تعرض لهؤلاء الذين يدمنون المخدرات فسوف يدمن كنوع أيضا من الهروب. والإنسان يعلم أن نهايته السجن أو الجنون أو الموت فهو إنسان يائس. وحتى الإنسان الذى يغتصب ويعلم أن مصيره أيضا السجن أو الاعدام فهو

نوع من أنواع تحطيم الذات غير المباشر، والانتحار لا يكون فقط بقتل الذات ولكن بسلوك يؤدى إلى القتل!

لا أعرف من هو الكاتب أو المسئول الذى أطلق على الجماعات المتطرفة تعبير التطرف الإسلامى، لأن الكلمتين متناقضتان، لأن التطرف لا يتواكب مع الإسلام والإسلام لا يتواكب مع التطرف. الإسلام هو سلام وتسامح، فبالتالى كيف نطلق على هذه الجماعات إسلامية؟ فهذه الجماعات مكونة من بعض الشباب الفاشل اليائس الذى لا أمل له فى مستقبل دراسى أو سياسى، فمن ثم هم يعيشون يوما بيوم وبخدعة من أمراء هذه الجماعات. وواضح أنه ليس لهم علاقة بالإسلام، وأنا أعرف أن التدين الصحيح يؤخذ بنوع من الشورى والتقوى والتسامح، ولو لم يكن كذلك لما اعتنق أحد الدين الإسلامى عندما جاء العرب إلى مصر. وهذه الجماعات هم إفراز نفوس مريضة ومن النادر أن يكون هناك إنسان ناجح عمليا وأسريا وعنده المسكن والعاطفة فى الأسرة ويتجه لهذه الجماعات.

وفى القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فكلنا خلقنا فى مشقة نحاول أن ننساها بعمليات تعادلية فى الحياة بالعمل أو بالدين أو بالرياضة والفن. أما بالنسبة لشبابنا ففرص العمل محدودة، إذن لا يوجد تنفيس لأى شاب يريد أن يعمل تعادلا لمشقة الحياة إلا بالدين. والتدين محبوب مرغوب، ولكن التطرف ظاهرة غير صحية، ولاشك فى أن عدم وجود تعبير سياسى وإمكانية الانضمام لحزب

سياسى لشباب الجامعة أحد الأسباب للاتجاه لهذه الجماعات . وليس عيبا الانضمام إلى جماعة دينية، فهناك فرق بين الجماعات الدينية والجماعات الإرهابية . فعلى سبيل المثال أغلبية قادة ثورة يوليو كانوا منضمين إلى جماعة الإخوان المسلمين بمن فيهم عبد الناصر ولكن الموقف تغير تماما عندما حاولوا اغتياله فى ميدان المنشية .

فى السنوات الخمسين الماضية تأجل سن الزواج ومن ثم وجد الحرمان الجنسى والكبت لدى معظم الشباب، ولا شك فى أن إسقاط الكبت الجنسى يستعمل فى النواحى الدينية فمن ثم هو يرى ساق المرأة أكثر من المشبع جنسيا ونحن نهتم بالمظاهر أكثر بكثير من جوهر الدين .

عندنا نظرية هى أن العنف يولد العنف، هذه نظرية نفسية سلوكية ولكن هذا لا يمنع إطلاقا من الردع والعقوبات على من يمارس العنف، ولكن فى نفس الوقت يجب وجود نوع من التنوير والتشكيل الثقافى والحوار مع بعض هؤلاء الذين يقبلون الحوار، فيجب أن يكون الردع متوازنا تماما مع الحوار وتغير أسباب العنف .

ولا شك فى أن بعض أمراء هذه الجماعات الخفية ولا أقول كلمة إسلامية يعانى من الإحساس بالعظمة وبعض الاضطرابات النفسية التى تجعله يشعر بأن لديه رسالة ومن ثم فإنه يجد بعض الأتباع، ولكن ما يمارسونه فى حياتهم الخاصة ضد أى شىء دينى، إذن هى مجموعات موجودة فى كل بلاد العالم ولكنها ليست تحت شعار الدين وهم ناس خارجون عن القانون .

إذا كان حكام مصر عبر التاريخ أعطوا فرصة للمصرى أن يشارك ، كـان من الممكن أن تكون هناك عـملية تشكيل حضارى ونضوج شديد، ولكن للأسف إن معظم الحكام سواء فى فترات الاستعمار أو المصريين الذين حكموا لم يعطوا الشعب الانتماء أو المشاركة ومن ثم أصبح الإنسان لا يبالي : إننى لا أشترك فى الحكم فدعهم إذن يحكمون .

كنا ننتظر من جمال عبد الناصر وأنور السادات أن يجعلانا نكبر وننضج . فلقد حكمانا وعمرنا خمس سنوات ، والذى حدث أنهما عادا بنا إلى مرحلة الرضاعة ، فأصبحت العملية هى أن يعطونا الطعام والشراب والعمل والتعليم والحماية والتأمين الصحي ، بمعنى أنك أيها الحاكم تتولى كل شيء . ومازلنا إلى الآن متأثرين بهذه المعادلة خاصة إذا كان حقيقيا أن المصرى يعمل ٢٨ دقيقة فى اليوم!

من الممكن أن يكون هناك ظواهر اجتماعية مرضية . ولا شك فى أن طريقة الحكم فى أى بلد تجعل للشعب سمات وطباعا معينة .
الشعب الروسى مثلا تحمل لمدة ٧٠ عاما أسلوبا معينا فى الحكم ، ثم خلال أيام اكتشف أن كل هذا خواء وكان يعانى طيلة هذه الفترة ن ظواهر اجتماعية مرضية ، ونفس هذا الكلام قيل عن الملك فاروق وفؤاد ومحمد على وكل الحكام ، فلا أستطيع أن أقول إن عبد الناصر هو السبب ولكن عبد الناصر امتداد، ولا شك فى أن جمال عبد الناصر بالفعل جعل الهيبة كلها له هو وليس لأى فرد آخر ، وهذا

البطل الذى سيكون بعد عام ٢٠٠٠ وليس معه مسدس، البطل هو من سيضيف معلومة للمعرفة، فإن لم نفق فى حياتنا عامة وقمنا بإضافة المعلومات الجديدة وزيادة المعرفة فالمستقبل مظلم، وإن أفقنا أصبح الآن عندنا فرصة، ومن ثم التقدم فى العالم هو بين مخ ومخ، معرفة ومعرفة، بين فكر وفكر، وقد انتهى عهد القوة وعهد العنف ومهما أوتيت دولة من قوة لن تستطيع أن تتفوق على دولة لديها المعرفة.

فى أوائل هذا القرن، كان هناك لكل طبيب نفسى طبيب يعالجه نفسيا عندما كان التحليل النفسى متمثلا فى رائده فرويد، وكان يقول: لكى يستطيع الإنسان تحليل شخصية يجب أن يعرف الكثير من سمات شخصيته وعقده وصراعاته النفسية حتى لا تؤثر فى العلاج، وكان فى هذا الوقت لا يوجد فى الطب النفسى إلا علاج الطب النفسى، ومن ثم كانت الفكرة أن أى إنسان لكى يتخصص فى التحليل النفسى، يجب أن يمر بفترة تحليل ذاتية مع أحد أساتذته، ولكن عندما تفرع الطب النفسى دخل العلاج الكهربائى والكيميائى والعلاج السلوكى والعلاج النفسى غير التحليلى وهو السائد فى العالم الآن، إذ إن العلاج التحليلى يختفى تدريجيا، وأصبحنا لا نرى تأثيره إلا فى بعض الأفلام بحثا عن الحبكة السينمائية!

العلاج النفسى الآن علاج نفسى مباشر معرفى. إذن لا يوجد علاقة أو ضرورة إطلاقا توجب تحليل الطبيب النفسى نفسيا لأن معنى

مرة أخرى وهذه نظرية نفسية فى القوانين التى تحارب الظواهر ، فهناك قانون لإعدام القاتل ولكن القتل لا يتوقف .

لاشك فى أن الأدب والفن يتأثران بالمجتمع ، ولو لم يوجد الأمراء والنبلاء فى القرنين ١٨ و١٩ لما رأينا الموسيقى الكلاسيكية والباليه حيث كانت هذه الفنون الرفيعة لا تعزف للشعب وكانت تعزف للنبلاء . وطبيعة العصر الحالى لا توجد هذه الظروف ، وهذا العصر سريع جدا وبه الكثير من المغريات فأصبح من الصعب وجود هذه الفنون ، فكل عصر له أدبه الخاص . فإذا نظرنا للباليه فى أوربا ونظرنا إلى الأغانى الشعبية نجد أن الإقبال على الأغانى الشعبية ، وأيضا هذا ينطبق على السينما والمسرح .

أرى أن الاستقطاب الذى كان موجودا بين القوتين كان يعطى لدول العالم الثالث اعتمادية شديدة . ووجود قوة واحدة يجعل العالم الثالث إن لم يلتفت إلى نفسه ويعتمد على ذاته فسيتعرض هذا العالم للفناء بالبشر الموجودين فيه ، ولذا وجود قوة واحدة معناه أن تتخذ كل بلاد العالم الثالث طريق الاعتماد على الذات . وكما كان مكتوبا فى إحدى المقالات إن أفقر بلاد العالم هى أكثر البلاد التى تشترى السلاح ! والثروة والعنف والمعرفة فى كتاب محكات القوة وهو أن ثورة الغد ستكون قوة المعرفة وليس فى القوة العسكرية ولا ثروة البترول ولا قوة أى شىء مادى ، فالمعرفة تفوق كل شىء وأظن أن حرب الخليج أظهرت ذلك بشدة . .

البطل الذى سيكون بعد عام ٢٠٠١ وليس معه مسدس، البطل هو من سيضيف معلومة للمعرفة، فإن لم نفق فى حياتنا عامة وقمنا بإضافة المعلومات الجديدة وزيادة المعرفة فالمستقبل مظلم، وإن أفقنا أصبح الآن عندنا فرصة، ومن ثم التقدم فى العالم هو بين مخ ومخ، معرفة ومعرفة، بين فكر وفكر، وقد انتهى عهد القوة وعهد العنف ومهما أوتيت دولة من قوة لن تستطيع أن تتفوق على دولة لديها المعرفة.

فى أوائل هذا القرن، كان هناك لكل طبيب نفسى طبيب يعالجه نفسيا عندما كان التحليل النفسى متمثلا فى رائده فرويد، وكان يقول: لكى يستطيع الإنسان تحليل شخصية يجب أن يعرف الكثير من سمات شخصيته وعقده وصراعاته النفسية حتى لا تؤثر فى العلاج، وكان فى هذا الوقت لا يوجد فى الطب النفسى إلا علاج الطب النفسى، ومن ثم كانت الفكرة أن أى إنسان لكى يتخصص فى التحليل النفسى، يجب أن يمر بفترة تحليل ذاتية مع أحد أساتذته، ولكن عندما تفرع الطب النفسى دخل العلاج الكهربائى والكيميائى والعلاج السلوكى والعلاج النفسى غير التحليلى وهو السائد فى العالم الآن، إذ إن العلاج التحليلى يختفى تدريجيا، وأصبحنا لا نرى تأثيره إلا فى بعض الأفلام بحثا عن الحبكة السينمائية!

العلاج النفسى الآن علاج نفسى مباشر معرفى. إذن لا يوجد علاقة أو ضرورة إطلاقا توجب تحليل الطبيب النفسى نفسيا لأن معنى

ذلك أن الجراح يجب أن نقوم بجراحة له حتى يكون جراحا، إذن هذه حرفة محتاجة لبعض اللمسات فى الشخصية ومحتاجة إلى أن الفرد المريض نفسيا لا يتخصص فى هذا الفرع لأنه لم يصل إلى فهم نفسه حتى بعد دراسة هذا الفرع.

أما إذا كان الطبيب النفسى مريضا ـ وهو بشر وله الحق أن يقلق ويكتئب ويصاب بأى مرض ـ فلا يوجد أى غضاضة فى أن يذهب للعلاج عند زميل. وأنا أقوم بعلاج بعض من الزملاء الأطباء النفسيين وتكون استجابتهم جيدة. فلا يجب أن ننظر للطبيب النفسى على أنه إنسان قدوة وبالتالى لا يعانى من أى شىء. إنه بشر يتألم ويعانى وأعتقد أننى إذا أصبت بالقلق والاكتئاب فسأذهب لأحد الزملاء!

الآثار النفسية والاجتماعية
لتدهور البيئة الحضرية والريفية

«الإنسان ليس كائنا بيولوجيا يأكل ويشرب ويتناسل ويبحث عن مأوى يحتمى فيه فقط، وإنما هو كائن سيكولوجى يتأمل وينفعل ويحلم ويشعر ويحب ويكره ويتعاطف وتهتز مشاعره غضبا وسرورا. عندما يحيا الإنسان فى بيئة حضرية مضطربة خالية من النظام والانسجام والتوافق تمتلئ نفسه بالكآبة. وعندما يتحول مسكنه إلى مجرد مأوى يصبح ذئبا وليس إنسانا. عندما تخلو بيئته العمرانية من فراغ مناسب حينئذ يهبط فى سلم الإنسانية، وتفيض نفسه بالقلق والتوتر وأحيانا بالهلع»[١].

لقد مر علم النفس الحديث بفترة من التفسير البيولوجى للظواهر، ووصلت فى بعض الأحيان إلى استبعاد العوامل الخارجية كعوامل محدثة للمرض. وقد يجد للعلماء فى ذلك عذرا. ذلك أن التقدم التكنولوجى الرهيب الذى شهده العقد الأخير جعل فى متناول أيدينا

---

(١) عادل أبو زهرة. المؤتمر التحضيرى للملتقى العربى لمؤتمر قمة المدن. عمان ١٩٩٦.

من الأدوات والوسائل ما يجعلنا قادرين على القيام بما يشبه الرحلة داخل جسم الإنسان ثم داخل مخه ثم داخل موصلات مخه . . إلخ .
كل هذا جعل العلماء لفترة من الزمان يديرون ظهورهم للعوامل الخارجية المؤثرة على الإنسان ومحاولة تفسير الأشياء سواء فى حالتها الطبيعية أو المرضية تفسيرات بيولوجية تعتمد على هذا أو ذاك الموصل الكيميائى أو هذا أو ذاك المستقبل المخي . ولم يمر وقت طويل حتى اكتشفوا قصور هذا المنظور وحده . فالظواهر الكيميائية ذاتها لا تحدث بالضرورة نفس التأثير فى الأفراد المختلفين . والضغوط النفسية ذاتها لا يترتب عليها ردود الفعل ذاتها عند الأفراد جميعا . .

من هنا ، فقد اتضح جليا أن المدرسة البيولوجية وحدها غير قادرة على تفسير الظواهر ، وأن البيولوجيا وإن كانت هي التعبير الأخير عن السلوك أو المشاعر أو الإدراك إلخ . إلا أن ما يسبقها من مؤثرات خارجية تشكلها وتؤثر فيها وتتأثر بها هي نفسها عوامل لا يمكن التغاضى عنها فى فهم السلوك الإنساني . بل إن الاعتراف بدور المحيط البيئى فى تشكيل سلوكيات الإنسان ومشاعره وأفكاره وصور إدراكه يسمح لنا فى الحقيقة بمجال من التدخل من أجل تغيير الأشياء إلى الأفضل . فلو أن الإنسان محكوم بحتمية بيولوجية لكان العمل من أجل التغيير الاجتماعى ضربا من المثالية العدمية التى لا طائل من ورائها . .

والحقيقة أن البيئة كما نستخدمها فى مجالى الطب النفسى وعلم

النفس تتسع لتشمل كل ما يحيط بالفرد منذ كان جنينا فى رحم أمه، إلى آخر الأشكال الاجتماعية المعقدة التى تصوغ نسيج حياته اليومية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا..

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن بيئة الإنسان تؤثر فيه منذ كان جنينا فى رحم أمه، ذلك أن الأبحاث تلو الأبحاث تقدم من الأدلة ما يفيد أن مستوى تغذية الأم وحالتها الصحية العامة، وتعرضها للتلوث الإشعاعى أو سوء استخدام الأدوية أو ممارستها لعادة التدخين أو احتساء الكحول بل ومعايشتها للضوضاء مع ما يترتب عليه من اضطرابات عصبية لديها يؤثر سلبا على الأطفال، فيولدون أقل قدرة للتفاعل مع العالم الخارجى بالإضافة إلى بعض الاضطرابات المخية العضوية التى تؤثر على قدراتهم المعرفية، والتى ترتبط بشكل خاص بما إذا كانت الأم تدخن أو مدى تعرضها للملوثات البيئية مثل الرصاص الذى يكاد يكون مكونا أساسيا من مجالنا الجوى الذى نتنفسه كل يوم.

هذا الرصاص قد يؤدى إلى نقص الذكاء والملكات المعرفية فى الأطفال والكبار وعدم القدرة على التجديد والإبداع والخلق، وآثاره واضحة على أطفال المدينة. وإذا احتج علينا البعض بأن هذه العوامل تؤثر على بيولوجية الجنين بمعناها الضيق، فإن هناك من الأبحاث ما يثبت بالاستناد إلى ضربات قلب الجنين مثلا أن الجنين يستجيب إلى الأصوات التى يسمعها من خلال جدران بطن أمه سواء كانت كلاما أو موسيقى أو ضجيجا.

ولن نفرد الكثير من هذه المداخلة فى وصف البيئة المحيطة بالجنين وتأثيرها عليه، وإنما المراد هو البحث فى السؤال التالي:

إذا كانت هذه المؤثرات تؤدى دورا فى تكوين الطفل قبل ولادته، فما بال الأثر الذى تؤديه المؤثرات ذاتها بالإضافة إلى مؤثرات أخرى بعد أن يولد هذا الطفل ثم يصبح شابا أو بالغا؟

ما نوع البيئة التى يتعايش معها المواطن بعد ولادته؟

فى ظل ظروف التزايد السكانى الكبير فى المدن العربية والنمو الحضرى الكثيف والسريع وشيوع عدم التنسيق بين جهات التخطيط، تستشرى الفوضى العمرانية وتسود حالة من النقص الشديد فى مستوى الخدمات البلدية والاجتماعية وتدهور البنية الأساسية من مياه الشرب والصرف الصحى ووسائل النقل العام وندرة السكن، بالإضافة إلى التلوث الناتج من عادم السيارات وحصار المصانع للمدن وانتشار السكن العشوائى على أطراف المدن نتيجة للهجرة المتزايدة بدافع الحاجة وانخفاض الموارد من الريف إلى الحضر.

إن هذا العمران العشوائى يكون فى العادة ابن الحاجة، فلا ينتج عن تخطيط ولا يسمح بالاختيار ولا تلبية الاحتياجات بما يتجاوز السقف والجدران للستر والحد الأدنى من الحياة المعيشية، ففى كثير من الأحيان تنتهك فيه الخصوصية والمساحات المتاحة للفرد وإمكانات الحد الأدنى من التهوية، ولا يشترط التجانس بين الجيران، ولا يُترك

مجال للتشاور أو التعاون بشأن أحوال المجتمع المحلي . . وقد أشار البعض إلى أن التجانس الثقافى والحضارى ييسر التعايش فى مجتمع غريب، أما التنافر والشعور بالعزلة وعدم القدرة على إدراك القيم السائدة حول الحدود الدنيا من الاحتياجات المعيشية فإنه يؤدى إلى الاغتراب والانزواء أو العدوانية نحو المجتمع الجديد .

إن مثل هذه العوامل تؤدى إلى الإحباط الذى يؤدى بدوره إلى العدوان المباشر وغير المباشر والقلق واللامبالاة والنمطية والاكتئاب والاغتراب والعزلة ، حيث إنه كلما زاد الازدحام قلت روح الجماعة وازدهرت الفردية والأنانية ، ناهيك عن الاضطرابات المعرفية وما لها من تأثير على متوسط الذكاء القومى، بالإضافة إلى تأثير التلوث البيئى والإحساس بالإعياء والتعب المستمر مما يؤثر بدوره على الإنتاج ، ويؤدى إلى ظهور أمراض جديدة عضوية ونفسية مثل القلق والاكتئاب وضعف الخصوبة والعدوانية وانتشار المخدرات وارتفاع معدلات الجريمة والتسامح مع الفساد .

إن أبحاثا تمت فى سنة ١٩٨٠ فى أوربا والولايات المتحدة أثبتت أن الحيوانات المنوية تقل فى الرجال بنسبة كبيرة نتيجة لعوامل بيئية مثل التلوث الجوى واستعمال التكنولوجيا الكهربائية والمغناطيسية .

ثم إن هناك الازدحام الذى ثبت أنه يولد الأنانية والاهتمام بالذات وعدم الإحساس بالانتماء إلى الوطن أو الأسرة ، بعكس البلاد غير المكتظة حيث يجد المواطن من المساحة النفسية ما يسمح له بالاهتمام

بالآخرين ويضحى فى سبيلهم. ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن المساحة المتاحة للفرد سيكولوجيا للإبداع والخلق والقدرة على التأقلم وسعة الصدر إلخ، تتناسب تناسبا طرديا مع المساحة المتاحة له جغرافيا للحركة والنوم والمعيشة. فإذا انتفت الأخيرة أو قلت أو ضمرت إلى الدرجة التى تجعل الإنسان محاصرا فى حياته ونومه وشربه وأكله وانتقاله بالمواصلات العامة أو الخاصة بأفراد آخرين يعانون من نفس ما يعانى، فإن ذلك يخلق حالة من الاختناق النفسى التى تجرده من كل طاقة نفسية إبداعية.

وقد أثبتت بعض الأبحاث من أمريكا اللاتينية أن الازدحام فى النوم وداخل المنزل الواحد يترتب عليها اضطرابات سلوكية ومعرفية فى الأطفال والشباب بدرجة أكثر بكثير من الاضطرابات الجنسية والتى شاع الاعتقاد لفترة طويلة أنها المشكلة الأعظم للاكتظاظ فى داخل الأسرة الواحدة.

إن افتقار الفرد لخصوصيته وشعوره بأن المجتمع الذى يعيش فيه لا يعير هذه الخصوصية اهتماما يخلق لديه شعورا بالغيظ والغضب وعدم الانتماء ومن ثم الأنانية والتمحور حول الذات أو الرغبة فى تحطيم هذا المجتمع.

أما فى الريف، فإن الاعتداء على الأراضى الزراعية وهجرة أهل الريف إلى المدينة ومكوثهم فى الأماكن العشوائية والاضطرار إلى الهجرة إلى البلاد العربية طلبا للرزق، فإن كل ذلك قد أدى إلى

تفكك الأسرة والشعور بالمرارة وعدم الانتماء، مما أثر تأثيرا واضحا على الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبشر.

ويتضح لنا من دراسات مسحية ووبائية في الحضر والريف أن الأعراض الاكتئابية قد انتشرت في الريف بمعدل ٣٤٪ من مجموع السكان بالمقارنة بحوالى ٢٨٪ من سكان المدينة، على عكس ما كان الاعتقاد السائد أن الريف آمن من الأمراض النفسية بالمقارنة بالمدينة.

إن هجرة أفراد الأسرة من أجل طلب الرزق - وعادة ما يكون الأب أو الزوج - له من الآثار ما يتجاوز الشعور بالوحدة والغربة والاغتراب، فقد وجد أن الأبناء الذين يعيشون فى أسرة من أم وأب يمارسون العنف بمعدل أقل من الأسر التى يكون فيها الأبناء فى رعاية الأم فقط بعد أن اضطر الأب إلى السفر طلبا للرزق، ويفسر ذلك بأن الأم التى ترعى أبناءها وحدها عادة ما تحاول أن تتمثل دور الأب والأم معا فتمارس عنفا أقسى على الأبناء. ثم إنها عادة ما تتعرض هى وأسرتها إلى مشكلات اجتماعية قد تصل فى قسوتها حدا يفرض عليها التعامل بعنف مع محيطها لتحمى نفسها وأبناءها، فيكبر الأبناء وقد اعتادوا على العنف أسلوبا للحفاظ على الذات.

فى المدينة نجد الازدحام والضوضاء وغياب الفرص المتكافئة للبشر والتنافس من أجل البقاء لا من أجل الجودة. ولا يقتصر ذلك على أهل المدينة، بل يضم أيضا المهاجرين من الريف الذين يتركون أسرهم فى القرية وينزحون إلى حيث التقاليد مختلفة والثقافة مختلفة، وإلى

حيث النظرة إليهم دونية ، فيتولد لدى الجميع إحساس بالإحباط والعدوان والظلم والإشفاق على الذات . فإذا ارتبط كل ذلك بغياب القدوة وغياب آليات التغيير، تبقى للبشر واحد من عدة اختيارات كلها مرير : فإما الاستكانة والانصياع لقواعد اللعبة غير المتكافئة والغرق في سوق التنافس البشرى مع ما يولده ذلك من أخلاقيات الكراهية المتبادلة والرغبة فى الاستئثار، أو تغييب الوعى بوصفه بديلا لتغيير الواقع باللجوء للمخدرات والخمر . . إلخ فى محاولة لخلق عالم ولو مؤقت ولو مزيف يستطيع الشاب فيه أن يتخيل صياغة العالم بشكل مختلف، أو العمل على تغيير هذا الواقع؛ فإذا كانت فرص التغيير السلمى قليلة بالنسبة للغالبية العظمى من البشر فى البلدان العربية فإن اختيار التطرف الدينى واستعداد المجتمع ككل يصبح هو الاختيار الثالث . وإذا كانت هذه هى فرص الأهل فإن حال الأبناء ليس بأفضل منهم، فالضغوط التى يتعرض لها الأهل يترتب عليها اضطرابات التكيف والسلوك لدى أطفالهم .

إن الوضع الحالى بالنسبة للريف والحضر، بما يتضمنه من عوامل تؤكد على الاغتراب وفقدان الهوية يؤدى إلى مضاعفات نفسية تؤثر على نوعية الحياة المعيشية ومعدلات النمو الاقتصادى والشعور بالانتماء الوطنى، مما يجعل الجيل الجديد عرضة للانحراف والبحث عن أساليب لتغييب الوعى، أضف إلى ذلك غياب المشروع القومى الذى يعبئ البشر من حوله سواء كان مشروعا فى مواجهة عدو

خارجى أو مشروعا تنمويا يعمل على بناء البلاد بالاستفادة بجميع كوادرها . . لقد أثبتت الأبحاث والتجارب أن الأمراض النفسية تقل فى لحظات الحروب أو الحفز القومي ، ذلك أن الأفراد يشعرون بأهمية وجودهم كمواطنين فى هذا الوطن بالذات ، وأن عليهم دوراً يقومون به وأن غيابهم سوف يترك هذا الدور غير محقق . أما فى غياب هذا المشروع القومى فإن المواطن يشعر بأن الأحوال لن تؤثر فيها وجوده من عدمه . .

إن ظاهرة العنف السياسى التى ترفع راية الدين ظاهرة قديمة ارتبطت دائما بعصور ساد فيها الإحباط والشعور بعدم التحكم فى مقاليد الأمور وعدم قدرة الأفراد على صياغة حياتهم بما فيه مصلحتهم وتأمين مستقبلهم والشعور بالأمان . وقد ارتبطت ظواهر العنف بعوامل بيئية واضحة حيث :

١ ـ ارتبطت بأحزمة الفقر حول العاصمة حيث الغياب الحقيقى للمرافق والخدمات . ولنتأمل مثال القاهرة التى يحيطها حزام من الأحياء السكنية العشوائية الفقيرة للغاية .

٢ ـ ارتبطت بالمجتمعات التى تتجاور فيها تشكيلات حضارية وثقافية واقتصادية شديدة التباين بدرجة غير منطقية مما يصدم المشاعر ويؤدى إلى الشعور بقلة الحيلة والحرمان والغضب والعدوان .

٣ ـ كما ارتبطت بأوقات انعدمت فيها القدوة السياسية فتركت

الأمور للأقوى . . ويظل تعريف ما هو الأقوى ابنا للصدفة بشكل كامل انعكاسا لبعض الشخصيات العامة ، عادة المناهضة للنظام العام . . أو يفرزها إعلام مستورد عن شخصيات وهمية ذات قوى خارقة (حلم السوبرمان) .

ولا يمكن الحديث عن التعامل الصحى مع حالة الإحباط الوطنى التى يعيشها شباب البلدان العربية دون حصار مثلث الإحباط هذا لكي نقلل من مضاعفاته وآثاره السلبية على كل المواطنين سواء فى الحضر أو الريف .

فى مصر وحدها مليونا مكتئب حيث إن من ٥ ـ ٧ ٪ من أى شعب يعانون من الاكتئاب . وتشير كل المؤشرات العالمية إلى أن القرن القادم سوف يرى مزيدا من الاكتئاب، وذلك بالاستناد إلى الأسباب الآتية :

١ ـ تغلب الحياة المادية على الحياة المعنوية وتشوه أو غياب المنظومة القيمية التى تسمح للبشر باحترام الذات والثقة فيها .

٢ ـ زيادة عمر الإنسان وإصابته بأمراض جسدية مختلفة دون توافر الخدمات الأساسية أو فرص المعيشة التى تسمح للبشر بالحياة الكريمة في الهرم ، مما قد يترتب عليه الاكتئاب بشكل ثانوى لهذه الأمراض أو كجزء منها .

٣ ـ ترابط أمراض القلق والاكتئاب بالأمراض العضوية ٤٠ ـ ٦٠٪ وكذلك ارتباطها بالعقاقير المستعملة فى علاج هذه الأمراض

(كالسرطان وأمراض القلب والكلية والسكر وارتفاع ضغط الدم).

٤ ـ استخدام المهدئات والخمر في محاولة للخروج من مأزق الاكتئاب وخلق حلقة شريرة تبدأ بالاكتئاب وتنتهي به.

٥ ـ ضيق فرص العمل والمعيشة وهجرة الأبناء بعيدا عن أسرهم بحثا عن الرزق مما يؤدي إلى التفكك الأسري في أفراد الأسرة غير المهاجرين والاغتراب والوحشة في الغربة للمهاجرين.

كل ذلك يؤدي إلى الإحباط خاصة لارتباطه باقتناع الشباب بأن قدراته وموارده لا تتواكب مع تطلعاته برغم تواضعها، كما يؤدي كما سبق وأن ذكرنا إلى الشعور بالعجز واليأس الذي يصيب الشباب حين يدرك أن العمل الجاد ليس بالضرورة هو وسيلة تحقيق ذاته، وأن العلاقات الشخصية كثيرا ما تكون أكثر أهمية ونجاحا. هذا التنافر القيمي بين ما يجب أن يكون وما هو كائن بالفعل يؤدي إلى:

* الشعور بالغضب والتعبير عنه بالعدوان المباشر أو غير المباشر على المجتمع.

* اللامبالاة والسلوك الروتيني النمطي والشعور بعدم الانتماء.

* الاكتئاب والقلق الشديد أو التطرف، حيث إن اليأس والعجز يؤديان إما إلى الإدمان والهروب من الواقع بطريقة غير صحيحة، وإما إلى التطرف السياسي والديني أيضا كنوع من الهروب من

الواقع والعودة إلى أزمنة سابقة يعتقد الشخص أن العدل كان سائدا فيها .

وأخيرا أود أن أتناول نتيجة حتمية لكل ما سبق أن ذكرناه في هذه المداخلة القصيرة من نتائج لتدهور البيئة ، ألا وهو انتشار ظاهرة العنف كأسلوب للتعامل والتعبير والتغيير والغضب . . إلخ . وإذا كان أثر العنف على من يقوم به أو من يقع عليه واضحًا فإن أثره على من يشاهد ومن يتهدد به قد يكون أقسى وأكثر إيلاما . إن ظواهر العنف الاجتماعي والسياسي ليست بغريبة عن أوطاننا ، ولم تعد حدثا شاذا بل تكاد أن تكون مكونا أساسيا من الحياة اليومية للغالبية من أفراد هذا الوطن .

إن الاضطرار للتعايش مع العنف يخلق شعورا دائما بعدم الأمان وانعدام القدرة على التكيف نفسيا واجتماعيا . كذلك وجد أن الشباب الذين يتعرضون إلى مشاهد العنف يغلب العنف على مضمون أفكارهم ، ويستخدمون لغة أكثر عنفا في الحديث العامي ، ويتوحدون مع شخصيات تاريخية أو روائية عنيفة ، ويطرحون العنف حلا للمشكلات إذا ما قورنوا بزملائهم ممن لم يتعرضوا لمثل هذه الأحداث من العنف .

إن الحياة في محيط يغلب عليه العنف يعرض الفرد إلى ثلاثة عوامل تتبادل حدتها تبعا للظروف :

١ ـ التعرض للعنف بالمعايشة .

٢ ـ التعرض للعنف بالمشاهدة المباشرة .

٣ ـ التعرض للعنف كضحية .

وقد أشارت الدراسات إلى أن ارتفاع المستوى الاجتماعي والتعليمي يكاد أن يمثل عنصرا حاسما في أسلوب التعامل مع العنف ، ذلك أن ارتفاع المستوى التعليمي والاجتماعي يسمح للفرد أن يدرس أحوالاً واقعة وأن يضع خططاً عملية مدروسة للتعامل مع هذا العنف بشكل واع بحسبانه مشكلة يجب حلها . أما المستوى التعليمي المنخفض والفقر فيولدان حالة من الاتكالية وانتظار الغيبيات لرفع الغمة ، أو التوحد مع العنف وممارسته على الآخرين ، بالإضافة إلى التبعات الاجتماعية للعنف ومشاهدته ، فإن التعرض للعنف يؤدى إلى اضطراب ما بعد صدمة حيث يعانى الفرد من علامات القلق والخوف مع تكرار معايشة الحدث فى الخيال والأحلام بشكل يكاد يشل الفرد عن ممارسة حياته اليومية .

إن التعامل مع المشكلات النفسية الناجمة عن التدهور البيئى فى الحضر والريف وما يترتب عليها من ظواهر نفسية واجتماعية يستدعى شحذا لجميع الموارد المتوافرة ، والتى يمكن توفيرها من أجل تخطيط وتنفيذ ومتابعة برامج الصحة النفسية والبيئية يشترك فى صياغتها وإدارتها كل من صانع القرار والمستهلك . . فى محاولة لصياغة واقع

منطقى يستوعب الاحتياجات والفروق والمشكلات ويجتهد فى الوصول إلى مخارج وحلول واقتراحات .

إن ذلك يستدعى فى البداية :-

١ - توافر رؤية سياسية واقتصادية واجتماعية إيجابية للصحة وإعطاؤها أولوية فى ميزانية الدولة حيث تتراوح الآن بين ١٣٪ فى الولايات المتحدة و ٩ , ١٪ فى مصر .

٢ - توفير المعلومات لوضع إستراتيجية طويلة المدى للتقدم بالصحة البيئية والبيئة الصحية جسديا ونفسيا .

٣ - وضع أسس للعلاقة بين القطاع العام والقطاع الخاص فى الصحة بحيث لا تتعذر الخدمة الصحية على غير القادرين وهم الغالبية من المواطنين .

٤ - وضع خطة قومية للبحث المسحى الشامل للمشكلات البيئية المختلفة والتبعات الصحية ومنها النفسية المترتبة عليها واقتراح حلول تنبع من نتائج هذه الأبحاث المحلية .

٥ - توفير وتدريب لموارد البشرية على تكامل المنظور البيئى والصحى للمشكلات البيئية والصحية .

ضمن هذه التوصيات يبرز ضرورة زيادة الإنفاق على الصحة وترشيد الإنفاق عالميا كمطلبين أساسيين لتحقيق خطة متكاملة فى

مجال البيئة والصحة ، ولسنا نقترح في هذا الشأن أمرا غريبا ذلك أن زيادة الإنفاق على الصحة قد جاءت مطلبا رئيسيا في كل توصيات مؤتمرات الأمم المتحدة في السنتين الماضيتين (مؤتمر السكان ـ مؤتمر المرأة ـ مؤتمر قمة المدن) . . إن حال الإنفاق في العالم حاليا يترك مجالا كبيرا للتغيير نحو ما نتمناه .

ذلك أن ٤٠٪ من أغنى الدول النامية تتلقى مساعدات ضعف ما تتلقاه ٤٠٪ من أفقر الدول النامية . وفي عام ١٩٩٠ أنفق العالم ١٧٠٠ بليون دولار على الصحة أي ما يساوي ٨٪ من دخل العالم ، وكانت ٩٠٪ من هذه النسبة تصرف على البلاد الصناعية و ١٠٪ على البلاد النامية ، التي تمثل ٨٠٪ من مجموع سكان العالم ، أي أن ١٠٪ فقط من ميزانية الصحة في العالم تنفق على ٨٠٪ من سكانه ، وفي هذا سخرية شديدة من أي حديث عن العدالة وتكافؤ الفرص . أما على مستوى الفرد ، فإن متوسط الصرف على الصحة في البلاد الصناعية يساوي ١٨٦٠ دولاراً سنويا على الفرد ، لكن في البلاد النامية فإن هذا الرقم ينخفض إلى ٤١ دولاراً .

فهل هناك من أموال ما يسمح بزيادة الإنفاق؟

في هذه اللحظة يبلغ مجموع ما تنفقه البلدان النامية على التسلح ١٢٥ بليون دولار وهو ما ينفق في أحيان كثيرة ضد مصالح شعوب هذه البلدان . . فإذا افترضنا في هذا الإنفاق بنسبة ٢٥٪ فقط لوفرنا

مبلغا وقدره أربعون بليون ومائة وخمسة وعشرون مليون دولار أمكن صرفها كما يلي :

١٢٪ = خمسة عشر بليون دولار كفيلة بأن توفر لجميع سكان العالم الثالث المياه الصالحة للشرب والغذاء والتحصين ضد الأمراض .

٨٪ = عشرة بلايين دولار كفيلة بأن توفر لجميع أطفال العالم الثالث التعليم الإلزامي ولخمسين في المائة من البالغين تعليم الكبار .

٤٪ = خمسة بلايين دولار لتوفير وسائل تنظيم الأسرة لجميع سكان العالم الثالث .

١٪ = مائة وخمسة وعشرون مليون دولار كفيلة بأن تمول مشروعات إقراض من أجل زيادة الدخل للنساء اللاتي يعلن أسرهن .

إن هذه الأرقام لا نسردها إثارة للغيظ ، وإنما تشجيعا على إمكانية الفعل . فالتغيير ليس بمستحيل . والمقابل لا يقدر بثمن . فالمقابل هو جيل تتوافر له الحاجات الأساسية وتضمن له الحياة الحضرية فرصة القيام بعمل منتج يحقق من خلاله ذاته ويقيم علاقات إنسانية حميمة فيشعر باحترام كرامته ومن ثم يحترم كرامة الآخرين واختياراتهم .

النظام التعليمي في مصر
وأثره على الصحة النفسية للمرأة

* حين نتحدث عن الصحة النفسية، يجب علينا أن نميز بينها وبين المرض النفسي. فالصحة النفسية ليست مجرد نفي للمرض، بل إن للصحة النفسية مكونات قد تغيب برغم غياب المرض. فهي تتضمن التوازن الانفعالي والفكري، والإدراك الإيجابي للذات والانسجام بين الصورة الذاتية والصورة المجتمعية عن النفس، والقدرة على التكيف أو التغير في حالة الطموح إلى دور مجتمعي آخر.

* جدير بالذكر أن تحقيق هذه الحالة لا يمكن أن يتم بمعزل عن العالم المحيط، بل هو يتأثر تأثرا مباشرا بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع، وما إذا كانت هذه العوامل تدعم قيما مثل الحرية والإبداع وتحقيق الذات، إلخ. أم تمثل عقبة أمامهم. وبغض النظر عن طبيعة هذه العوامل، فإن تأثرها عادة ما يكون شاملا الغالبية العظمى من المواطنين. وفي حالة ما إذا كانت معيقة لتحقيق التوازن النفسي، يبدو الأمر بعد حين وكأن اختلال الصحة النفسية

هو الشيء الطبيعي ، فتتضاعف المشكلة وتصبح المعاناة هى الأصل وغيابها هو الشيء الغريب . وبالتالى ، يجب أن يكون واضحا لنا أن اعتياد الشيء لا يعنى بالضرورة أنه الصحيح ، وأن استقرار الأمور على ما هى عليه لسنوات وعقود لا يعنى بالضرورة أيضا أن هذه هى طبيعة الأمور التى لا مجال لتغييرها . .

* إذا عددنا الآليات المختلفة التى تشكل وجدان البشر وفكرهم ورؤيتهم للحياة والآخرين وأنفسهم ، لوجدنا أن آلية التعليم هى من أقوى هذه الآليات ، فهى تستقبل المواطنين صغارا ، متفتحين لما سوف يخط على وجدانهم من قيم وأفكار ومثل : ترسم لهم الأدوار ، وتحدد الصواب والخطأ ، وتحدد المرجعيات الأخلاقية والسلوكية moral and behavioral terms of reference ، وترسم بدايات الطريق الذى يستمر بالبشر إلى نهاية أعمارهم . وبذلك تمثل مؤسسة التعليم المؤسسة الثانية فى الأهمية بعد الأسرة ، وأحيانا تتوازى معها فى الأهمية فى غرس القيم والمعتقدات وتشكيل المنظومة القيمية value system للأطفال والمراهقين . وبغض النظر عن موقف تلاميذنا من مدارسهم ، وبغض النظر عن مدى قبولهم أو رفضهم لها ، فإنها تظل مصدرا أساسيا لتحديد السلوكيات الاجتماعية المقبولة والمرفوضة . وبالتالى ، فإن المدرسة تؤدى دورا جوهريا فى تشكيل الأنا الأعلى للتلاميذ من الجنسين .

* لكن التعليم لا يشكل هذه الأنا الأعلى وحدها . فهناك الأسرة

والإعلام ودوائر المعارف والأصدقاء . . إلخ. فإذا اتفقت قيم الأسرة والمدرسة والإعلام، إلخ على قيم واحدة وكانت هذه القيم إيجابية لكنا محظوظين للإجماع على ما هو إيجابي ؛ ولو كانت قيم بعضهم إيجابية وقيم الآخر سلبية لكنا أقل حظًا ولكن لظل لدينا مجال للاختيار بين أكثر من طرح . أما لو اجتمع الكل على قيم سلبية ، تفرض التحكم والسيطرة وتنفى إنسانية الإنسان، فإننا نصبح فى مأزق وفى حاجة ماسة إلى نموذج قيم تنويرية تعادل الخطاب السائد .

* وقبل أن نتطرق إلى الرسالة التى تبثها العملية التعليمية فى مصر لبناتنا ، يجب أن نتفق ولو بشكل عام على أن الموقف الاجتماعى من المرأة فى مصر يختلف عن الموقف من الرجل ، وأن هذا الاختلاف لا يبدأ فى سن المراهقة مثلا أو عند بلوغ سن الرشد، وإنما يبدأ من لحظة الميلاد . فالطفل الولد يأخذ مكانته الاجتماعية كرجل المستقبل ، وله أن يتوقع حقوقا معينة بمجرد كونه ذكرا ، والمولودة البنت لها أن تتوقع سلسلة من القيود والممارسات والأدوار المرتبطة فقط بكونها بنتًا ، وذلك منذ اللحظة الأولى من ميلادها دونما فرصة لها من إثبات ما إذا كانت تستحق المزيد . هذه التركيبة الفكرية هى الخطاب الاجتماعى المحدد للرجل والمرأة فى مجتمعنا . ولن نختلف حول أنه لا مساواة بين الاثنين وأنها لصالح الرجل . ولن نختلف حول أن تبعية المرأة للرجل وأولوية الرجل على المرأة هى من القيم المبجلة فى هذا المجتمع . . ولن نختلف حول أن الحرام قد

يكون حراما للمرأة ولكنه حلال للرجل. وأن هناك الكثير من التسويغات والتفسيرات الاجتماعية التى تسوغ هذا التباين وتكرسه وهى فى إجمالها ما تسير إليه بقيم المجتمع الذكوري.

* هذه القيم الذكورية هى التى تعلل لكون البنات يتسربن بمعدلات أعلى من المدارس عنها من الأولاد. وبغض النظر ومع كل الاتفاق عما قد يثار من أسباب اقتصادية لهذا التسرب أو التفسير، فإن هذه المسوغات تستند فى النهاية إلى قيم مجتمع ذكورى يضع الرجل والصبى فى مرتبة أعلى من المرأة والفتاة. وهى نفس القيم التى تجعل من الوارد أن تشترط المدرسة أن ترتدى تلميذاتها الحجاب وهى بعد فى طفولتهن المبكرة، ولا تشترط الأمثل زيا إسلاميا خاصا للفتى. نسوق هذا المثال لا دفاعا عما يفترض فيه أنه زى إسلامي وإنما تأكيدا على أن التمييز يتم بأشكال صارخة وبدون منطق أحيانا، لمجرد تكريس التمييز والتراتبية فى العلاقة بين الجنسين. وهى نفس القيم التى تقول بأن الفتاة يجب أن تتعلم لتكون أما صالحة وأن الولد يجب أن يكون مواطنا صالحا. وكأن دور المرأة لا يتسع للمواطنة الكاملة.

* من المهم أن نتفق على المنطلقات قبل أن نشرع فى هذه المداخلة. فمنطقنا يؤمن بأن المرأة إنسان متكامل وسوي، يحق لها المساواة فى الحقوق والواجبات مثلها مثل الرجل، وهى تشكل نصف هذا المجتمع الذى يواجه أشد التحديات للحاق بركب التقدم ونحن فى

بداية القرن الواحد والعشرين. فالسنوات القادمة لن تجد موقعا فاعلا لمجتمع يهمش نصف مواطنيه، أو يفرض عليه التنازل عما قد يمتلكه من ملكات. القرن القادم يستدعى وجود مواطنين أقوياء أصحاء أسوياء، يعتقدون فى قدراتهم الذهنية والإبداعية، تحترم آدميتهم وإنسانيتهم ويعملون من أجل تحقيق المعادلة الصعبة التى توائم بين احتياجات وحقوق الفرد والجماعة. فبماذا نُعدُّ بناتنا لهذا القرن الجديد؟

* فما الطريق الذى يرسمه النظام التعليمى فى مصر؟ من الفتاة المصرية التى تصوغها مقرراتنا، وما المثل والقيم التى تبثها المؤسسة التعليمية فى بناتنا للقيام بأى دور فى المستقبل؟

* كانت هذه المقدمة ضرورية لتقديم ما هو تالٍ فى هذه المداخلة القصيرة والتى تستند إلى فرضيتين:

* أولاهما تتعلق بديناميات العلاقة بين المدرس والتلاميذ. إن أسلوب التعليم فى مصر يقدم دعما للقهر الاجتماعى الواقع على الفتاة ثم المرأة. فنظام التعليم فى مدارسنا يعتمد على قيادة من المدرس أو المدرسة تقوم بتلقين معلومات يقينية إلى التلاميذ، فلا يترك للتلاميذ مجال للوصول إلى الاستخلاصات من تلقاء أنفسهم ولا يجوز لهم التساؤل عن صحة هذه المعلومات أو مناقشتها، وهو تقريبا ما يحدث فى إطار التربية الأسرية للفتاة. فالصواب والخطأ منزلان لا يناقشان، والمسموح والممنوع مقدسان

لا جدال فيهما ، وكل منهما يقول إن هناك ما يجوز للولد ولا يجوز للبنت ، وإن عقاب البنت أشد من عقاب الولد لنفس الفعل ، وإن البنت حين تكبر تصبح مسئولة عن أخطائها ولكنها أيضا مسئولة عن أخطاء الولد معها . . إلخ . الرسائل التربوية التى لانتصور أن أحدنا غائب عنها ، الإشكالية فى هذه الرسائل أنها غير قابلة للنقاش أو التفسير أو المراجعة ، وبالتالى فإن البنت تتعرض فى المدرسة والأسرة لنمط من التعامل يؤكد لديها ضرورة الانصياع للسلطة ، لأى سلطة ، وأن مجابهة هذه السلطة أمر لا يجوز ، فتتعلم مبكرا أن إعمال عقلها فى الأشياء والقيم المحددة سابقا ليس من أدوارها المقبولة اجتماعيا . فتشكل بذلك أجيالا من النساء تقبل بالخضوع حتى وإن تعارض ذلك مع وجدانها واعتقادها ، لأن فى كسر هذا الخنوع خروجا عن المجتمع وبالتالى لفظ منه . أما الولد فإن كان يتعرض فى داخل المدرسة إلى نفس النمط التلقينى القمعى إلا أنه خارج أسوار المدرسة يجد خطابا مختلفا يقول له إنه قوام على الفتاة ، قادر على التجربة والخطإ ، مصرح له بالتجاوز ، فيجد بديلا عن الخطاب القمعى المدرسي . ولأن الإنسان بطبيعته يسعى إلى كسر القيود ، نجد أن الصبى ينحاز إلى الخطاب الاجتماعى والأسرى ، فيلفظ العلاقة المدرسية القمعية ويعدها خاصة بالمدرسة ، فى حين يسمح له المجتمع خارج أسوارها بمساحة أكبر من الحرية واتخاذ القرار وممارسة السلطة .

* الخلاصة إذن أن المدرسة تتعامل مع أولادها وبناتها بنفس الأسلوب الأبوى المتسلط، ومع ذلك فإن الأولاد يجدون خارج أسوار المدرسة خطابا آخر، فى الأسرة والأفلام وبين الأصدقاء يؤكد على قوامتهم وقوتهم وسيادتهم على الجنس الآخر. أما البنات فإن الخطاب ينسجم داخل وخارج المدرسة ويكرس بذلك دورا ثانويا أو تابعا أو مهمشا لهن كفتيات ثم كنساء فى المستقبل.

* ثانيتهما تتعلق بمضمون المقررات التعليمية التى تعكس فى عدد من المواقع نمطية الأدوار الموكلة للنساء والرجال فى المجتمع. «فأمى تطبخ وأبى يعمل فى الحقل» هو النمط السائد فى الوظائف الاجتماعية. ففى هذا الصدد تظهر المناهج خطابا برجوازيا محافظا يحدد أدوار المرأة فى أدوار منزلية فى إطار الأسرة الحضرية أو الريفية النووية السعيدة، حيث يعمل الرجل ويكافح خارج المنزل، وتعمل زوجته داخل المنزل على راحة ورفاهية أفراد الأسرة فى روح تضحية سامية. تضحية المرأة إذن من أجل أسرتها، أما تضحية الرجل فمن أجل الوطن. فلو أخذنا مناهج التاريخ مثلا لوجدناه تاريخًا من الحروب والفتوح والانتصارات بطلها الرجل فى حين أن المرأة غائبة تماما عن أى إنجازات تاريخية. حتى الملكة حتشبسوت يقتصر دورها فى كتب التاريخ على بناء معبد الدير البحري. وتختصر إيزيس الإلهة إلى زوجة تبحث عن رفات زوجها. وفى مكان آخر يصف كتاب التاريخ للمرحلة الإعدادية

المرأة الفرعونية فيقول: «وقد حرصت المرأة المصرية على الاهتمام بزينتها فاستخدمت أدوات الزينة مثل الكحل وأدوات الزينة مثل الأساور والعقود والخواتم والقلائد.. إلخ. وكانت المرآة من أهم حاجات المرأة التي لا غنى عنها». ولا يتصور أحد أن هذا ما كانت المرأة الفرعونية تتميز به في حضارة هي بشهادة الجميع من أعرق الحضارات أدت فيها المرأة أدواراً وصلت إلى حد الألوهية، ولم يجد المقرر التعليمي ما هو جدير بالتدريس للأجيال الجديدة سوى أدوارها كزوجة تتجمل وتضحي من أجل زوجها.

* أما في كتب القراءة، فتبرز لنا هند واصف في بحثها عن «صورة المرأة في مناهج التعليم في مرحلتي الإعدادي والثانوي» رسالتين في مقدمة كتاب الصف الثالث الإعدادي: إحداهما موجهة من أب إلى ابنته، والأخرى موجهة من أب إلى ابنه، نسوقهما من باب المقارنة التي لا تستدعي تعليقا: «يا بنتي إذا أردت جمالا يتحلى به الجسم ويزدان به العقل، فابتعدي عن التزين المعيب لأن جمال النفوس أشرف من كل جمال. وإنه ليزين الوجه أن تبدو عليه دلائل الشرف والعزة، وإن الحياء لخير ما تتحصن به الفتاة لأنه أحق بها ولن تسعد فتاة تخلت عن الحياء. ولا يتحجر قلبك أمام مناظر البؤس والفقر، بل يجب أن يرى منك البائسون دموع الرثاء لحالهم فهي أجمل من اللآلئ لما تدل عليه من رحمة ورقة. ذلك ما أطلبه منك. وأنت يا بنتي لن تردي للأب مطلبا..».

وعلى العكس من ذلك تكون الرسالة الموجهة إلى الابن: «الابن للأب هو المصباح المنير الذى يؤنسه فى حياته، لذا فهو يفيض عليه من حنانه ما لا تستطيع الكلمات أن تعبر عنه. الشاعر يحاول لا يكتم عن الناس بلسانه ما يشعر به من حبه العظيم لابنه، ولكن دموعه وقسمات وجهه تعلن ما يكتمه وهو لا يرى عيباً فى ذلك لأن ابنه كان أقصى ما يتمناه، حتى إنه لا يريد من الحياة مزيداً على سعادته بابنه، وكل ما عداه ليس إلا زيادة تافهة يمكنه الاستغناء عنها. وإذا مرض أو شكا من شىء فإن الدنيا تصبح كالصحراء الجافة الموحشة». إذا كان هذا ما يدرس فى المدارس، فكيف للبنت أن تناقش أباها أو أمها فى التمييز فى المعاملة بينها وبين أخيها؟ وفى مكان آخر تقتبس لنا هند واصف: «مهمة الرجل أن يكد ويكدح، ثم يضع كسبه رهن إشارة الأسرة التى بناها راضيا مختارا، ومهمة المرأة أن توفق بين رزق زوجها ومطالب مملكتها، فتضيق من دائرة ما تنفق بما يلائم الدخل. وأهم من هذا وذاك أن تنزل إلى معترك الحياة عاملة مجدة ما دامت حالة الأسرة معسرة، وبيدها أن تيسرها، فنحن نعيش فى زمن يقوم على تبادل النفع والانتفاع. وعلى كل من الزوجين أن يسهم بنصيبه من الجهاد فى معركة الرزق». هذا الاقتباس يعكس موقفا واضحا من حق المرأة فى العمل. فعمل المرأة هنا ليس حقا طبيعيا وإنما هو استجابة لحاجة اقتصادية مترتبة على عدم قدرة الزوج. ثم إن هذه الفقرة، تثبت أن ما يدرس لتلاميذنا لا علاقة له بما يحدث فعلا فى المجتمع الذى

يعيشون فيه، فمن يقرأ هذه الكلمات لا يخطر على باله أنها صادرة عن مجتمع تعيش فيه ٢٥٪ من الأسر بإعالة المرأة وحدها. مقرر خيالي لا يمت للواقع بصلة.

* في فقرة أخرى من موضوع قراءة بعنوان وطنيات يشار فيه إلى المرأة العربية بما يلي: «كان تاريخ المرأة هو تاريخ الرجل. وكان جهادها هو جهاده. وكان مجدها هو مجده. أعظم أم وأكرم زوجة، وأصدق زميلة وصاحبة للرجل، كانت صانعة التاريخ الحقيقي، حيث إنها حملت وحضنت وأرشدت طفولة أعظم وأصدق وأبقى الرجال..». المرأة دائما مضاف إليه. عظمتها ليست فيما تنجزه، وإنما في أنها تنجب وتربي العظماء..

* أما في مقرر الاقتصاد المنزلي للمرحلة التعليمية نفسها، فتحديد الأدوار واضح:

١ - «للمرأة الحق في أن يوفر لها زوجها حياة كريمة مستقرة وأن ينفق عليها. لها الحق في طلب الطلاق إذا أساء الزوج معاشرتها واستحالت الحياة بينهما» (فهي مفعول به في الحالات الطبيعية وفاعل إذا استحالت الحياة).

٢ - يجب على الزوجة طاعة زوجها، وأن تعمل على راحته واحترامه، وأن تحفظه في عرضه وماله ولا تخرج من منزله إلا بإذنه، وأن تشارك زوجها في المسئوليات وتقدر إمكاناته وظروفه، ولا تغالي في طلباتها وتنظم النسل حفاظا على صحتها وعلى

صحة أولادها ، حتى النسل الذى يحتم مشاركة الزوجة والزوج فى إنجابه تقع مسئولية تنظيمه ضمن مسئوليات الزوجة؛ فما مسئوليات الرجل؟

٣ ـ الإنفاق على الزوجة ، والمشاركة فى تربية الأبناء ، وأن يكون قدوة صالحة أمامهم (الاثنان يربيان لكن الرجل هو القدوة) ، والمعاونة فى الأعمال المنزلية بقدر الإمكان ، واحترام الزوجة فى السر والعلانية والطاعة والاحتمال فى مقابل الإنفاق والاحترام .

هذه هى معادلة الزواج التى تنقلها المقررات الدراسية لأبنائنا . فهل هذا نمط إنسانى؟ بل إن الكتاب نفسه حين يتطرق فى موقع آخر إلى أسباب التفكك الأسرى يشير إلى سببين : أولهما نمط العلاقات داخل الأسرة ، وثانيهما خروج المرأة للعمل . وبذلك يجب أن تكون المرأة العاملة أو الراغبة فى العمل مجهزة سلفا لتحمل قدر كبير من الشعور بالذنب حيال ما قد يترتب على عملها من مضار للأسرة ، أو لا يحدث ذلك فعلا . إن تحمل المرأة وحدها مسئولية انحراف الأبناء وأحيانا مرضهم وكأن الرجل ـ المفترض فيه أن يكون قدوة ـ لا يؤدى دورا إيجابيا (سواء عن وعى أو بدونه) فى تربيتهم . إن الرسالة المتضمنة هنا هى أن الأبناء إذا شبوا أصحاء ونبلاء فذلك لأن آباءهم كانوا قدوة ، أما إذا تفككت الأسرة وانحرفوا فلأن أمهاتهم كن يعملن . .

* وجدير بالذكر أنه من الوارد أن تتضمن المقررات التعليمية أشكالا

نمطية للنساء، فى حين يطرح عليهن الخطاب الاجتماعى والسياسى للدولة وللقوى الاجتماعية المختلفة دورا آخر فيترك بذلك مجالا للاختيار بين نمطين أو شكلين من التفاعل الاجتماعى، كما يطرح عددا من الأدوار الممكنة لكى تختار البنات منها ما يجدن فيه تحقيقا للذات وتشجيعا من بعض الأطراف على الأقل. ولنأخذ على سبيل المثال الفتاة والتلميذة فى الستينيات. لا يمكننا الادعاء بأن مقررات الستينيات كانت تختلف جوهريا عنها اليوم، ولكن خارج إطار المدرسة كان هناك خطاب يدعو إلى التنمية ويدعو إلى مشاركة الجميع رجالا ونساء فى هذا المشروع، ومن ثم فإن نموذج المدرسة كان يمكن أن يعادل بنموذج اجتماعى أو نموذج إعلامى لا يحصر الفتاة فى دور واحد ثانوى، مهما أشير إليه بتبجيل واحترام. أما اليوم فإن الخطاب الاجتماعى الموجه للفتاة أصبح ينسجم انسجاما شديدا مع الصورة النمطية لمستقبلها كامرأة.

الحديث قد يطول بنا إلى ما لا نهاية فى تعديد الفقرات والكلمات التى تبث رسالة مباشرة يمكن الاشتباك معها، وإنما تبث الرسالة مجتزئة وتدريجية بحيث لا تكتمل الصورة إلا فى وجدان الصبية والصبي. فأى رجل هذا الذى سوف يتنازل عن الحقوق المطلقة الموكلة له مدرسيا وأسريا واجتماعيا من أجل فكرة رومانسية تقول بالمساواة بين كل البشر رجالا ونساء؟! وأى امرأة هذه التى سوف تدفع ثمنا أسريا واجتماعيا باهظا لكسر نمطية الأدوار والفكر من أجل

وجود إنسانى أرقي؟! إن القيم التى نبثها فى أبنائنا منذ الصغر تخلق مشروعات لرجال مسيطرين ونساء منسحقات، مجتمع نصفه شعور بالعظمة غير المسوَّغة، ونصفه الآخر يعانى شعورا بالذنب غير مسوَّغ. فهل هذا ما نُعِدُّ أنفسنا به لدخول القرن الواحد والعشرين؟!

التحليل النفسى للسادات وقاتله[1]

السادات، مات فى مثل هذا اليوم منذ ١٦ عاما.

السادات، برغم كل ما كتب ما زال شخصية مثيرة، ومحيرة أيضا.

البعض أحبوه ووصفوه بالملهم، والآخرون كرهوه واتهموه بالخيانة. أفعاله وقراراته المفاجئة تسبب صدمات للجميع: مؤيديه ومعارضيه.

السادات، الرجل الذى أثرت قراراته وسياساته على الشرق الأوسط بل العالم كله، يحتاج إلى من يحلل شخصيته نفسيا، ويفسر لنا أفعاله.

وضعنا أوراق السادات وحكاياته من خلال ما كتب عنه، وعن قاتله خالد الإسلامبولى أمام الدكتور أحمد عكاشة أمين عام الجمعية العالمية للطب النفسي (كتب هذا المقال قبل انتخابه رئيسا للجمعية) فقال لنا:

(١) أجرى الحوار الأستاذ/ أسامة سلامة، ونشر في مجلة روزاليوسف في ٦ من أكتوبر عام ١٩٩٧.

لا أستطيع أن أقول إننى أقدم تحليلا عميقا لشخصية السادات دون فحصه، وكل ما أفعله هو تقييم له، ولو أن بعض الزملاء من الأطباء النفسيين الأمريكيين قاموا بعمل دراسات وافية عنه قبل كامب ديفيد، وكذلك عن بيجين، وقد أمكن للمسئولين الأمريكيين استغلال هذه الدراسات فى إنهاء اتفاقية كامب ديفيد بسرعة. وهؤلاء الأطباء لم يفحصوه بالطبع، ولكنهم أخذوا التاريخ الطولى والتاريخ الارتقائى لحياته وهواياته وقراءاته وعلاقاته الشخصية، والأشياء التى تسعده والأشياء التى تغضبه حتى يضعوه فى المكان اللائق والجو الملائم لتوقيع الاتفاقية.

ولا ننسى أنه بسبب مباحثات كامب ديفيد استقال اثنان من وزراء الخارجية لعدم موافقتهما على بعض البنود. وسواء كنا مخطئين، أو كان السادات هو المخطئ، فإنه مما لا شك فيه أن دراسات سمات الشخصية للرئيس الراحل كان لها أكبر الأثر فى إبرام هذه الاتفاقية.

* إلى أى شى وصل الأطباء الأمريكان من خلال دراساتهم لشخصية السادات؟

- قالوا إنه لا يميل إلى التعمق فى الأشياء، وإن وقدرته على المثابرة والصبر محدودة، ولذا يستحسن ألا تطول المناقشات وألا ندخل فى تفصيلات دقيقة جدا، وهى الأشياء التى كان يفضلها وزراء الخارجية. ومما لا شك فيه أن إنجاز كامب ديفيد عظيم، ولكنه يظل إنجاز رجل دولة، لا إنجاز زعيم. وهو نجاح حنكة سياسية، ولكن

تم على أساس ابتلاع الكثير من كرامتنا. فإلى الآن سيناء غير مسلحة، وإسرائيل تستطيع الهجوم عليها واحتلالها من جديد لأنه غير مسموح لنا بإدخال أى نوع من أنواع التسليح. هذه سياسة عظيمة جدا لرجل دولة، ولكن الزعيم عادة يقوم بمغامرات وباندفاعات. والزعيم من الممكن أن يخطىء أيضا، إن حساباته تكون مبنية على فروسية وشهامة وتضحيات.

* هل هذا هو الفارق بينه وبين عبد الناصر؟

- احتمال كبير. أريد أن أقول إن الإيجابيات والسلبيات موجودة عند كل منهما. معروف فى علم النفس أن التغيرات الاجتماعية تسبق التغيرات النفسية، ولذلك إذا لم تهيىء الشعب للتغيرات النفسية قبل الاجتماعية، فيحتمل ظهور عدة مساوئ. مثلا سياسة الانفتاح كانت كلها استهلاكية، وحدث فيها «هبر» (نهب) لأن الناس اندفعت بعد فترة من الانغلاق، وكان المفروض ألا تتم بهذه السرعة وبنوع من الرقابة فأصبحت كلها استهلاكية ونتائجها سلبية.

* حسب رأى كثيرين، فإن السادات كان عاشقا للكاميرا، وإن الأمريكان استغلوا هذا جيدا، فهل ظهر ذلك فى الدراسات التى أجروها عليه؟

- الأمريكان كانوا يعلمون تماما اهتمام السادات بالصورة

الاجتماعية ، فكلنا لنا ثلاث صور . الأولى : هي الذاتية وهي بين الإنسان ونفسه ، ولا يعرفها إلا الطبيب النفسي . ولكن عندما يخلو الإنسان إلى ذاته يعرف من هو نفسه ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه . أما الصورة الثانية ، فهي الاجتماعية ، وهي كيف يتمنى الإنسان أن يظهر أمام الناس وما هو إدراك الناس له . هذه الصورة كلنا نعيش بها ، ولكن بعض الناس يتمادى فيها ، خاصة عندما يجد من ينافقه مثل أن يقول له : أنت العملاق . أنت العبقري . أنت الجميل . أنت المؤمن . ومن كثرة هذه الأقاويل يمكن أن يصدقها ، وهذا يحدث لبعض الممثلين الذين ينسون الصورة الذاتية لهم ويعيشون في الصورة الاجتماعية ، وبعد فيلم أو فيلمين ، إذا لم يستمروا بنفس النجومية فإنهم يصابون بانهيار شديد جدا . والصورة الثالثة هي المثالية ، وهي ماذا يريد الإنسان أن يصل إليه وماذا يصبو إليه . ولا شك في أن السادات كانت تهمه الصورة الاجتماعية والمظهر الخارجي ، ويتضح ذلك من الملابس المختلفة التي يرتديها : مرة الجلباب ، ثم البدلة ، والملابس العسكرية مرة والبايب مرة . وهو الرئيس الوحيد الذي جاء بمصور ليلتقط له صورة وهو يحلق لحيته ، ويفطر ويستحم . ولا ننسى أن الأمريكان أشاعوا أن السادات لو رشح نفسه في أمريكا لفاز . والحقيقة أن أحسن وسيلة لإنهاء إنسان هي أن تمدح فيه حتى ينتفخ ، وما دام قد وصل إلى الانتفاخ فإن دبوسا صغيرا يجعله ينفجر . والأمريكان لعبوا هذه اللعبة ، مرة يختارونه ضمن أشيك ثلاثة في العالم ،

ومرة ينتخبونه أحسن زعيم سياسي ، وهذه خطة وإستراتيجية استخدموها مع السادات .

* هل كل هذا المديح والتركيز الإعلامي أصابه بالبارانويا؟

- إذا كان إنسان لديه هذه السلطة المطلقة ولا أحد يقول له لا ، فلا يوجد بشر معصوم من الإحساس بالغرور والانتفاخ الذاتي والإحساس بأن الكل يتآمر عليه ، وأن كل صديق يخطط للتخلص منه ، ويصبح شغله الشاغل ليس العناية بالشعب ، ولكن البقاء في الحكم والسلطة . ولهذا فإنه في كل بلاد العالم لا يوجد رئيس دولة تجدد له أكثر من دورتين إلا في البلاد الشمولية . وفي أمريكا مثلا الرؤساء يعرفون أنهم بعد انتهاء دورتهم سيعودون إلى المنزل وسيذهبون للشراء من السوبر ماركت ، ويعيشون حياتهم العادية . هذا بلا شك يؤثر على سلوكهم جدا . أما لو الإنسان عرف أنه هو الحاكم المسئول بلا نهاية ، فهذا أيضا يؤثر على سلوكه بشكل آخر . والحركة الأخيرة للسادات - وهي اعتقالات سبتمبر ، والتي جمع فيها جميع الاتجاهات السياسية من يمين إلى يسار ، من مسلمين إلى أقباط - تعني أنه أحس بأن الكل يتآمر ضده . وهو عندما قام بها لم يكن لديه شعور بالتآمر ، ولكن الوجود في السلطة فترة طويلة بدون رقيب أو شخص يقول لا وصل به إلى هذه المرحلة . ومما لا شك فيه أنه مهما قيل عن الإيمان بالديمقراطية فإن الحكام العسكريين

يميلون إلى الحكم الشمولى سواء كان بطريقة واضحة مثل عبد الناصر، أو بطريقة غير واضحة مثل السادات.

* السادات كان يرغب فى أن يكون ممثلا قبل الثورة، فهل هذا كان أحد أسباب اهتمامه بالصورة والكاميرا أكثر من أى شىء آخر؟

- كان اهتمامه شديدا بالصورة الاجتماعية. وحسب الروايات التى قيلت عنه لم تكن له قراءات كثيرة ولا عميقة، ولم يكن مثابرا على قراءة التقارير مثل عبد الناصر الذى كان يدخل فى التفاصيل الدقيقة جدا. والسادات كان يحب الهواء الطلق والجلوس فى الحديقة وعلى البحر، أى أنه كان يحب الحياة السعيدة المرفهة، وهذا ليس عيبا، ولكنه من المؤكد سيؤثر فى قراراته.

* هل كان للونه الأسمر تأثير عليه، كما قال البعض؟

- يحتمل أن يؤثر، ولكن ليس بهذه الدرجة. ولدينا علماء وأدباء وفلاسفة وعظماء لونهم أسمر، ولم يشكل لونهم شيئا معوقا. ولكن إذا كان صحيحا ما سمعته من أن بعض زملائه كانوا يسخرون ويضحكون معه من لونه، فمن الممكن أن يؤثر فيه ذلك، كما أنه من الممكن ألا يؤثر، ولكنى لا أعتقد أن اللون كان ذا تأثير كبير عليه، لأن لونه مثل عدد كبير من المصريين، وخاصة فى الصعيد. ولا أعتقد أن هناك إنسانا فى مصر يمكن أن يؤثر لونه عليه تأثيرا نفسيا قويا إلا إذا كان مجالا للتقليل من قيمته، فى وقت من

الأوقات فهنا يؤثر عليه ويحاول تعويضه بالصورة الاجتماعية المبالغ فيها.

* هل اختلف السادات نفسيا قبل الحكم عن بعد توليه الحكم؟

- نعم قبل الحكم كان إنسانا مغامرا و مضحيا خاصة قبل الثورة عندما شارك في قتل أمين عثمان، بمعنى آخر «اتبهدل». بعد الثورة عكس هذا جاءت الرفاهية، خاصة بعد تولى الرئاسة، بالطبع البقاء في الحكم أهم شيء. والحقيقة أنه كان رجلا سياسيا ومحنكا ورجل دولة بعد أن أصبح رئيس جمهورية. أما في الوظائف التي تولاها قبل ذلك فلم يكن مبدعا ولا منجزا. وقد يكون السبب أنه لم تعط له الفرصة، ولكن إمكاناته كانت فيها بعد نظر وحنكة سياسية، ولكنه لم يستطع أن يكون زعيما، ولم تلتف حوله الجماهير المصرية والعربية لأن الجاذبية الجماهيرية التي كانت لعبد الناصر أثرت. فهو ظلم لأنه جاء بعد عبد الناصر الذي تمتع بجاذبية جماهيرية غريبة، وإحساس الناس بأبوته كان مهولا، حتى إن بعض الناس عند وفاته كانوا يبكون ويقولون «هاتسيبنا لمين ياريس»؟ والسادات لم تكن لديه هذه الجاذبية الجماهيرية، برغم أن وسائل الإعلام حاولت خلق هذه الجاذبية، ولكنها فشلت؛ لأن الجاذبية لا تكتسب، فهي هبة من الله، والسادات لم يستطع أن يعطي مصر العزة والكرامة التي أحسها الناس أيام عبد الناصر، ولو أن نصر أكتوبر رفع رأس مصر أكثر من أشياء كثيرة عملها

عبد الناصر. ولكن برغم هذا فإن السادات حظه سيئ، فالناس لم تتركه يتمتع بهذا النصر، فجاءت كامب ديفيد التي عارضها جزء كبير من الشعب حتى الآن. هل كان السادات على حق فيما فعله، أم لا؟ أنا لا أستطيع أن أحدد، فأنا لست سياسيا وأترك تقييم هذا الأمر للمتخصصين.

* هل كان عدم حصوله على الزعامة سببا في السماح للبعض بالهجوم على عبد الناصر؟

- لا شك في أن هذا هو أحد الأسباب، ولا ننسى أنه نموذج لحكام مصر من أيام الفراعنة.

* هل هو فرعون؟

- نعم.

* ما سمات فرعون؟

- حب السيادة، وحب السيطرة، والإحساس بأنه صاحب رسالة مقدسة، والرغبة في الطاعة العمياء، والنداء بالديمقراطية دون تطبيقها.

* هل كان السادات من النوعية التي يكون فيها لزوجته تأثير كبير عليه في اتخاذ قراراته؟ لقد قرأت في مذكراتها أنها طلبت منه أن يصدر قانون الأحوال الشخصية الذي سمي بقانون جيهان هدية في عيد ميلادها. كما أن البعض يروى عنها أنها تدخلت في

اختيار الوزراء أو في الإفراج عن المعتقلين، أو استعان بها البعض لإقناعه بأمر ما؟

- إذا كان هذا حقيقيا فيوجد تأثير. ولكني أريد أن أقول إن قانون الأحوال الشخصية كان جيدا. وعموما لا تصدق أنه يوجد أي رجل أو أي زوج لا يكون لزوجته تأثير عليه لأنه في آخر اليوم هو معها، وهو بشر. وإذا كانت السيدة تتميز بذكاء وشخصية السيدة جيهان فلا يوجد عيب في أن تؤثر على زوجها. ومن خلال لقاءات قليلة معها في بعض المناسبات ومعاملاتي البسيطة معها لم أجد أنها شخصية مسيطرة لأنها لابد أن تسيطر على شخصيات تابعة، ولم أحسسها مع جيهان. وكثيرون ممن يعرفونها لم يشعروا بهذا الإحساس. ولكن السيدة جيهان كانت في موضع سلطة، زوجة للرئيس، وشيء طبيعي أن يكون لها احترام معين، وهذا موجود في كل بلاد العالم، وخاصة إذا كانت شخصيتها قوية. مثلا زوجة كلينتون لها شخصية قوية، وكذلك زوجة توني بلير في بريطانيا، أما زوجتا كول وشيراك فلا يشعر أحد بهما، وهذا أمر يعتمد على شخصية قيادية أو تابعة. ولكن لا نستطيع أن نقول إنها سيطرت. وكذلك لديها الشخصية الاجتماعية المحببة للناس، أي يحتمل أنها تمتلك كاريزما (الجاذبية الجماهيرية) أكثر من زوجها.

* هل ظهورها شخصية لها خدماتها الاجتماعية وآرؤاها السياسية كان استكمالا للصورة الاجتماعية للسادات؟

- لا شك فى أن وجودها بجواره كان فى مصلحته، لأنها كانت تعطى صورة حضارية للرئيس المصري.

* سياسة الصدمات التى انتهجها السادات والتعبيرات المفاجئة كيف نفسرها نفسيا؟

- السادات كان يتميز بعدم المثابرة والاندفاع وعدم التروي، وكان يسمى ذلك الصدمات الكهربائية، وهذا نقيض للسياسة التى هى إستراتيجية عميقة بعيدة المدى. وأمريكا استغلت هذه الاندفاعية وعدم المثابرة فى كامب ديفيد للانتهاء منها سريعا. والاندفاع وعدم التروى سمة من السمات الشخصية لبعض الناس، وليس مرضا نفسيا.

* التناقض بين كلام السادات عن الديمقراطية واعتقاله لعدد كبير من السياسيين والمفكرين هل له تفسير نفسي؟

- لا نستطيع أن نقول إنه توجد ديمقراطية فى كل بلاد العالم الثالث إلا فى الهند. عبد الناصر كان يعلن أنه شمولي، فمن أتى بعده كان لا يريد أن يظهر بنفس الصورة، فاتخذ شعارات أخرى، ولكن سمات الدكتاتورية موجودة فى أى حاكم عسكري، وطرق التعبير عنها مختلفة، ولكن وقت الأزمات والشدة واهتزاز الحكم تظهر فورا السمات الدكتاتورية.

* نفسيا هل يؤثر عليه تناقض أقواله مع أفعاله؟

لا إذا كان يعيش فى الصورة الاجتماعية وينسى الصورة الذاتية والصورة المثالية ممكن أن يكون لديه رضاء عن نفسه، ولكن الآخرين يكونون غير راضين عنه.

* السادات أبعد الذين ساعدوه . . . هيكل الذى وقف معه فى ١٥ مايو، وكذلك الفريق محمد صادق، وأشرف مروان، وحتى الفريق الجمسى الذى شارك فى حرب عام ١٩٧٣ . بل إنه اتهم هيكل بالخيانة، وجعل بعض الصحفيين يهاجمونه، وكذلك أشرف مروان، هل هذه التصرفات لها دلالات نفسية؟

- هذه هي صفات الحاكم الشمولي، دائما يشك فيمن حوله، ويفكر أنه من المحتمل أن يكون وريثه للسلطة، أو يحتمل أن يكون مركز قوى، ولا توجد ثورة لم يتم فيها التخلص ممن قاموا بها. أى ثورة تخلص على نفسها، ولكن إذا كان صحيحا أنه المسئول عن إبعادهم فهذه هى سمات الحاكم الشمولى الذى يخشى أى مراكز قوى بجواره.

* هل الشك كان وراء قراراته بالتغييرات الوزارية السريعة؟

- لا هذا أيضا نتيجة لعدم قدرته على المثابرة، فالوزراء الذين أتى بهم لم تكن لهم شعبية، ولا يخشى منهم.

* هل اختلفت سمات رجال السادات عن سمات رجال عبد الناصر؟

- رجال السادات كانوا شخصيات مختلفة تماما عن رجال عبد الناصر

الذى كان معه الضباط الأحرار باستمرار، أما السادات فتخلص منهم، وكان معه أشخاص لا علاقة لهم بالثورة.

* لماذا أبعد الضباط الأحرار فى رأيك من الناحية النفسية؟

- هو كان يشعر أن حجمه داخل مجلس قيادة الثورة أقل من حجمهم، وهذا لا يعطيه راحة نفسية فى التعامل معهم، وخاصة أن هؤلاء عسكريون يهتمون بالأقدمية، ومعظمهم كانوا نواب رئيس جمهورية قبله، ولهذا أبعدهم. وما حدث مع ثروت عكاشة دليل على ذلك، فقد كان وزيرا للثقافة قبل أن يتولى السادات الحكم، فقال له لا أستطيع أن أفرط فى أى شخص من الضباط الأحرار، ويجب أن تكون بجانبي، ولكن أنت: عظمك ناشف على محمود فوزى رئيس الوزراء، ويقول إنك لن تنسجم معنا فى الوزارة. فقال له أنا إنسان لست «مستوزرا» واتركونى أنتهى من كتابي. فسأله السادات كتاب إيه؟ فأجاب ثروت: كتاب «العين تسمع والأذن ترى»، فضحك السادات بشدة وقهقه وقال له: أريدك بجانبي، ولهذا سأعينك سفيرا فى فرنسا. فقال ثروت: أريد أن أنتهى من الكتاب، ثم كيف تقول «عظمى ناشف» وتعينى سفيرا؟ ورد السادات: فى الخارج الأمر يختلف عن الداخل. ولكن ثروت رفض، فاقترح السادات أن يكون مساعد الرئيس، واشترط ثروت أن يكون للشئون الثقافية، فقال السادات بشرط أن تكون للتخطيط فقط، وليس للتنفيذ إلا فى مجال النوبة. وصدر

قرار بتعيينه مساعد رئيس الجمهورية دون كتابة للشئون الثقافية التي كان يصر ثروت على كتابتها فى الأوراق الرسمية . وبالفعل أرسل ثروت عدة تقارير للسادات ، ولكنه لم يرد عليه طوال مدة خدمته التي امتدت ما يقرب من ٤ شهور ، وبعد فترة طلبه النائب العام وسأله : هل قابلت السفير محب عبد الغفار؟ فقال ثروت : نعم . فسأله : هل قلت نكتة على الرئيس؟ فأجاب : لا أعرف ، ولكن قل لي النكتة حتى أتذكر . فأقفل التحقيق . وفي اليوم التالي صدر قرار بإبعاده عن جميع مناصبه ، وبعد ذلك عرف من صلاح نصر أن شعراوى جمعة قال له فى السجن : إن السادات كلف شعراوى بتلفيق تهمة مخدرات أو دعارة للدكتور ثروت ، ولكنه رفض ، وهذا مذكور في كتاب كمال خالد عن قضية شعراوى جمعة . وهذا أمر غريب أن يطلب منه أن يكون بجانبه ثم يريد أن يدبر له تهمة مخدرات أو دعارة ، وهو أمر معناه أنه لا يريد أن يقال عنه إنه يتخلى عن الضباط الأحرار ، لأنه كان ما زال في البداية ، ولكنه تدريجيا تخلص منهم لأنهم كانوا يسببون له الألم ، لأن حجمه كان صغيرا وسطهم ، وهو أمر يعطيه عدم الراحة في وجودهم .

* هل يمكن أن يطلق على السادات الرجل متعدد الوجوه؟

- هو كان متعدد الصور ، فهو يحب أن تكون صوره الاجتماعية باستمرار مبهرة ، ومحور الاهتمام والارتكاز .

* حب الكاميرا ماذا يعني نفسيا؟

- هذا عشق للذات ونرجسية.

* قتل السادات على أيدى المتطرفين... فما السمات النفسية لخالد الإسلامبولي؟

- المتطرف إنسان يولد وعنده استعداد للتطرف، وحسب البيئة والتعرض للعقائد المختلفة يختار طريقه. وأكبر دليل على ذلك أن المتطرفين الشيوعيين عندما انقلبوا أصبحوا متطرفين إسلاميين، وهذا أكبر دليل على أن التطرف سمة من سمات الشخصية، ويكون فيه الإنسان متصلب الرأى وغير قابل للمناقشة، وعديم المرونة.

* هل قتلة الرؤساء لهم سمات خاصة؟

- بعضهم مختل عقليا، وبعضهم مدفوع بواسطة أناس آخرين، وبعضهم عن عقيدة خاطئة.

* الطريقة التى نفذ بها الإسلامبولى اغتيال السادات كيف تقيمه نفسيا من خلالها؟

- هو قام بهذه العملية واحتمال الاستشهاد قائم لديه بنسبة ١٠٠٪.

الإيمان والصحة النفسية

على عتبة القرن القادم

دعيت لألقى المحاضرة الافتتاحية فى المؤتمر العالمى للجمعية العالمية للطب النفسي، المنعقد فى همبورج - أغسطس عام ١٩٩٩، والذى تم فيها بحمد الله انتخابى رئيسا لهذه الجمعية، و ذلك عن دور الإيمان فى الصحة النفسية، خاصة أنه قد ثبت بعد كل التقدم التكنولوجي، والثورة البيولوجية، وعلوم الهندسة الوراثية، ودور الإنترنت والاكتشافات الطبية، أن هذا التقدم العلمى قد أعطى المزيد من الراحة للإنسان، لكنه عجز عن إعطائه معنى لحياته، وظل يفتقد إلى مغزى لبقائه. وثبت أن ثمة فراغا فى حياة إنسان القرن العشرين لن يملأه إلا الإيمان. وكان ذلك من دواعى دعوتى لإلقاء هذه المحاضرة والتى استغرقت ساعة كاملة، ولذا سأكتفى فى هذا المقال بإعطاء الهيكل الأساسى الذى شيدت عليه فكرة هذه المحاضرة.

أعلن الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه في عام ١٨٨٢، أن الله قد

مات، وتصور نتيشه أن مجنونا يجوب الشوارع باحثا بجدية عن الله، فانبرى المارة يسألونه ساخرين أين ذهب الله؟ ويجيب المجنون على سؤال الناس «نحن قتلناه، أنتم وأنا، نحن القتلة». ويقال إنه منذ هذا الوقت فقد الأوربيون التوجه الأساسى للحياة وكأنهم فى انتظار الفراغ أو العبث اللانهائي. وأصبح الأوربيون يعدون الدين ستارا لإخفاء النفاق الجنسي، وقوة تدعم العنصرية، من أيرلندا إلى البلقان. ولكن هذا لا ينفى الالتزام بالدين والإيمان فى كثير من الناس.

ويؤكد الخبراء أن العلمانية وصلت إلى قمتها فى الثمانينيات. وطبقا لإحصاءات معهد تورينو لدراسة الأديان يؤمن ٩٠ ٪ من الأوربيين بوجود الله، وهى نسبة تزيد ٢٠ ٪ عن العقد السابق. أما الشباب الأوربي، فقد ابتدع إيمان الخلط المتاسب Mix and Match، ويشكل الالتزامات الأخلاقية على هواه. وعادت البلاد الأوربية التى كانت ملاذا للمسيحية تمر بزمن الإيمان بالله ولكن دون انتماء للدين. وتدل الإحصاءات الأخيرة على أن ٣٪ - ٤٪ فقط من سكان باريس ترددوا بانتظام على الكنيسة فى عام ١٩٩٨، وأن ٨٩ ٪ من البريطانيين لم يترددوا على الكنيسة بانتظام عام ١٩٩٥، وارتفعت النسبة فى عام ١٩٩٩ إلى ٩٩ ٪ لم يترددوا على الكنيسة الإنجيلية. وعلى حين ينتمى ٨٥ ٪ من سكان السويد للكنيسة السويدية، فإن ٥٠ ٪ منهم لا يؤمنون بالعالم الآخر.

ويعتقد الأوربيون المعاصرون أن الدولة المتحضرة قد تولت دور

وأهداف الدين. فبعد الحرب العالمية الثانية وانتشار الرعاية الاجتماعية والصحية، وظهور مجتمع الرفاهية، وخدمة الفرد، تقلص دور الكنيسة وما كانت تؤديه من أعمال الخير. ويقول أحد الفلاسفة الأوربيين: إن دور الدولة المعاصرة في رعاية القيم والأخلاقيات الإنسانية والخدمات التي تقدمها جعلت الحصول على هذه الخدمات من خلال الكنيسة عبثا. وتقول إحدى الأوربيات الشابات: «أنا لا أفكر في الله إلا عند زيارة إحدى الكنائس الجميلة في إيطاليا، أو عندما أشاهد في التليفزيون ما يحدث في كوسوفو أو البوسنة أو رواندا. وأعتقد أن معظم أصدقائي يفكرون بالطريقة نفسها. ولكني أشعر بأني أفتقد شيئا ما كما أحس بخواء داخلي. وأنا على يقين بأن إيماني بالله سيمنحني الكثير من القوة والاطمئنان. وإني لألمس هذه الطمأنينة بوضوح عندما أتطلع إلى جدتي!».

ولا نستطيع أن نغفل أن الحياة السياسية في العالم تتأثر بالدين سواء إلى الأفضل أو إلى الأسوإ. فقد نجحت الثورة الإيرانية بفضل عودة نشاط الدعوة الإسلامية، وكذلك نجحت أفغانستان في طرد الروس من خلال الدعوة الإسلامية، وترى الآن ما يحدث في كوسوفو والبوسنة والشيشان وداغستان، كما قد حاول اليمين المسيحي في الولايات المتحدة العودة إلى استغلال الدين، وكذلك متطرفو الصهيونية في إسرائيل. ولا توجد حكومة في العالم الآن تستطيع تجاهل الدين. وخير مثل لتأثير التطرف الديني هو اغتيال السادات في مصر ورابين في إسرائيل.

ويعتبر التطرف الديني محاولة يائسة لعودة الإيمان بالله ، فهؤلاء يؤمنون بأن المجتمعات الحديثة تحاول وأد الدين والإيمان ، ومن ثم ينبغي التخلص منها . والمتطرفون في الأديان السماوية (الإسلام ، والمسيحية ، واليهودية) مقتنعون بأن مجتمعاتهم العلمانية تحاول إبادتهم ، ومن ثم يجب عليهم الصمود واللجوء إلى الإرهاب .

وللأسف الشديد ، فإن النجاح العلمي ، والعلمانية المنطقية أعطيا انطباعا بأن هذا هو الطريق الصواب . وبدءوا يعتقدون أن الله حقيقة موضوعية مثلها مثل الذرة ، فإذا لم تثبت النتائج العلمية وجوده يحق لنا أن نفقد الإيمان ، ومن هنا أدى عدم اكتراثنا بطمأنينة الإيمان والسلام الداخلي إلى فقدان هذا الإحساس الرباني .

خلق الإنسان تحدوه رغبة ملحة في التأمل المتسامي والإحساس بنشوة الخالق وأن الحياة لها قيمتها ومعناها وأنه بدون ذلك كله يصبح الإنسان كالحيوان .

إن إهمال الروحانيات والإيمان بالدين والحب والسلام قد كبد أوربا في أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية ما لا يقل عن ٧٠ مليون نسمة ، وذلك لصراعات سياسية . ولذا يجب الاجتهاد المستمر في فقه الأديان السماوية حتى تواكب التغيرات العلمية والتكنولوجية ، لأنه من الاستحالة اتباع الفقه الحالي على غرار فقه الأسلاف ، فالعالم قد تغير ، وإن لم تواكب الأديان السماوية هذه التغيرات بفكر جديد

وسماحة مرنة ، فستفقد هذه الأديان كثيرا من أتباعها ، وستعم العلمانية التى قد تؤدى إلى هلاك الإنسان .

إن تغيير مفاهيم الأديان السماوية مع المتغيرات الثقافية والعلمية إنقاذ للبشر من هلاك الكفر والإلحاد . ويخلط العامة بين الروحانيات والدين ؛ فالدين هو ممارسة الطقوس الخاصة بروحانيات العقيدة من قيم وأخلاقيات ومسلك . وتعرف منظمة الصحة العالمية الصحة بأنها ليست غياب المرض أو العجز ، وإنما هى التمتع بجودة الحياة الجسدية والاجتماعية والنفسية ، وقد أراد البعض إضافة البعد الروحى ولكن باءت هذه المحاولات بالفشل حتى الآن ، ولو أنى أعتقد أنها لو أضيفت فستضيف بعدا مهما فى صحة الإنسان .

وقد كشفت الأبحاث المختلفة فى أوربا والولايات المتحدة عن أن الأطباء النفسيين أقل إيمانا من باقى مجموع الشعب ، وأنهم أقل تفكيرا فى النواحى الروحية والدينية من آبائهم ، بينما وجدت العكس فى البلاد الإسلامية حيث تبين أن الأطباء النفسيين أكثر تدينا من مجموع الشعب ولا يختلفون عن آبائهم فى عمق إيمانهم . ويعود الاختلاف إلى أن الغرب يتبنى نظرية التحليل النفسى لفرويد الذى اتخذ موقفا خاصا من الدين ، وأن الإيمان بالله بسبب الشعور بالذنب والاتكالية والاعتمادية الضارة ببناء الشخصية .

وللأسف ، فإن العاملين بحقل الصحة النفسية يخلطون بين الدجل والخرافات والتطرف وعدم التسامح وبين الدين والإيمان مما

جعل البعض يصف هذا الموقف فى الطب النفسى بـ «كبت الدين» .
ومن هنا وجب علينا أن نفرق بين الضلال وهو اعتقاد خاطئ مرضى غير قابل للمنطق أو المناقشة ، وقد يكون فى هيئة عظمة كأن يكون رسولا أو نبيا أو مخترعا أو فى هيئة اضطهاد ، وبين أن أجهزة الأمن والمخابرات الأمريكية تراقبه . أما الفكرة المسيطرة فهنا يتبين للفرد أنها فكرة سخيفة ويحاول مقاومتها ولكنها تسيطر عليه . أما الإيمان الدينى وهو إحساس داخلى ليس له علاقة بالأفكار الضلالية أو القهرية .

ونظرا للعلاقة الوثيقة بين درجة الإيمان والصحة النفسية ، زاد الاهتمام حديثا بالبحوث الدينية والروحية كأحد معدلات العلاج النفسي ، والانتحار ، والإدمان ، والطب الإكلينيكي ، وأعنى أن الإيمان له دور متزايد فى تخفيض حدة الألم وتحسين مآل الشفاء فى الظواهر السابقة .

إن أهمية المعدل الدينى فى الفحص النفسى تفتقد إلى الاختبارات المقننة لقياس درجة الإيمان أو التدين ، ونحتاج إلى مثل هذه الاختبارات حتى يكون مقياسنا صادقا وثابتا . وعند استرجاع كل ما نشر فى المجلات النفسية العالمية لمدة ١٢ عاما ، وجد أن ٩٢ ٪ من المترددين على أماكن العبادة ، ويؤدون الصلاة بانتظام ، ويشاركون فى الطقوس الدينية ، تأثرت بوضوح صحتهم النفسية ، وكذلك وجدنا فى أبحاثنا فى مصر والبلاد العربية أن التردد على المسجد أو الكنيسة هو أحد عوامل الحماية ضد التعرض للاكتئاب . فيجب ألا نكتفى

بسؤال المريض : هل هو متدين ويؤدى الفروض أم لا ؟ ولكن نؤكد ماذا تعنى العقيدة والدين له؟

لقد آن الأوان ونحن على مشارف القرن القادم ، لتغيير فكرة الطب النفسى عن الإيمان وأن يكون أحد المعدلات المهمة لقياس الصحة النفسية . وإذا استعرضنا ٣٧٧٧ مقالة فى الطب النفسى منشورة فى أكبر أربع مجلات عالمية متخصصة ، لوجدنا أن ثلاثا فقط من هذه المقالات ذكرت البعد الديني .

وقد اتخذ التصنيف الأمريكى الرابع للأمراض النفسية موقفا جادا هادفا ، إذ أضاف فصلا كاملا عن المشكلات الروحية والدينية علاوة على الفصل الخاص بالاختلافات الحضارية فى الطب النفسي .

إن الفشل فى احتواء الإيمان فى تفكير الطب النفسى سيؤدى إلى ابتعاد هذا التخصص عن تجارب الحياة والفرد اليومية . كما أن المقولة بأن الدين هو أفيون الشعوب هى مقولة غير سليمة ويشوبها كثير من شطحات السلوك السياسى المعوج ، فكل الأديان تدعو إلى العمل والثراء والخير ولكن يجب أن يكون للضعيف والمريض الذى لم يؤهله ذكاؤه المتواضع للنجاح الفرصة لتلقى الخير وللأمل فى العالم الآخر . والحق أن العالم يجتاز حالة من الحيرة بسبب المجتمع الاستهلاكى واقتناص اللذة الفورية والإشباع المادي . وإذا نظرنا إلى العقائد المختلفة ، فسنجد إجماعا على أن الإشباع المادى ليس هو هدف الحياة .

فالهندوكية تقول: «عندما تمتلك كنز القناعة فأنت تملك كل شيء».

وفى الإسلام: «إنه لمن الصعب لمن يمتلك الكثير أن يتسلق طريق الرضا، وإن الغنى هو غنى النفس ورضاء العقل لا وفرة الملذات».

وفى الطاوية: «الغنى هو من يعرف أنه يملك ما يكفيه».

وفى المسيحية: «حياة الإنسان لا تعنى وفرة ممتلكاته».

وفى الكونفوشية: «تتساوى الوفرة والافتقار فى الخطإ».

وفى البوذية: «إن التعطش للثراء يؤدى بالإنسان الغنى إلى تحطيم ذاته وكأنه عدو نفسه».

والحمد لله لأن الدين فى عالمنا العربى هو نسيج حياتنا بغض النظر عن نوعية الدين أو ممارسة الطقوس الدينية أو إهمالها. وتتشكل شخصية الإنسان المصرى أو العربى سواء فى المنزل أو المدرسة أو المجتمع من خلال هذا النسيج الديني، ولذا فتأثير الإيمان وممارسة الدين فى مجتمعنا له علاقة واضحة بالصحة النفسية.

إن للإيمان والتدين جانبا إيجابيا من ناحية قبول الإنسان لذاته ضعفا وقوة (رحم الله امرأ عرف قدر نفسه)، وكذلك التوكل على الله لا الاتكال والنكوص عن بذل الجهد الكافي، وكذلك امتداد الوعى بالغيبيات والتأمل المتسامي الذى يكفل الطمأنينة. وللأسف فإن الدين يستغل أحيانا لأسباب سياسية وعنصرية كالتعصب والتطرف والتطهير العرقى والإرهاب جنبا إلى جنب مع عمليات دفاعية لاشعورية مثل الإسقاط وتناقض المشاعر والإنكار... إلخ.

وإذا نظرنا إلى اللغة الهندية ، نجد أنه لا توجد كلمة مرادفة لكلمة الدين ، وأقرب المعانى هو «الدارما» وهو مزيج من النظام الكوني ، القوانين المقدسة والواجبات الدينية . ففى الأديان السماوية يوجد إله واحد وكتاب واحد ، ونبى أخير ، على حين تسيطر الفلسفة والأساطير فى الهندوكية والبوذية .

ولا عجب فى أن نجد المسلمين فى كل مكان يتعجبون ويتهامسون ولا يستطيعون إدراك التسيب الخلقى فى المجتمعات الغربية وانتشار ظواهر مثل الشذوذ الجنسي دون أدنى شعور بالذنب مما جعلهم يؤمنون عن اقتناع بأنه : وإن كان الغرب قد انتصر اقتصاديا وسياسيا على الشرق إلا أنه غرق فى بحر من الظلمات والآثام والتحلل الخلقي .

إن الاختزال العلمى للحياة أصبح غير ذى جدوى حيث أصبح الالتصاق واضحا بين الثقافات الروحية والعلمية خاصة بعد التطور الجديد فى نظرية الشواش والفيزياء الكمِّيَّة (Chaos theory and Quan-tum Physics) . إن وظيفة الصحة النفسية هى خلق التناسق والتآزر بين الفرد وذاته وبين الفرد والآخرين . والصحة النفسية لا تعيش بمنأى عن الصحة الجسدية ، ولا تستطيع أن تجد صحة جسدية دون نفسية أو صحة نفسية دون جسدية ، وكأنما الصحة سراب لا يرى ، فهى موجودة دائما حتى فى غياب المرض تماما مثل وجود السماء بالرغم من اختفائها تحت السحاب . فالطب الذى يعتمد على العلم فقط دون

أساس روحى عبارة عن طب ميكانيكى غير إنساني . وتعنى كلمة الروحانية نظاما يؤكد وجود دافع غير مادى لا تدركه الأحاسيس البشرية أو أى فلسفة تؤمن بخلود الروح .

ويؤدى الإيمان دورا مهما فى تكوين الأعراض النفسية ، بل وأيضا فى العلاج . فالأعراض تختلف حسب النشأة الدينية . وفى أحد أبحاثنا عن مرض الوسواس القهرى وجدنا أن ٦٠٪ من الأعراض له علاقة بالدين سواء فى أعراض الوسوسة فى الوضوء أو الصلاة ، أو الحلال ، أو الحرام ، أو النجاسة ، أو الطهارة . بل وأحيانا ما تكون الأفكار الوسواسية فى هيئة العيب فى الذات الإلهية . ويتميز مرض الوسواس بأن المريض يكون على يقين بلا معقولية هذا السلوك وهذه الأفكار .

والطريف أن اللغة العربية هى الوحيدة التى تجمع بين الشيطان «الوسواس الخناس» وبين مرض «الوسواس القهري» ، ولذا يخلط المرضى بين المرض والشيطان فى المتكلمين بالعربية . حتى المحتوى للضلالات أو الاعتقادات الخاطئة فى المريض العقلى يتبع نفس النشأة الدينية ، فيعتقد المريض خطأ أنه المهدى المنتظر أو أن عليه رسالة سماوية أو أنه قد نزل عليه الوحى بأفكار معينة . بل إذا نظرنا للاضطرابات الانشقاقية وازدواج الشخصية فعادة ما يؤوّل ذلك باللبس أو المس بواسطة الجن أو الأسياد .

وهنا نستطيع القول إنه من الاستحالة علاج حالة نفسية دون معرفة الثقافة والحضارة والنشأة التى يتبعها المريض النفسى .

وتأثير الدين فى المجتمع المصرى والعربى تأثير واضح، وإذا أردنا النجاح فى تنظيم النسل أو مكافحة الإدمان أو زيادة الوعى بالمرض النفسى فعلينا الارتفاع بوعى رجال الدين بهذه المشكلات لأن المواطن المصرى شديد التأثر بالناحية الدينية.

وتوجد فروق كبيرة بين المجتمعات المحافظة التقليدية والمجتمعات الغربية. فمثلا يعتمد المجتمع الأوربى على أن الفرد له استقلاله الذاتى ولا يهتم إلا بالأسرة الصغيرة أى الزوجة والأولاد، وأن مستواه الاجتماعى يعتمد على أدائه الفردى. أما المجتمعات التقليدية مثل المجتمع العربى أو اليابانى أو الهندى، فالأساس عنده هو الأسرة والمجتمع وليس الفرد، والاهتمام يشمل العائلة كلها أى أنه مجتمع يتمركز حول المجموع وليس حول الفرد.

إن المجتمع الإسلامى على يقين من أن المرض وشفاءه هو بإرادة الله، ولذا كان قبول المحن والمآسى والمرض جزءاً من الإيمان. ومن النادر أن يرجع المريض فى هذه المجتمعات أسباب المرض والوفاة إلى فشل الطب، بل هى إرادة الله. ويختلف ذلك تماما عن أهل المجتمعات الغربية الذين يؤمنون بأن كل الأمراض والشفاء بيد الإنسان دون تدخل من الله.

ويجب أن نفرق هنا بين التوكل على الله عند المؤمن والاتكالية التى هى كسل لا يبيحه الإيمان. وقد قمنا بعمل بعض الأبحاث الانتشارية للمرض النفسي، ووجد أن حوالى ٧٠٪ من المرضى النفسيين

يترددون على العلاجات الشعبية وشبه الدينية قبل اللجوء إلى الطبيب، ولا ننسى أن الرعاية في القرى والمراكز وبعض المدن تتحقق من خلال زيارة المشايخ وعمل الحجاب والقراءات الدينية وعمل الزار . . . إلخ، وذلك لانخفاض ثقافة المواطن بالصحة النفسية.

وللأسف، فإن الكثيرين حتى الآن يؤولون المرض النفسى خطأ بأنه نتيجة قلة الإيمان وضعف الشخصية وعدم التمسك بأهداب الدين والكسل أو الجنون. ولا يعرفون الطفرة التى حدثت فى الطب النفسي، وأن كل الأمراض النفسية ما هى إلا تغيرات كيميائية وفسيولوجية فى المخ، وأحيانا حتى فى نسيج المخ، وأن تفاعل كروب البيئة على المخ شديدة، وأنه لا يمكن الشفاء إلا بإعادة التوازن لكيمياء المخ.

ومن المعتقدات الخاطئة عن الدين أن ثمة علاقة بين الإنسان والجن، وأن المجنون هو من مسه الجن. وإذا رجعنا إلى اللغة العربية لوجدنا أن كلمة «جن» تعنى اختفى أو استتر. فالجن أحد مخلوقات الله الخفية التى لا يراها أو يسمعها أو يتزاوج معها أو يتكلم أو يتقارب منها الإنسان وإلا خالف المعنى القرآنى، لأن كثيرا من المرضى عندما يذكر الجن سرعان ما يتطوعون بالقول إنه ذكر فى القرآن، ولكنه سوء التأويل على أيديهم. وكذلك اشتق من كلمة جن الجنين أى ستار حوله أى الرحم، والجنة ستار على إدراكها، والمجنون ستار على عقله. وقد ذكرت كلمة المجنون فى القرآن خمس مرات وصفا للأنبياء وكيف استقبلهم وأدركهم العامة عند قيامهم بإرشادهم

بالأديان السماوية ، أى أن لفظ مجنون فى القرآن يعنى من يخالف المجتمع وليس بالمريض العقلي .

وأريد أن أؤكد هنا أنه لا يوجد تشخيص فى قاموس الطب النفسى يسمى بالمجنون بل يوجد المرض النفسى أو العصابى والمرض العقلى أو الذهاني ، ولكن أسيء لفظ المجنون بواسطة الإعلام وحتى الأطباء لوصف كل الأمراض النفسية .

وأعتقد أن الإيمان يؤدى دورا مهما فى تغيير كيميائية المخ من مهدئات ومطمئنات وأفيونات مما يعطى الطمأنينة والسلام والأمل ويخفف من حدة الآلام النفسية والجسدية . ونتعجب عندما نعلم أنه توجد عقاقير ربانية لم نكتشف وجودها بالمخ إلا بعد سنوات من اكتشاف مرادفها . فقد تم اكتشاف المورفين والهيروين والكودين قبل أن نعرف أن الله قد خلق مستقبلات أفيونية فى المخ تفرز الأفيون الداخلى لتخفيف الألم . اكتشفنا الفاليوم كعقار مهدئ ، وبعدها علمنا أن الله قد خلق مستقبلات الجابا بالمخ التى تفرز موصلات عصبية مهدئة ومطمئنة . واكتشفنا عقاقير للاكتئاب ، وبعدها علمنا أن الله قد خلق مستقبلات السيروتونين المسئولة عن المزاج . وأخيرا اكتشف العلماء مستقبلات مخية شبيهة بالحشيش . أى أن عظمة الله سبحانه تتجلى فى خلق كل هذه المطمئنات والأفيونات لكى يخفف من آلام الإنسان . فالكلمة الطيبة تزيد من مهدئات المخ ، والحب الصادق يزيد من مطمئنات المخ ، والعمل الصالح يرفع من نسبة هذه

المواد. بل ثبت أخيراً أن الغضب والقلق والاكتئاب يقلل من عمل جهاز المناعة ويجعل الإنسان عرضة لأمراض المناعة من الروماتيزم والسكر وأمراض الشريان التاجي وجلطة القلب وسكتة المخ، كما أن الحالة النفسية لها علاقة واضحة بكل أجهزة الجسم.

لقد تقدم العلم، وتطورت التكنولوجيا وأصبح الإنسان ينعم برفاهية مادية استهلاكية، ولكن هذا لم يمنع الاغتراب والاكتئاب واليأس، وإذا بنا نعيش في متاهة حياتية وفراغ نفسي وإيمان بعبث في قيمة الحياة وعدم وجود معنى لها.

إن العودة إلى الإيمان هي الملاذ الأمثل للصحة النفسية، والصحة النفسية هي إسباغ الجودة على الحياة. إن طول الحياة دون جودتها هو مغنم أجوف. ولن يتمتع الإنسان المعاصر بالصحة النفسية إلا إذا عاد للإيمان، وأعنى بالإيمان كل العقائد التي تحض على الفضيلة والتضحية والتمركز حول الآخرين والابتعاد عن التمركز حول الذات.

المحتويات

رقم الإيداع ١٦٦٦٨ / ٢٠٠١
الترقيم الدولي 1 - 0756 - 09 - 977

آفاق في الإبداع الفني



